وعندما تجئ الى أختك
فهى تتمسح فى قدميك
آه .. يا أعظم الرجال
إن الصحة والحياة
عندها تعود الى ..

(من الشعر الفرعونى)

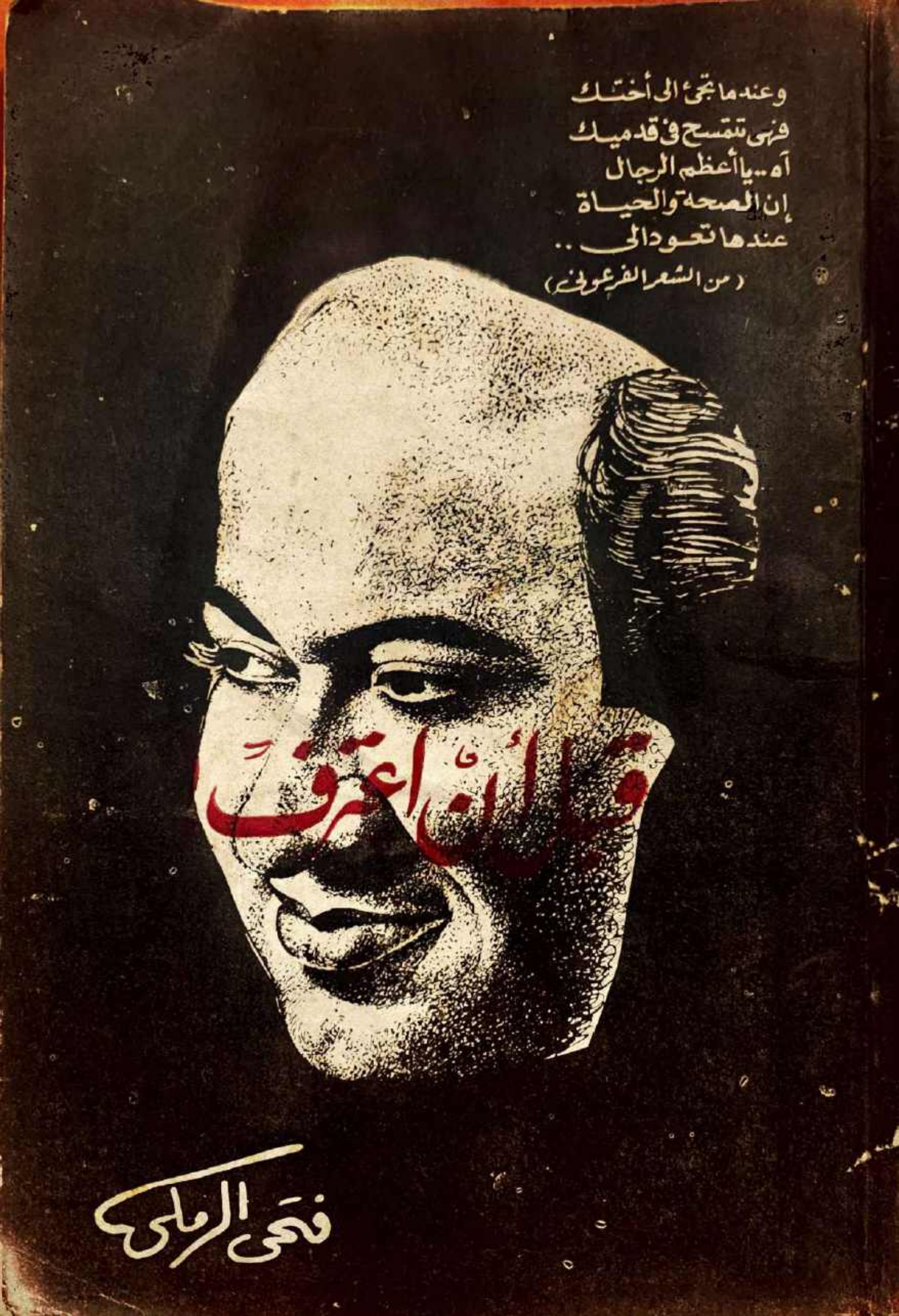

قبل أن أعترف

فتحى الرملى

وعندما تجيء إلى اختـــك
فهى تتمسح فى قدميـــك
آه يا أعظم الرجال
إن الصحة والحياة
عندها تعـــود إلى

« من الشعر الفرعونى »

قبل أن أعترف!

فتحى الرملى

فى ذكراك الثانية

إليك يا حبيبى . .

إليك يا غالى . .

إليك ياحبى العظيم ، وذلى العظيم ، على هذه الارض . .

٢ / ٦ / ١٩٧٩ زوجتك

عبلة فهمى

تنويه

اعتذر بشكل خاص للسادة الذين وردت أسماءهم فى هذا الكتاب ، إذا كان قد حدث تغيير فى ظروفهم أو اماكن عملهم .

فالمؤلف لم يعد يعيش بيننا . . ولم أستطع — شخصياً — أن اغير كلمة ، أو حرفا . . من كتابه الذى انتهى منه قبل بضعة أعوام ، فعـــذرة !

جميع المراسلات الخاصة بالكتاب ترسل الى ص . ب رقم ٦٨٩ مصر

قبل أن أعترف

أعتقد أن الإنسان يقدم على ترجمة حياته ، أو كتابة سيرته الذاتية فى حالتين ، أن تكون تلك الحياة حافلة بالإنتصارات ، زاخرة بالأمجاد التى يسعده أن يفاخر بها . . أو أن تكون حياته مليئة بالتعاسة ، يلازمها سوء الحظ وتصاحبها المطبات وتتوه بلقيا الطرق المسدودة ، والفشل المتكرر العنيد يتشبث بها كأنه المر والعلقم أو كأنه القدر الحزين . . وهذا النوع الأخير هو الذى دفعنى اليوم إلى الكتابة فى موضوع أعرف مدى الحرج فيه . . إن المطلوب الآن منى هو أن أتجرد من ثيابى ، بل من شىء أكثر . . أن أتجرد مما أضفيته على نفسى — ككل الناس — من طلاء زائف . . وما وضعته على وجهى من أقنعة ، من أجل أن أبدو فى « الشخصية » التى رسمتها لذاتى فى الحياة .

وعندى أن كل إنسان إنما هو فنان أصيل من هذه الناحية . . يظل يتأمل الناس والعالم من حوله ، ويخلق فى ذهنه — من مجموعهم — الصورة التى يحب أن يكون عليها ثم يظل يجرى عليها التعديلات التى يراها ، والرتوش اللازمة حتى « يصبحها » بعد أن تكون قد إستقرت فى نفسه مع الزمن ، وأصبحت هى النسخة « الأصلية » وعندما يلتف حولها المعجبون بها يلتقطون منها نسخا . . يضيف إليها كل منهم ما شاء أن يضيفه من ملامح أخرى . . وهكذا تمضى بنا الحياة .

ولقد طالما قلدت كثيرين أعجبت بهم فى حياتى . . وطالما قلدنى كثيرون أيضاً فاعتبرت تقليدهم لى نوعا من المديح ، وضربا من التكريم يفعله المقلد فى غفلة من وعيه ، اذ أن النفس البشرية تهرب من مواجهة حقيقتها ، وكنت بدورى أحاول أن أبدو لأولئك المقلدين وكأننى لا أراهـــم ، ولا ألتفت إلى محاولاتهم تلك حتى لا يصادرون لى ضغينة أو موجدة . . فالتقليد عملية تنطوى على سرقة ، سواء كانت عفوية أو مقصودة ، لكنها سرقة خفيفة مشروعة ومعقولة ،

فمثلا إذا كنت أديبا فستكون ولاشك قارئا لعـــدد من الكتب وربما فتنك واحد من المؤلفين فى لفظ أو تعبير ، فان لم تقم هنا بعملية السطو على بعض انتاجه عن قصد، اختزن ما أعجبت به فى ركن من ذاكرتك . . وانتظر حتى يظهر فجأة دون أن تنتبه له ، ويجرى به قلمك على الرغم منك .

وما يقال عن اللغة ينطبق أيضاً على الفكرة التى تعجبنا ، فنقتبسها . طبق الأصل أو نردد شبيهتها ، إذا كنا نتهيب حرفية التقليد ، أو أنها تختلط أو تمتزج مع غيرها من أفكار شبيهة لها ، أو نماذج منها ، أو أن توحى لنا بالفكرة المضادة لها مثلا إذا لم تكن لدينا جرأة « كبار المقلدين » وأخشى أن أكون — على الرغم منى — قد عبرت عن ذاتى بهذا الكلام ، وربما أكون قد استدرجت نفسى إلى الاعتراف من أول صفحة فى محضر التحقيق الذى أجريه الآن ، فالبعض منى يقوم بدور المحقق ، والبعض الآخر بدور المتهم .

لقد شرعت فى السطو على بعض الإنتاج الفكرى لوالدى . . ولشقيق الأكبر مصطفى . . هممت بنقله ونشره فى الصحف باسمى ، فأنا أشطب هذا من تاريخى ليس لأن الجريمة بسيطة ولا طلبا للعفو باعتبارى كنت صغيرا أو طفلا فى العاشرة، أى دون سن المسئولية وكذلك ليس أصرارا منى على حذف السابقة الأولى لصحيفة سوابقى ولكن لأن الجريمة لم تتم — لا لسبب خارج عن إرادتى — بل أننى تراجعت عنها بدافع من ضميرى ورغبتى فى أن أبقى نظيفا مدى الحياة .

ومن يدرى فلعل هذا الازدواج فى الدور الذى أقوم به ، يجعلنى أشفق على الشخصيتين فى وقت معا ، فالمحقق يشفق على المتهم القادر أو الفاجر . . المدرب على التخلص من مزنقات المحققين بالتغطية اللفظية وبالبراعة فى المناورة والقدرة على مواصلة الانكار . . هذا المتهم هنا — وهذا من غرائب الأشياء — يشفق على المحقق أيضاً ويقرر فى لحظة عطف، إن يسهل عليه مهمته، ويقرر الإعتراف

وهو لا ينبغى أيضاً أن يطلب إلى قاضيه — أى القارىء — أن يقدر ظروف اعترافه ، ويعفيه نهائياً من مسئولية أخطائه . . كلا . . أنى لا أستسيغ هذا المبدأ فى الإعفاء الكامل ويكفينى . . ويرضينى أن يستعمل القارىء معى الرأفة . . وأن أحكمكم . أعذركم الناس .

• • • •

ولكنى أقف قبل ذلك برهة لكى أقول أن هذه السيرة الذاتية لم تكتب مرة واحدة وإنما نشرت من قبل كذكريات مبعثرة بين مجلة الاثنين ومسامرات الجيب والحوادث ، ونداء الوطن فى فصول مثل « تنكرت فى زى هـــؤلاء » « ودوخت البوليس » كما كتبت فصولا منها فى المجلات العديدة التى كنت أعمل بها . . آخر ساعة ، وروز اليوسف ، والشعلة ، والمزيعة ، وفى المعارضة والبشير والمستقبل والتعاون ، والانذار، وأخيراً فقد جمعتها وربطت بينها بقدر الامكان، كما أننى استسمح القارىء إذا كنت قد تكلمت كثيراً عن نفسى وشخصى ، حتى لقد يقول البعض أننى « نرجسى » أى معجب بنفسى كما يقول علم النفس وأننى وصفت بعض أعمالى بالبطولة ، وقد تكون لنفس هذه الأعمال أوصاف أخرى أبعد ما تكون عن البطولة عند بعض الناس . . ولكنى أترك الحكم فى هذا للقارىء . . فله أن يقرر هل كنت أسير فى خط واحد طول حياتى منذ الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة أم أننى رسمت لنفسى صورة اتضح فيها بعد أنها ليست لى ؟

والآن هل أبدأ بسرد قصة هذه الحياة التى عشتها . . والله يعلم أننى صادق فى كل ما أكتبه . . ودقيق فى كل ما أرويه . . وهذا حسبى وهذا عزائى عما أكون قد أخطأت فيه على الرغم منى ؟ .

وأخيراً . . هل أنا رجل اجتماع وثورة وسياسة ، أم أننى رجل فن وشعر وخيال ؟ وهل كنت أصور رجل السياسة الثائر وأحاول تشكيله من لاشىء . . بلا خامات وأدوات استعين بها ، فلا أجد سوى نفسى نموذجا أحاول أن أرسمه من جديد وبألوان مبتكرة لأعطى لنفسى ملامح « السياسى الثائر » الذى أريده

« مخلصاً » جديداً يحمل على كتفيه خطايا الناس ، ويمضى بها إلى حيث يكفر عذاباتهم ، ويحولها بالحب والتسامح إلى حياة أخرى أكرم وأجمل ، فيها الخلود وفيها السعادة الأبدية ؟ أم هل كنت بالفعل رجل اجتماع وسياسة ينظر إلى الفن كبعض أدواته وأكبر وسائله إلى تحقيق أهدافه ، والتمكين لأغراضه ؟

وبما كنت هذا أو ذلك ، انني لا اعرف على وجه التحديد .. وهل يعرف الإنسان نفسه ؟ .. لقد كانت تلك هى دعوة سقراط (أعرف نفسك) ولازلنا منذ خمسمائة سنة قبل الميلاد — ونحن نحاول .. وما العلم ، وما الفن ، وما الفلسفة إلا بعض ما نحاول ربطه وتجميعه فى ذلك السبيل .. ان نحاول معرفة نفوسنا ولا اظن أننا بعد ، نستطيع !

هذا ما اعترف به قبل ان ابدأ سيرتى الذاتية ، وليعذرنى القارىء اذا كشفت عن بعض الاشخاص الذين مروا فى حياتى ، حتى أجعلهم شهوداً احياءاً على حقيقة اقوالى ، وليعذرنى ايضاً اذا تعمدت اخفاء اسماء ، اخشى على اصحابها مسئولية معاونتهم فى جرائم ارتكبتها حتى لايضاروا أو يحرجوا ، لقد أهملت اسماءهم ، كما أهملت بعض القصص حفظاً على اسماء اصحابها ، فليس من حقى ان أنبش قبورهم ، او اهتك اسرارهم !

المتهم العمومى

كنت فى الثالثة عشرة من عمرى ..

صبيا شديد الغرور ، لاأكاد أعترف بعمرى .. وأن لم أكن إدرك كثيراً أو قليلا عن تلك المعارك العنيفة التى تدور رحاها على صفحات « الجهاد » و « الشعب » أو « الصريح » و « الكشكول » .

لكن اذنى كانت تلتقط من أفواه الناس على كل حال ما يكفى لأن أكون صورة للموقف .. فالكل إذ ذاك كان يشتغل السياسة .. عبد السلام المكوجى يتصيدنى كلما مررت عليه لأقرأ له خطبة الأستاذ توفيق دياب ... !

والاسطى دسوقى الحلاق لايتسلم رأسى مرة حتى يروى لى فى أسف كيف حاول صدقى باشا الإعتداء على الرئيس الجليل ! والشيخ رمضان المقرىء الكفيف لايكاد يتربع على « الكنبة » فى منزلنا حتى يحدثنا عن « الاستخارة » التى عملها ليلة أمس ، وتأكد بعدها أن دستور ٢٣ سوف يعود !

وكلما مرت الإيام كان التيار الشعبى الجارف يعبىء حماسى لأشياء لا أكاد أعرف عنها شيئا .. الأغلبية .. الدستور .. البرلمان ! على أن هذه المعانى — رغم حماسى لها — لم ترسب إذ ذاك فى أعماق نفسى ، ولم تمتد لها جذور فى وجدانى ، فلم أكن بعد قد فهمت شيئاً أو قرأت حرفاً واحداً يشرح مضمون هذه الكلمات !

وفى مطلع عام ١٩٣٢ وقع لى حادث أطفأ شعلة الحماسة الوفدية ، أو ما كان متبقيا منها فى قلبى بتعبير أدق !

فى أحد أركان نادى الشبان المسلمين بالمنيا ، وجدت « كومه » من جريدة « الصرخه » ، وقد صدر ذلك العدد من صفحة واحدة على صورة منشور يحمل برنامجا لجماعة « مصر الفتاه » ودعوة حارة للشباب . . الجيل الجـــديد الذى سيحقق مافشل فيه الجيل القديم !

واستهوانى من الدعوة أسلوبها الملتهب ، وملأنى حماسا لها ذلك النداء الآخر الذى يختفى بين سطورها . . النداء الذى يخاطبنى شخصيا بوصفى « أحد » أبناء الجيل !

ولم يلبث توزيع جريدة « الصرخة » أن اصبح جزءاً من برنامجى اليومى وكانت عملية التوزيع هذه تفيدنى حقاً ، لا لأنها تملئى الصفاقة — وهى صفة لابد منها لمن يشتغل بالسياسة ! — بل وايضاً لأنها بدأت تخرجنى من عزلتى ، من فتى خجول منطو على نفسه ، إلى فتى جرىء يواجه الناس ببساطه . . ومن فتى قليل الكلام ، قليل الاهتمام بالسياسة ، إلى فتى مجادل ، مزعج ، إذا أبدأ يتعصب لرأى من الآراء !

فى ذلك الوقت ، عانيت كثيراً من محاولاتى العديدة لاطلاق شاربى ، حتى أثبت الناس جدارتى بتصدر هذه الدعوة الجديدة فى بلدى ، وكانت أمانيتى أن يصدق الناس وقتها أننى بلغت السادسة عشره ! .

وفى الرابع والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمرى ، أو بتعبير أدق من سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٥٤ ، لا أكاد اعرف قضية سياسية واحدة قد خلت من اسمى !

قضايا الإرهاب وقضايا الشيوعية ، وقضايا التآمر لقلب نظام الحكم بأية وسيلة وبدون وسيلة ! وقد أصبحت وجها مألوفا لدى أكثر رؤساء النيابة جميعا ، كانوا يعرفوننى شخصياً من كثرة ما حققوا معى وسألونى . . بل أننى أذكر

النائب العام الذى استدعانى يوما ليبلغنى شكوى حكومة النقراشى باشا منى ، فبادرته بشكواى ضد حكومة النقراشى باشا ! وقلت له يومها فى سخرية مريرة وأنا فى ثورة غضبى . « لعلى عينت عندكم فى وظيفة المتهم العمومى ؟ » . فابتسم وقال . . هذه فعلا أنسب تسمية لك . . قلت معقبا . . إذن اكتب لى مسوغات التعيين لتعهدوا الى بكل اتهام لاتجدون له متهما وأنا . . أكتب لكم إعترافاً كما تملوه على . . ولنتفق مقدما على الاجر . . هـــل يعجبكم المرتب الثابت ؟ . . أم تفضلون أن تدفعوا لى بالقطعة ؟ .

وابتسم سعادة النائب العام — محمود منصور باشا فى تلك الفترة — ولاذ بالصمت ، بل وحاول مسمح الإبتسامة التى كادت تستقر على شفتيه لزوم الوقار الذى يحتمه عليه المنصب !

وكان « البوليس السياسى » يسبق النيابة إلى إعتقالى ، فهو المسئول عن تقديم « الوجوه الجديدة » إلى النيابة ، بعد أن يفتش بيوتهم ، ويخرج منها صفر اليدين ، إلا من بعض كتب ومؤلفات ، تغمر السوق !

هكذا أتهمت فى جميع القضايا بلا استثناء . . من أول القضايا الشيوعية « الخبز والحرية » و « الشيوعية الكبرى » و « الترويج للمبادىء الهدامة » ! إلى كثير من قضايا الإهارب ، والقاء القنابل بالجملة والقطاعى !

وفى مقدمتها قنبلة سينما مترو . . وقنبلة سينما ميامى ! كما اتهمت فى قضايا الاغتيالات ، ومنها قضية الإعتـــداء على سيارة الرئيس السابق مصطفى النحاس باشا ، وفى تنظيم عصيان مدنى ! بتحريض العمال المتعطلين على الأكل فى المطاعم العامة دون أن تدفع ثمن الوجبات حتى جاءت النيابة وأفرجت عنا بلا كفالة ولا ضمان . إلا أنهم وجهوا إلينا تصيحة بعدم الرجوع إلى هذه الجريمة ، والتى لم يصدر بها تشريع إلا بعد أن نفذناها ! هى يكفى هذا . . كلا . . لقد حاولوا

إتهامنا بالتمرد ، ومحـــاولة تكدير السلم ، ونشر الأشاعات الكاذبة . . الخ . . الخ ..

وسأحاول أن أكتب كل هذا ، وهو كثير فى أقل حيز ممكن حتى لا أفوت على القارىء فرصة التجول معى فى هذه السيرة الذاتية الطويلة ، والتى عشتها دون أجنى منها سوى هذا الكتاب ! .

والآن ، إليكم إعترافاتى بالتفصيل !

النسب الشريف

إسمى محمود فتحى ابن عبد الله فكرى ابن محمد زكى ابن مصطفى محرم ابن محمد ابن السيد أحمد ابن السيد شمس الدين الرملى الحسينى . . وشهرتى « فتحى الرملى » والرملى ، هو اسم جدنا الكبير ، وقد عرفت مما نشرته الدكتورة سعاد ماهر استاذ التاريخ الإسلامى فى الجامعة ، أن جدنا المدفون فى ضريحه الأثرى فى مسجده المعروف باسمه بشارع الرملى بميدان باب الشعرية ، هو الإمام شمس الدين الرملى من أكبر علماء عصره وكان استاذا الإمام الشعرانى نفسه ، ومن هنا كان فخر والدى واعتزازه بالنسب الشريف إذ أن الإمام الرملى كان من احفاد شهيد كربلاء ، الحسين ، رضى الله عنه ابن الإمام على ابن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان اعتزاز والدى لانتساب سلالتنا إلى الشجرة النبوية الشريفة يتجلى فى شيئين ، الأول . . حرصه على استلام عشرة قروش من نقابة الإشراف هى كل ميراث حياتى . . والثانى . . اهتمام والدى باستخراج صورة لشجرة العائلة من واقع سجلات الإشراف لكى يضعها فى اطار مذهب يعلقه فى ابرز مكان بمنزلنا .

أقول كل هذا وأنا استعرض شريط حياتى وأبحث عن المنـــابع الأولى لاتجاهى فى الحياة . . فقد كنت وأنا طفل اعجب وأتساءل من أين للنبى الكريم هذا المال الذى ورثناه ، لقد كان صلى الله عليه وسلم فقيرا ، وكان عليه الصلاة والسلام يقـــول (رب احينى مسكينا وامتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين) .

لذلك بقيت صبيا وشابا أبحث عن سر هذه المبالغ الضخمة التى تركها النبى

والتى تحولت على مدى ألف وأربعمائة سنة إلى عشرة قروش توزع على ألوف وملايين المستحقين وكانت فى عهد نقيب الإشراف الأسبق السيد عمر مكرم تصل إلى سبعين ، بل وتسعين قرشاً .

ولم يرتح لى بال .. إلى أن كبرت ووجهت عنها سؤالا إلى المرحوم فضيلة الإمام مصطفى عبد الرازق ضمن حديث صحفى ، فقال رحمه الله : أنه منذ عهد الصحابة ومن إليهم كان الأغنياء منهم يكتبون بأموالهم ويوقفونها على أهل بيت رسول الله ، تكريماً للنبى العظيم فى ذريته وتأميناً لها من العوز والإملاق . .

وكان هذا الموضوع — موضوع المعوزين والمساكين — هو شغلى الشاغل وأنا بعد فى دور الطفولة ، وكان مادة خصبة تنطلق منها خيالاتى ، ولعل مما ساعد على التهاب وجدانى وإحساسى المرهف أننى منذ بدأت أعى ما حولى كانت ثمة قصة تلح على أذنى وتفرض نفسها على فرضاً . ذلك أن مأمور الضبطية هاجم بيتنا وفتشه فعثر على مجموعة من الخطابات بخط وتوقيع الثائر الوطنى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله موجهة إلى والدى عضو الحزب الوطنى . . . ولا أعرف تفصيلات ما حدث بعد ذلك إذ ذاك ولكن المهم أن والدى فصل من عمله وأدخل السجن فى حادث اغتيال بطرس غالى باشا بواسطة الوردانى ، وعندما برىء وخرج من سجنه لم يعد إلى عمله ، بل عين فى وظيفة معاون إدارة وكانت تقل كثيراً من وظيفته الأولى وذلك فقط رحمة بأولاده وكانوا كثيرين إذ كان أبى إلى جانب اهتماماته السياسية ونشاطاته الأدبية مزواجاً كثير العيال[1] وكان فناناً أيضاً ، إذ كتب أول دراما فى تاريخنا الأدبى . . مسرحية مكتوبة بالسجع عنوانها « العناد والقهر فى دخول الفرنسيس مصر » ولعلها لا تزال فى بيتنا حتى الآن . وقد مثلتها فرقة فاطمة قدرى فى تلك الأيام البعيدة .

---

(١) انتقل منهم إلى رحمة الله ١٢ بناً وولداً . .

ولنعد إلى الحديث عن الوالد . . . وكأنما كان رحمة الله يكفر عن ذنوبه فى سنواته الأخيرة قبل الوفاة كأغلب الناس ، ولعله أيضاً كان يودع دنياه بعد أن شبع منها أو يئس منها فأقبل على التصوف ، وأسرف فى زيارة الأضرحة ، وكنت أصحبه عادة فى بعض تلك الزيارات ، ولفت نظرى أنه كان يتردد كثيراً على مقام الإمام على زين العابدين ولاحظ مرة أننى أتمرد على هذه الزيادة التى عانيت منها طويلا بسبب وعورة الطريق وكثرة مطباته . . فقال لى وهو يربت على خدى « أنه جدك » فقلت برما : كلما زرنا الحسين رضى الله عنه قلت لى أيضاً أنه جدى . . فضحك رحمه الله وقال « وهذا أيضاً جدك » ووجدتنى لم أفهم . . فقال يقرب الموضوع إلى عقلى الصغير « أنه على زين العابدين أحد أبناء الحسين ، وهو فرع من الشجرة النبوية الشريفة ويعتبرونه آخر إمام وسيط على ابن أبى طالب كرم الله وجهه زوج السيدة فاطمة الزهراء وكان على زين العابدين يختفى عن الناس والمريدين شهوراً وأسابيع ، ولا يظهر إلا للفقراء والمعوزين والمرضى وذوى العاهات . . يظهر لمن هم فى حاجة إلى مواساته لهم ، وعطفه عليهم ، يحضر لهم بالدواء الشافى أو الطعام الكافى حين تعز عليهم كلمة حب طيبة من كل الناس وحتى بعد إن مات ظلوا يرددون أنه حى ، وأنه يظهر لأحبائه المساكين ، كلما أدلهمت الخطوب وأحاطت بهم النكبات ، ويؤكدون أنه لن يلبث أن يعود ليجفف دموعهم ويجبر كسورهم . . . . ويعالج مرضاهم ، ويسعف جرحاهم ، ويرحمهم من عذاب الجوع والحرمان والضعف » . . . .

ورأى والدى قد انفعلت بهذه الصورة ، وتأثرت كثيراً بها ، فقال ليزيدنى انفعالا . . . . أنظر ماذا ترى حول ضريحه العظيم ؟ . . هاهم مئات المرضى والصرعى والمشوهين ، هؤلاء الفقراء الذين يصرخون من فرط آلامهم ، أو من فرط الوله ينتظرون عودة الإمام الغائب على زين العابدين وسألت أبى متعجباً « أليس الإمام زين العابدين مدفوناً فى هذا الضريح كما قد مات ، ولن يحضر بالطبع » . .

ورد أبى وقد طفرت من عينه الدموع « سيحضر يا ابنى فى شخص عشرات

بل مئات من الذين تأثروا بسيرته ، ويقومون عنه بهذا الواجب ، ولا عجب فقد كان الإمام الثالث والاخير فى الدوحة العلوية .. لا تنسى يا فتحى .. وعدنى ان تزوره ، ولو مرة فى كل عام لتقدم بعض الهدايا لاولاء الفقراء الذين يلوذون ببركاته » ..

وطوتنى دوامة الحياة وشغلتنى عن وصية ابى ، ولكن الصورة التى اوضحها بقيت تشغل خاطرى وتملأ قلبى ، حتى إلتقيت يوماً بالفيلسوف الإسلامى المغفور له طنطاوى جوهرى ، وكنت ابحث عنه ايام الشباب ساخراً ولا حضر مع شقيق الأكبر مصطفى محرم بعض جلسات تحضير الأرواح التى يعقدها ، واسمع عن النظريات القديمة والحديثة فى تناسخها ، فقال رحمه الله « ان الفرق الشيعية ، كانت اول من قال بالتناسخ والحلول ومن اشهر من قيل فيه الكثير عن التناسخ على زين العابدين » .

وكنت قد نسيت الإسم الكبير — سامحنى الله — ففلت له متعجلا « لقد كان جدى » ورويت له قصة ابى ، فسألنى عنه وكان يعرفه ، فقلت « لقد مات » ... واستطردت احكى له كيف مات فى المنيا بعد ان فقد ذاكرته تحت وطأة الشيخوخة وما مر به من احداث ، جعلته يلجأ فى اواخر ايامه إلى التصوف فلا يكاد يغادر صومعته التى تحصن بها واعتكف فيها عن الناس لا يغادرها إلا ليلا ، حتى جاء يوم اختفى فيه تماماً عن الأعين قبل وفاته بأسابيع .. كما اختفى شقيقه توفيق من قبل وكما اختفى ايضاً جد اجداده الإمام على زين العابدين ..

لذلك عشت طول عمرى اهتم بالقراءة والحديث عن التناسخ حتى بعد ان آمنت بالفلسفة المادية ، وتجردى عن الخرافات ايا كانت فلا علم لنا حتى الآن بالروح ، التى هى من امر ربى ، فما بالك بتناسخها وانتقالها من وعاء إلى وعاء ، او من جسد إلى جسد ..

المهم أنى فى انتظار ما يكشفه لنا علماء الميتافيزيقا .. وقد قرأت فى بعض الصحف أن فريقا منهم فى الإتحاد السوفييتى ، أو شكوا أن يصلوا إلى حقائق هامة فى هذا السبيل لم يعلنوا عنها بعد ، فلن يطول بنا إذن الانتظار .

باختصار تلك هى ظروف « ثوريتى » وتلك كانت مدرسة التخطيط التى تعلمت فيها طفلا ، وهنا لا أنسى أمى المرحومة السيدة « آمنة » بنت فضيلة الشيخ « حسين سليمان » مفتى الديار المصرية عن الصعيد ، كما كان الحال فى ذلك الوقت وكانت شغوفة بالاطلاع ، وأذكر أنها كانت تحدثنى عن أهم ما يصادفها فى الكتب والصحف وكانت تقرأ العائلة كلها فصولا من كتاب « صراخ البرىء » وهو كتاب قديم مزين بالرسوم التوضيحية يروى قصصا تاريخية حقيقية عن حوادث خطف المسلمين والمسيحيين هم وأولادهم بواسطة اليهود وذبحهم فى عيد الفصح لعجن القرابين بدمائهم بعد تصفيتها من أجساد الضحايا .. إذ أن هذا كان بعضا من عقيدتهم الدينية كما جاء فى التلمود .

وكان إهتمام أمى الثانى بقضية المؤامرة الكبرى فى أواخر عهد الثورة المصرية سنة ١٩٢١ وهى المعروفة بقضية « شفيق منصور وأولاد عنايت » نقرأها من مجلة اللطائف المصورة التى كانت تصدر فى ذلك الحين ثم تزيد عليها بعض قصص الثورة تحكيها من ذاكرتها كقصة تلك الحادثة المعروفة فى محطة دير مواس والتى ذبح فيها الثوار بعض الجنود الإنجليز ، وكانت أمى تحرص وهى ترويها على أن تذكر أن ابن عم لوالدى قد أعدم بسبب اشتراكه فيها وهو مأمور مركز .. ولم تكن أمى متوحشة ، بل كانت رحمها الله إنسانة طيبة ، ذوب رقة وحنانا ، وقد ورثت عنها الثورة والإنسانية معا ، أو كما قد يحكم القراء فى نهاية كتابى هذا ! وأواصل حديثى فأقول أن هذه الجسور الثورية فى حياتى قد امتدت يوما بعد يوم ، فقد أردت الالتحاق بمدرسة الفنون والصنائع بالمنيا وكنت أعرف — مما يشاع بين طلبتها — أن النومرجى الذى يتولى تقديم الطلبة للكشف ، يتقاضى خمسين قرشا ...

رشوة من كل طالب مستجد لحساب الطبيب حتى ينجح فى الكشف، وأخذت المبلغ فعلا معى للبلبيه التومرجى الخاص، ولكنى ترددت على هذا الوضع، أو لعل خجلت ولم أدفع الرشوة، وسقطت فى الكشف الطبى طبعا . . وحولت أوراق إلى مدرسة المنيا الثانوية حسب رغبتى، ولكن بعد أسبوعين بالضبط نودى على إسمى وأبلغت أن الوزارة لم توافق على طلب المجانية — إذ جاء متأخرا عن الموعد المحدد لتقديم الطلبات . . وطردت من المدرسة، ثم سمعت فيما بعد أن مكانى شغله أحد أبناء العمد ! . وحولت أوراق مرة أخـــرى إلى مدرسة الأقباط الثانوية، إذا كانت شروطها أيسر ومصروفاتها أقل، وكان من بين الشروط السهلة أن المدرسة قبلتنى الفرقة الثانية بدلا من الأولى بعد إمتحان أسهل من تلك الشروط نجحت فى كل مواده فعلا ما عـــدا اللغات فحددوا لى موعداً بعد ثلاثة أيام لإعادة الإمتحان ونجحت فى الإنجليزية ورسبت فى الفرنسية فحددت لى المدرسة موعداً لإمتحان آخر فى هذه اللغة باعتباره ملحقا ثانيا فرسبت أيضاً، وحدد لى موعد ثالث لأدخل ملحقا جديداً — إذ أن معاون المدرسة رحمه الله اقتنع فى النهاية بأنى لا أملك رسوم الملحق الرابع، وعند ذلك فقط نجحت فى ذلك الملحق الثالث ! ويطول بى الحديث عن المعاناة التى كابدتها فى خطواتى الأولى فى التعليم الثانوى حتى وضعت مباحث المنيا حدا لبقائى هناك، إذ تصيدنى رجالها وأنا دون السادسة عشرة واستضافونى لديهم أربعـــة أيام ثم أرسلونى لمقابلة مدير المنيا بالنيابة — المرحوم إبراهيم، بك، فهمى السيد — وانتهت المقابلة العاصفة بترحيلى إلى القاهرة . . وكان المضطهدون ينفون من القاهرة إلى الصعيد، أما أنا فقد نفيت من الصعيد إلى القاهرة ! !

ولكن، ماهى قصة هذا المنفى وحكايته بالضبط ؟؟

فى الرابعة عشر من عمرى ظللت أتأمل عيشة الفقراء وكلما قرأت شيئا عن المظالم التى يرسفون فيها، رحت أفكر فى الطريقة التى يمكن تخليصهم بها من الفقر الذى يعانون وراودتنى عدة أفكار . . فكرت أن أعمل بالتجارة لكى أجمع

ثروة كبيرة جدا، أقوم بعد ذلك بتوزيعها على الفقراء . . وتصادف فى ذلك الحين أن قرأت مقالا عن الكاتب الروسى الكبير، تولستوى، وكيف فعل نفس الشىء من قبل، وكان كاتب المقال يسخر من الكاتب الروسى الكبير ويقول أنه لم ينقذ أحداً من الفقراء، وإنما كان كل ما فعله هو أنه أضاف إليهم واحدا هو تولستوى نفسه عندما فقد ثروته !

ثم قرأت بعض روايات « اللص الشريف، أرسين لوبين » التى كانت منتشرة جداً وقتها وتأثرت بشخصية أرسين لوبين الخرافية التى تسرق من الأغنياء لتوزع ما تسرقه على الفقراء . . وتساءلت . . ولماذا لا أكون بدورى لصاً شريفاً ؟ وأحمد الله أننى عندما بدأت أفكر فى التنفيذ وجدت إستحالة فى تحولى إلى لص، وشريف ! !

ثم مالبثت أن حلت محل اللص الشريف صورة أخرى هى صورة تجميع الأنصار ! ! وكنت قد قرأت عن « الحسينية » معقل الفتوات بجهة العباسية والمعارك التى يخوضونها وضروب البسالة والقســوة التى يظهرونها وعندما قرأت عن فتوات الحسينية كنت كمن اكتشف الطبقة الثورية الجديدة ! . وكنا آنذاك نقضى الأجازة الصيفية عند أقارب لنا بالقاهرة، وفى لحظة حماس قررت الا أضيع الأجازة سدى . . فذهبت إلى « الحسينية » واخترت مقهى يجلس عليه كثيرون وتأهبت لحديث مع بعضهم ومصادقتهم، ثم عرض مشروعى بعد ذلك عليهم وإذا بأول صديق أحاول اصطياده يحاول هو أن يصطادنى وقبل أن أفتح معه حديثى عن « عصابات الخلاص » كما كان فى ذهنى أن أسميها . . إذا به يحدثنى عن تجمع يقوم به الفتوات لـ « فتح » دماغ أحد الخصوم ولعله

زعيم الحسنية فى ذلك الوقت فيدين لنا أنصاره بالولاء ، وهى مغامرة — كما يقول — لايقوم بها الا « الجدعان » !

ثم استرسل « الصديق » فقال إن علينا بعد أن نفتح دماغ صاحبنا ان نركب إحدى البواخر المتجهة إلى أوروبا خلسة لنهرب من البوليس ، وفى فرنسا مثلا سوف نجد أى عمل لنعيش !

ولا أعرف ماذا كان يريد ذلك الرجل وهو أكبر منى سناً ، بل أذكر أن سنه كانت ضعف سنى . ولعل الله أنقذنى منه ؛ إذ كان قد ختم حديثه السابق بأن طلب منى خمسة جنيهات فقط نستعين بها فى رحلتنا إلى باريس ولم أكن أملك هذه الجنيهات الخمسة ، وبالتالى لم أرحل ، ولم أعد إليه !

ولم يضايقنى هذا الحادث ، فقد كنت مشغولا بالفقراء وتخليصهم من فقرهم وقد خشيت أن يفشل برحيل مشروعى الاساسى ، ولا أجد فى فرنسا فقراء ، ولا أجد بها أيضاً فتوات ، فقلت أعزى نفسى ، إن فقراء مصر أولى برعايتنا !

أرقام مخيفـــة

... هكذا إذن كنت متوهلا للثورة والتمرد بحكم نشأتى ، وكأنى كنت على موعد مع تلك « الربطة » الضخمة من المنشورات التى عثرت عليها صدفة تحت أحد المقاعد فى نادى الشبان المسلمين بالمنيا ، ولفت نظرى إليها أنها كانت مرسلة من الأستاذ محمد صبيح ، وكان من بلدياتنا وهو صديق أخى حسين الذى يكبرنى بعشر سنين ، وكانت الربطة عبارة عن دعوة ملتهبة الأسلوب ومرجعة إلى الجيل الجديد ، للكفاح عشر سنوات من أجل مجد مصر ..

وكان ذلك المنشور هو أول ما أصدرته جمعية مصر الفتاة لتعلن عن قيامها ، وهى إمتداد لحركة مشروع الفرش الذى كنت من متطوعيه ، وقمت من فورى بحمل المنشورات ، وتوزيعها على المقاهى وبعد شهور قررت بدورى أن « أقلد » أحمد حسين وأطبع منشوراً خاصاً بنا فى المنيا ، وقد أحسست منذ وزعت المنشور الأول وشكلت فرعاً لمصر الفتاة وحاسبت نفسى فوجدت أنى أصبحت متعطلا بلا عمل ، وكتبت المنشور الأول لنا بعنوان « أرقام مخيفة » ، وكانت الأرقام المقصودة ، والتى استوحيتها من بعض الصحف ، تتحدث عن عدد الأميين والمرضى ، والفقراء الذين لا يكفى دخلهم الكفاف ولا يسد الرمق .

وخرجت لتوزيعه مع لفيف من أصدقائى طلبة المنيا ، ووجدنا رئيس المباحث — الشخصية المعروفة إذ ذاك فى البلد — وهو المرحوم اليوزباشى أبو زيد كبيد واقفاً يجلس فى محل حلوانى فذهبت إليه فى زهو ، أو فى بلاهة ، ووضعت أمامه فى استخفاف نسخة من المنشور ، وما هى إلا برهة ، حتى وجدناه يجرى خلفنا ، ولا يكاد يقترب منا حتى يأمر بعض رجال الشرطة الذين تجمعوا على الأثر بالقبض علينا . . وأركبنا حنطوراً وذهب بنا إلى مخفر البوليس حيث كان وكيل النيابة الأستاذ معروف محمد ينتظرنا ، وبدأ التحقيق فاعترفت

ه بكل شيء . . . وناقشني المحقق في معنى المنشور والمقصود منه ؟ ورأى المحقق أن المتهمين أمامه مجموع من الصبية والفتيان لعلى كنت أكبرهم سناً ، وكان الرجل حكيماً فقرر الإفراج عنا في الحال . .

وخرجت وأنا في منتهى السعادة ، إذ ماذا يفعل الزعيم أحمد حسين — عافاه الله — أكثر من هذا ؟ . . كتابة منشورات ، والاعتراف بها بجرأة ، والدفاع عن نفسه بمنتهى الشجاعة ، وبطريقة في منتهى البراعة أيضاً إذ كان يقنن كل حركة ويؤصلها دستورياً فيزداد إعجابي به كفقيه قانوني ممتاز ولكن محضر التحقيق لم يكد يصل إلى مكتب النائب العام حتى رأى من خطورة المنشور ، إعادة التحقيق معنا بتهمة ترويج الشيوعية !

وعاد اليوزباشي كدواني إلى بيوتنا ينبه علينا بالمثول أمام النيابة مرة أخرى في الغد ، وقال وهو يفتح صفحة من قانون العقوبات ويقرأ منه المادة ١٧٤ التي تنص على أن كل من يروج علنا مبادىء من شأنها قلب نظام الحكم بالقوة والإرهاب والعنف يعاقب بالأشغال الشاقة . . . . الخ — إلى أن يصل إلى المادة التالية التي تنص على الحكم على رئيس هذه العصابة بالإعدام شنقاً . . . . وابتسمت متظاهراً بالاستخفاف ، ولكن الواقع إني أحسست أن المسائل أصبحت خطيرة ويجب أن يعمل لها حساب . . . وألف حساب !

وأعملت تفكيري بسرعة وتذكرت أن « حامد فكرى » الطالب بمدرسة الزراعة وأحد المتهمين معنا من أهل مديرية قنا ، وأنه ابن أخ النائب العام في ذلك الوقت « يس باشا أحمد » فلماذا لا نستغل هذه القرابة في التخلص من ورطتنا ؟ ، ورتبت المسألة فطلبت إلى « حامد فكرى » أن يتخلف عن التحقيق فلا يحضره ، ثم يترك لنا الباقي ، وفعلا سارت الأمور كما قدرنا لها فقد سألنا المحقق عنه وتركت غيرى يقول أنه سافر فجأة إلى القاهرة ، ولما بدأ وكيل النائب العام يسأل عن عنوانه ، تطوعت أنا فوراً بالجواب قائلا أنه سافر إلى عمه هناك ، وسألني وكيل النيابة وما اسم عمه وعنوانه ؟ قلت : أنه يس باشا أحمد

. . . النائب العام ولا نعرف عنوان بيته ! وتوقف القلم في يد الرجل لفرط المفاجأة ، ثم فكر قليلا — وظل يتأملني — ولعله أدرك أنه وجد عذراً أمام النيابة عن حفظ الحق في المرتبة وأشر وكيل النيابة على الأوراق بعبارة فيها نوع من التشفى والتأنيب لمن أعادوا إليه التحقيق الأول ، ومؤدى العبارة أن المطلوب هو سؤال الأستاذ أحمد حسين في مصر عن هذا الحادث ، إذ أننا من اتباعه ، ولا شك أننا لا نعرف كيف نكتب منشوراً مثل هذا إلا أن يكون بتحريض من أحمد حسين أو أحد كبار رجال حزبه ، ولسنا من الصغار ذوى البنطلونات القصيرة !!

وقامت القيامة في القاهرة ، وفتشت بيوت زعماء الحزب ، وسئل بعضهم ، ووجهت إليهم تهمة الشيوعية أو الاشتراكية ، فقد كانت الاشتراكية في ذلك الحين تهمة ، فقد وصف منشورى بـ « الاشتراكية » ، كما اتهمنى نفس الحزب أيضاً بتلك « التهمة » وهو يعلن في بيان رسمى تبرؤه من فعلتى ، مع تحذير أعضاء الحزب بألا تصدر أية منشورات إلا بعد الرجوع إلى قيادة الحزب،أما انا . . فلم أعلم شيئاً مما حدث ، إلا يوم أصر « إبراهيم بك فهمى السيد » على طردى من الدنيا — هكذا بلا سند من عرف أو قانون — فأخذنى المخبرون إلى البيت حيث جمعت ملابسى ، ومن هناك إلى المحطة ، حيث حجزت لى تذكرة سفر — بلا عودة — إلى القاهرة . والحق انني لم أعارض ولم أعترض ، لأني في تلك السن الصغيرة كنت استعذب الآلام ، وقد اعتبرت ان ترحيلى هو ذروة الدراما ، فها هو مدير الإقليم ينفيني ، كما نفى الخديو توفيق الزعيم جمال الدين الأفغاني من مصر إلى إيران . . ولعلي ايضاً في تلك السن كنت أربط بين سفر الأفغاني إلى إيران وتوليه الوزارة بعد أيام . . .

ولكن ها أنا وصلت إلى القاهرة فلم أجد مجداً ولا وزارة ، بل وجدت توبيخاً مستمراً من أخي الأكبر الذي نزلت عنده ، على هذا الأسلوب الطائش . . . ومن أقاربي جميعاً الذين استنكروا اشتغالي بالسياسة دون الدراسة . . وحتى حزب مصر الفتاة ، ما كدت أدخله حتى وجدت إعلاناً في لوحة الإعلانات

يقول أن « المجاهد فتحى الرملى » قد أوقف عن نشاطه كعضو فى الحزب لمدة ثلاثة شهور عقاباً له لطبعه منشورات بدون إذن ولا تكليف . وتركت بيت أخى بل وهجرت أهلى جميعاً ، واستأجرت حجرة متواضعة فى حى السيدة زينب ولم أكن أقابل أحداً فى تلك الفترة ، ولكن حدث أن التقيت بأحد الأصدقاء صدفة ، فأبدى دهشته صائحاً « أنت خرجت من السجن » .

وفى ذلك اليوم عرفت أن البوليس كان يبحث عنى ، وأن منزلنا فى المنيا قد فتش كما فتشت عزبة أحد أقاربنا بمركز أبى قرقاص ، وأن بيت أخى أيضاً فتش ، وضبطت فيه بعض الأوراق « الهامة » ، وأن أخى نفسه سئل فى النيابة عن هذه الأوراق الهامة ، وكان فى كل ذلك ما يفسر سؤال ذلك الصديق ، إذ كان قد استنتج مع أخى أننى قد اعتقلت فى أى مكان ، وأننى لا أزال رهن التحقيق ، إذ كانت قد وضعت فى ذلك الحين محاولة لاغتيال شخصيــــة سياسية كبيرة هى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت .

وبكتنى ضميرى إذ كيف أكون سبباً فى إزعاج أمى وإخوتى ، وأهلى على هذا النحو ؟ ولم يكن لى من عزاء إلا أننى لم أكن أعلم ، وذهبت فى التو إلى دار النيابة العامة فى باب الخلق كى أسلم نفسى ، ولكن البوليس الذى يحاصر المحكمة ظل يمنعنى من الدخول ، بل من الاقتراب من النيابة ، حتى عند ما قلت له إنى « مطلوب هنا » وأخيراً جاء الفرج على يد أحد ضباط البوليس السياسى هو « حلمى شعير » الذى ما كاد يلاحظ المشادة التى دارت بينى وبين الشرطة حتى جاء يستطلع الأمر ، ولما عرف حقيقة الأزمة وسألنى عن إسمى اصطحبنى ودخل بى إلى النيابة ؛ ولم ينس أن يطلب إلى أن أذكر فى التحقيق أنه هو — اليوزباشى شعير — الذى ضبطنى فى الشارع وعرفنى واعتقلنى بنفسه !

وكانت ظروفى مع ذلك التحقيق بالغة السوء فأنا فى نظر المحقق هارب من وجه العدالة وأنا باعـــتراف صديق للمتهم الأول فى القضية — عز الدين عبد القادر حفيد عرابى باشا — وأمام المحقق أيضاً تقرير من مباحث المنيا عن

ظروف طلقات بندقية مفرغة ضبطت بجوار مسكنى هناك ورسالة من أخى الأكبر يقول لى فيها بالحرف الواحد :

(ولشد ما يدهشنى أن أسمع بما اعتزمته أخيراً . إن مجرد التفكير فى هذا هو طيش وهوس يدفعك إليه عقلك الذى هو فى طريق النضوج بعد . .) .

وقد قدم لى المحقق هذه الرسالة بعد أن وضع خطوطاً بالقلم الأحمر تحت هذه العبارة وطلب إلى تفسير المقصود منها ، ولما لم تسعفنى ذاكرتى قلت له — سل أخى فهو كاتبها وربما كان يذكر عنها مالا أذكره أنا . .

وطالت إقامتى فى السجن ، وكان يزاملنى فى الدور الثانى بسجن الاستئناف كثيرون ، أذكر منهم السادة فتحى رضوان الذى أصبح رئيس الحزب الوطنى الجديد . . والدكتور نور الدين طراف الذى أصبح وزيراً للصحة يوماً ، والأستاذ محمد صبيح سكرتيراً الحزب ، وحسين يوسف الذى أصبح فيما بعد رئيساً لجماعة شباب محمد ، والأستاذ إبراهيم طلعت الذى أصبح من أعضاء الهيئة الوفدية ، والمرحوم حمادة الناحل المحامى الذى أصبح عضواً بارزاً فى الهيئة السعدية .. وقد لقبونى جميعاً بـ — فتحى الرملى الاشتراكى ، ولعل هذا الإسم يعود إلى أيام كنت أعمل سكرتيراً لتحرير جريدة « مصر الفتاة » وبدأت ألحظ أن « دعوتنا » لا ترتكز على أساس فلسفى واضح ، فالأستاذ أحمد حسين يدعوا إلى القوة وإنشاء مصانع السلاح فى صفحة ، وفتحى رضوان — فى صفحة مقابلة — يدعو للمقاومة السلبية ! دعوتان متعارضتان على طول الخط ، ومع ذلك فالزعيم ونائبه ، لا يختلفان مطلقاً حول الفلسفتين ، وإن اختلفا فلأسباب أخرى لا تمت إلى المبادىء والفلسفات بصلة !

وكان طبيعياً أن أحس بالحيرة والإرتباك والقلق إزاء الإتجاهين ولعل هذه

الجوهرة المذهبية بالذات هي التي بدأت تقتلع من نفوس شباب تلك الحركة الإيمان بها، ولكن - ربما لأنهم لم يجدوا طريقاً ثالثاً يسلكونه - . كانوا يعبرون عن سخطهم وحيرتهم في صورة تشيع لبعض زعماء الجبهة، أو محاربة البعض الآخر!

وكنت أحد الذين وقعوا في نفس الخطأ، فقد خيل إلى ذات يوم أن انتخاب زيد رئيساً بدل عمرو سوف يحل المشكلة.. وخطر لي أن أنظم الساخطين من الشباب الذين هم في مثل سني، ويبدو أن الفريق الذي كنا نحاربه أحس بما نحمله له من شعور، فأخذ يحاربنا.. واتخذ من المنشور الذي وزعته في المنيا وحقق معي فيه سببا لاتهامنا بالإشتراكية!

وكانت الكلمة غريبة على أسماعنا، ولم نكن نعرف عن الاشتراكية كثيراً أو قليلا، وبالتالي فقد أصبحت القضية شارة تميزنا، وتلفت النظر إلى هذا التكتل الجديد!

لكن الاتهام كان له أثر أبعد مدى أيضا من كل ذلك، فلم ألبث أن أصبحت شغوفا بدارسة هذه الإشتراكية التي يصفوني بها، فربما كنت إشتراكيا دون أن أعرف!

إنني أتساءل الآن وأنا أنظر عبر كل تلك السنوات إلى أول شبابي، هل كان لهذا اللقب «دور» في رسم خريطة حياتي، وهل كان هو المسئول عن «الثائر» الذي أصبحته، وعن اتجاهي لدراسة الاشتراكية دراسة عميقة جادة عقب خروجي من السجن؟

ولكن ما هي هذه الجماعة التي أخرجت هذا العدد الكبير من الشباب الثائر؟ ظهرت جماعة مصر الفتاة سنة ١٩٣٢ كالنبات الشيطاني من خلال «مشروع القرش» فوجدت أرضاً خصبة من جموع الشباب الذي يلتهب حماسة ووطنية، فاستطالت بسرعة كشجر اللبلاب قبل أن تمتد لها جذور عميقة، وكان الشعب قد أصابه

الغثيان من طول الصراع الحزبي على كثرة معاركه وسياساته، بين فريق يميل إلى الأتراك والامبراطورية العثمانية، ولو بحجة الاستعانة بهم على الإنجليز، وفريق ينافق الإنجليز والامبراطورية البريطانية، ولو بحجة الاستعانة بهم لتحقيق السيادة المصرية والاستقلال!

وكانت «البورجوازية» المصرية قد استترت على وميض النار الهادئة التي بقيت كامنة في رماد الثورة العرابية بعد فشلها الظاهر سنة ١٨٨٢ ولم يظهر بخارها إلا بعد حركة زغلول باشا في ثورة سنة ١٩١٩، ظهرت البورجوازية المصرية مع بخار تلك الثورة الجديدة وتحول نشاطها الفردي إلى نشاط جماعي، فأنشيء بنك مصر وتعددت شركاته في الإسكندرية والمحلة ومصر، وافتتحت الطبقة الجديدة قنبلة فنية، تبحث عن أساس تدعم به كيانها وتدق به الطريق أمام مستقبلها، وجاءت بصدقي باشا ليكفلها بالحماية الجمركية سنة ١٩٣٠ وبعد عامين أتاحت لها الظروف اللائمة جماعة مصر الفتاة فاحتضنتها منذ مولدها، ولم يكن ذلك غريباً ومبادىء مصر الفتاة العشرة تؤلف في مجموعها دعماً جديداً للبورجوازية، «لا تشتري إلا من مصري ولا تلبس إلا ما صنع في مصر، ولا تأكل إلا طعاماً مصرياً»، وكانت بالفعل دعوة مفيدة تسهم في نفس الاتجاه الذي تفرضه قوانين التطور التاريخي المادي، وقد ساعد هذا على تحريك المجتمع وتغيير أساس تفكيره وزحزحة الفكر الإقطاعي إلى الوراء ليتقدم منه التفكير الصناعي فكانت مصر الفتاة في الواقع طليعة البورجوازية المتقدمة حتى اصطدمت أثناء مسيرتها بقوى رجعية أعتى منها، هي حزب الأحرار الدستوريين مثلا.. فإن المرحوم محمد محمود باشا زعيم الإقطاعيين كان يحلم بالاستعانة بهم على هدم الوفد دون أن يعطيهم سوى بعض «الإكراميات» ليس بينها مقاعد في الحكم ولا حتى مقاعد في البرلمان وكان الوعي البورجوازي لا يزال ضئيلا، فلا السعديين ولا الوفديين ولا السراي استطاعوا أن يحموا هذه الطليعة، أو يساندوها، وبالعكس فقد ناصبوها العداء، وظلوا على موقفهم منها، يرتابون فيها، ويتقاذفونها لتحقيق أهدافهم فقط ذات اليمين وذات اليسار، ولم يفكروا توجيهها إلى الهدف كما فعلت الاحتكارات الرأسمالية في أوروبا، حين وجهت

مثل هذه الحركات إلى شبكة الشعوب المناضلة من أجل حريتها ، فقلبت موازين المباراة ، وبدل أن تنتهي بفوز أحد الفريقين . . . الاشتراكية أو الرأسمالية ، فازت الفاشية ، وعندى أن الفريقين أساءا اللعب فى مصر .

مثلا بالنسبة لمصر الفتاة . . . بقيت فترة طويلة جداً حركة غير مفهومة حتى بالنسبة لأعضائها أنفسهم . . تقرأ جريدتهم ، فترى أحمد حسين يدعو للعنف والوطنية المتعصبة مع ألفاظ القتل والدم والرصاص ، وتقرأ لوكيله فتحى رضوان فتراه يدعو للتسامح والحب والإنسانية ، وتقرأ لمحمد صبيح سكرتير الحزب فتجده عند زميليه معا . . . أنه لا يدعو للقومية المصرية ولا الفرعونية ، بل تراه يدعو للقومية العربية أو الإسلامية ، حتى وهو ينتقل بنشاطه الصحفى بين جرائد مصر الفتاة والرابطة العربية والمقطم وغيرها من الصحف والمجلات ، تحس أنه يفعل ما يفعل بحرارة وعمق . . . كل أصدقائه من العرب ، وكل معارفه من كبار المسلمين . . وناهيك عن تناقض كل منهم مع نفسه ، فإن فتحى رضوان مثلا ، كان يجد غاندى وحركته ثم يعود فيمتدح كلام موسولينى ويردد خطبه كالأغنية المحفوظة ، وكان أعضاء الجماعة يطالعون هذه الآراء المتضاربة فيعجب البعض بهذا الاتجاه أو ذاك ، دون أن يستقروا على نظرية بالذات أو فلسفة بالتحديد . . . ربما لم يفكروا فى هذا وكان من نتيجة ذلك تلك النتيجة الضمنية ، أن يخرج الشباب ـ شباب مصر الفتاة ـ بلا « ايديولوجيه » معينة بخلاف بعض الجماعات الدينية التى كانت تصب أعضائها فى قوالب واحدة ، كما كان الوفد أيضاً يصب أعضائه فى قوالب حزبية واحدة ، أما مصر الفتاة فلم تعن بتربية « كوادرها » وتركتهم لاجتهاداتهم ، فلم يلبثوا أن انضم كل منهم إلى الحزب الأقرب إلى تفكيره أو إلى مطامعه ، وإذا كانت جماعة مصر الفتاة فى أول تكوينها كانت بمدرسة السخط تجمع كل المتمردين وتضم العناصر الأكثر ثورية من المراهقين والشباب فقد قضى زعماؤها على كل جهودهم السابقة ، حين أرادوا أن يضموا إليهم العناصر المتدينة التى كانت استوعبتهم إحدى الجماعات الدينية ، وأن يتخاصوا فى نفس الوقت من تهمة العمل لحساب هتلر أو موسولينى بتغيير اسم حركتهم إلى « الحزب الوطنى الإسلامى »

فأثاروا زوبعة فى غير وقتها ولا محلها ، ثم عاد الحزب يصحح هذا الخطأ الأكبر بالعمل على وضع لافتة جديدة هى « الحزب الاشتراكى » . . . ولكن الغلطة أيضاً أنها كانت مجرد لافتة ، فلا دراسات عن الاشتراكية ولا تصاليح للعقول التى ظلت فى حيرتها وتخبطها بين مختلف المبادىء والإتجاهات .

وبعد ، فلا عجب أن كنت أقف عند ذكريات لحزب مصر الفتاة ، وأطيل الوقوف ، فهو الحزب الذى امتص ثوريتى الأولى ، ولكنه لم يدفعنى إلى الأحزاب إياها ، بل دفعنى إلى المبادىء الجديدة التى كانت قد بدأت تغزو العالم كله بعد الحرب العالمية ، فقد انتهى بى إلى اعتناق الاشتراكية العلمية سنة ١٩٤٠ ، ولم ألبث حتى لشرتها فى كل مصر ، وحتى جاء من يحاربها . . . صهيونيون ، وعملاء من كل صنف ولون ، بعضهم يحاول تسخيها ، وبعضهم يحاول التضليل باسمها ، وأخطرهم من تاجر بشعاراتها وهو يشوه وجهها الحقيقى ، وأقلهم وأتفههم شأنا هم من حاولوا مهاجمتى أو تلطيخ سمعتى أو دفنى حياً ، وقد بقى الوطن ، ودفن أعداؤه فى « مجرور » ؟!

• • •

ونعود الآن إلى موضوعنا الأول مع مصر الفتاة ، أو مع السجن الذى دخلته . . لقد خرجت من ذلك السجن ، وأنا جد مشوق لدراسة الاشتراكية دراسة عميقة جادة ، فقد قررت أن أهب نفسى للفقراء بقية العمر ، وكل هذه التشكيلة من المبادىء التى ألقيت بأصحابها فى السجن ممن كانوا أعضاء فى حزب مصر الفتاة ، لم ألفت نظرى إلى شىء جديد أضيفه إلى رسالتى فى الحياة كما تصورتها فى ذلك الحين .

ولم تكن المسألة سهلة ، فقد بحثت عبثاً عن كتاب واحد فى الاشتراكية ، وفتشت جميع المكتبات المعروفة بلا نتيجة ، وأخيراً جداً ، وبعد جهود مضنية ، عثرت على كتابين الأول للكاتب المباركى العظيم المرحوم سلامة موسى ،

والثانى للكاتب الإجتماعى نقولا حداد وصحيح أننى تلقيت فيهما دروسى الأولى فى الاشتراكية إلا أن أكثرها جدة كان مطبوعا سنة ١٩٢١ ... ثم عثرت على كتاب آخر عنه الإشتراكية إسمه «الاشتراكية تحرق التقدم الإنسانى» وقرأته أيضاً بشغف رغم سخافته ، لكننى لم ألبث أن عرفت الطريق الصحيح إلى تلك الدراسة .. يوم جاءنى أحد زملائى ، وقال لى أن شخصاً ما يريد ان يقابلك !

وسألته : لماذا يريد ذلك الشخص أن يقابلنى ؟

فقال ببساطة : سمع أنك اشتراكى فأراد ان يتعرف بك !

وأسرعت إلى الرجل أقول له بكل صراحة : إننى لا أعرف حرفاً واحداً عن الماركسية ! ولكننى أريد أن أعرف !!

فابتسم وقال : مادامت هذه روحك فسوف تتعلم !

وافترقنا بعد أن حددنا موعداً لبدء الدراسة . كان ذلك فى أواخر عام ١٩٣٩ .

وكنت كلما تلقيت درساً فى الماركسية ، صور لى جهلى أننى قد أصبحت عالماً ! ولما فرغت من دراسة ذلك «الحد الأدنى» من النظرية الماركسية ، كان يخيل إلى — لفرط سذاجتى فى ذلك الحين — إننا يجب أن نبادر فنفعل الثورة الاشتراكية .

لكنى عندما تقدمت فى دراستى ، وتجاوز وعيى فهم الخطوط الرئيسية النظرية ، إلى التعمق فى فلسفتها ، وبالتالى فيما تمتاز به من مرونة ، وعرفت ان الثورة الاشتراكية لاتعنى انقلاباً دموياً تنظمه عصابة من العمال ، ولكنها تعنى الثورة الفكرية .. تعنى التغيير الحقيقى الذى يطرأ على وعى الطبقات العاملة ، وأن الثورة فى النهاية لا تعنى اعلانا مسلحاً لقلب نظام الحكم والاستيلاء عليه بالغصب والقهر ، بل هى تعنى تطوراً تاريخياً يظهر أول مايظهر فى آلات الإنتاج ،

ثم فى علاقة الطبقات إزاء الآلات ، ويصاحبه حتما تطور مماثل فى أساليب الناس وطرائق تفكيرهم بل وأخلاقهم ، ينتهى حتما بالثورة ، أو التغيير .

وليس دور الماركسى أن يصطنع النظام الرأسمالى نفسه ، لأن هذا النظام إنما يلعب دوراً هاماً فى التقدم ، وفى الوعى ، وهو بالذات النظام الذى «يحمل» من المتناقضات ، ثم يلد الطبقة العاملة .. وعلى ذلك تصبح رسالة الإشتراكى — غير الهدام — هى أن يحمل مصباح الفكر الجديد لينير للنــاس طريق التطور ، ويدفعهم بالحجة والمنطق إلى ذلك الطريق .

ومع ذلك فإن الإشتراكى فى مصر هوالذى يعرف أن أكبر جريمة يرتكبها هى أن يدعو لثورة خيالية لازالت فى علم الغيب ،أو هى من ناحية ، تعتبر مرحلة متقدمة جداً لم تصل إليها بعد ، ولا يمكن أن تصل إليها دولة بمفردها مهما كانت مواردها وإمكانياتها وتعدادها ومساحتها ، ولذلك فإن الاتحاد السوفيتى — بعد ما يقرب من ٤٥ أو ٥٠ سنة من الثورة — لا يزال يعتبر نفسه اتحاداً إشتراكياً — وليس شيوعياً — لا أكثر ولا أقل !

ومن ناحية أخرى فهى حلقة تسبقها حلقات كثيرة ، فهنا فى مصر حيث كان الاستعمار يجثم على ضفة القنال منذ ٧٠ عاماً ، يكون من العبث الصبيانى أومن الاجرام ،أن نشغل الجماهير بحرب أهلية — بين العمال والرأسماليين مثلا — عن قضيتهم الوطنية ، عن المعركة الأولى التى يجب أن نعبىء كل قوى الشعب لنكسبها ؛ وأعنى بها معركة التحرر من الإستعمار .

هذه هى المعركة الوحيدة التى يجوز أن نحمل فيها السلاح ؛ بل التى لا يجوز إلا أن نحمل فيها السلاح ؛ فهو الوسيلة الوحيدة التى عرفتها الشعوب فى كفاحها من أجل التحرر والإنعتاق .

وقد يحلو للبعض هنا أن يفتح باباً للمناقشة والجدل فيسأل مثلا ..

الا ترى أن فريقاً من الرأسمالية تداخلت مصالحهم مع مصالح الاستعمار وارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً ؟

فإذا قلت لهذا البعض « نعم » عاد يتساءل قائلا : كيف تقف منه إذن موقف المتفرج ؟

وجوابي على ذلك ، أنني لا أدعو لمهادنة الخونة والسكوت عليهم ولكنى أدعو لمقاومتهم كخونة بوصفهم وكلاء للإستعمار ، لا بوصفهم طبقة رأسمالية ، فأنى لا أنكر أيضاً وجود الرأسمالية الوطنية .

وبعد فإن ستالين فى كتابه عن « المسألة الوطنية » يرى أن ملك أفغانستان الذى حارب الإستعمار فى بلاده ، كان أنفع لمعركة التقدم من الإشتراكيين المزيفين الذين يتولون الحكم فى إنجلترا ، ويستعبدون شعوب المستعمرات .

وأحسست — منذ تسلحت بوجهة نظر جديدة فى الكون والمجتمع — تغيراً كيفيا فى طريقة تفكيرى ، وأحسست فى نفسى قدرة عجيبة على أن أجد التحليل العلمى لكل ظاهرة وشعرت بأن كل ما فات من حياتى إنما كان عبثاً ، وأنى إنما ابدأ خطواتى فى الحياة العامة من هذا الطريق الجديد . .

ووضعت امامى هدفين . . أولهما أن أنشئ « مدرسة جديدة للوطنية » المادية فى مصر . . الوطنية الواعية التى تتجسد فى مطالب محددة وشعارات واضحة مفهومة فإن مصر لم تعرف من مدارس الوطنية سوى تلك الوطنية المثالية التى حمل لواءها مصطفى كامل وحاول فريد من بعده أن يتجه بها اتجاهاً واقعياً ، فلم تواته الفرصة ، واستشهد قبل أن يحقق هذه الرسالة . . أجل ؛ لم تكن الوطنية المصرية فى حاجة إلى مزيد من الشعارات الحماسية مثل « لو كانت عينى إنجليزية لقلعتها » بقــدر ما كانت فى حاجة إلى الوعى والإستنارة . . إلى شعارات يصحب معها تحويل الجماهير أو تضليلها مثل « الكفاح المسلح طريق الخلاص » .

وكان الهدف الثانى هو التبشير بالديموقراطية الشعبيــة لا الديموقراطية البورجوازية . . الديموقراطية الحقيقية لا الديموقراطية المزيفة . الديموقراطية الكاملة لا الديموقراطية المبتورة المشوهة .

كان الهدف الثانى هو الدعوة لحكم الشعب بمعناه الصحيــح . . لا عن طريق نواب من الإقطاعيين الذين يسوقون « فلاحيهم » المساكين إلى الإدلاء بأصواتهم فى الإنتخابات بما هو أفظع من القهر والإرغام .

وقد اتخذت — وقتها — من دار الكتب بباب الخلق مكاناً مختارا واحسست إننى كن التحق بمدرسة ، وإننى لن ألبث أن أدخل فى ذلك الذى أقرأه امتحانا آخر العام وقرأت مجموعة مجلة « روح العصر » الاشتراكية التى كانت تصدر فى أول عهد صدقى باشا سنة ١٩٣٠ وكانت فيها أبواباً ممتعة عن الأصول الأولى للتفكير الإشتراكى فى حياة واتجاهات « سان سيمون » وغيره وعشرات وعشرات الكتب الأخرى . وفتحت دار الكتب شهيتى للدرس فانتظمت لمدة عامين فى حلقة لدراسة المنطق الديالكتيك والفلسفة والتفسير المادى للتاريخ . . والقيمة والثمن والربح من كتاب رأس المال ، والتحقت فى نفس ذلك العام بقسم الإجتماع بكلية الآداب ، وكان من زملائى إذ ذاك فى القسم المخرج المرحوم حلمى حليم وشقيقه الزميل الصحفى أسعد حليم ، وداوود كامل ودكتور مصطفى إسماعيل سويف ، وغيرهم . . ولكن البوليس السياسى إذ ذاك عز عليه أن ندرس فكتب إلى إدارة الجامعــــة خطاباً سرياً بضرورة طردنا حتى لا نسمم عقول الطلبة بمبادئنا الهدامة . وكان هذا هو الإسم الذى يطلق وقتها على الإشتراكية !

وخرجنا إلى عرض الطريق . نفكر فيما عسانا نفعل واقترح المرحوم الفنان رمسيس يونان على زميلنا أنور كامل أن نصدر مجلة التطور ، على أن تكون مجلة أدبية فنية حرة ، تتسع لكل الآراء الجديدة . ولكن شبه لسان لجماعة

الفن والحرية التى أسسها لفيف من الفنانين التشكيليين بينهم رمسيس وجورج حنين وكامل التلمسانى ، والسيدة بولا العلايلى .

وقد روجت المجلة للمذهب الفنى فى السيريالزم والشعر .. ومنا .. دب الخلاف بيننا على قيمة المجلة من الناحية الشعبية ، وذات يوم خطبت فى الجمعية ثائراً ، وقلت .. من اليوم لن تكون جمعيتنا الفن والحرية ، بل ستكون « الخبز والحرية » .

وانضم لى فى الرأى أنور كامل نفسه وعبد العزيز هيكل (ابن عمة هيكل باشا) كما كان معروفاً بيننا .. وهو الآن موظف كبير فى هيئة اليونسكو العالمية . وصالح عرابى (الآن صحفى معروف بالسودان) .

أسبوع لمحاربة الفاشية

ألفنا إذن أول جماعة تقدمية فى مصر باسم جماعة « الخبز والحرية » ، فى أواخر عام ١٩٤١ ، واستأجرنا حجرتين فى عمارة المؤيد بشارع محمد على ، وأخطرنا المحافظة بنبأ تشكيل الجمعية ، وكان رد المحافظة على إخطارنا أن كلفت قسم الموسكى بتعيين اثنين من رجال البوليس يمنعون أى إنسان من الدخول إلى مقر الجمعية خلاف الخمسة الذين وقعوا الإخطار !

وبقيت المشكلة أياما ، ثم رأينا أن نجتمع لبحثها ، فقلت لزملائى أننى أقدم اقتراحين لتنفيذهما معا .. هما تغيير إسم الجماعة ، ومكانها ، ثم افتتاح نشاطنا فى التجربة الجديدة بالهجوم على الفاشية .. إن « الفاشيه » هى موضوع الساعة وكثير من المصريين يعطفون على ألمانيا وإيطاليا بحسن نية .. لمجرد أنهما تحاربان الانجليز أعداء الشعب المصرى ، ولكن علينا أن نوضح الحقائق للناس ليعرفوا ما هى الفاشية ، ومن ناحية أخرى ، فإن الحكومة المصرية ستجد نفسها محرجة فى مقاومة حركة تحارب الفاشية !

ووافق بقية الزملاء على اقتراحاتى ..

وألفنا جماعة « نحن أنفسنا » ، وانتقلنا إلى الحجرة التى كانت تشغلها من قبل جماعة الفن والحرية بالعمارة رقم ٢٨ شارع شريف وأعلنا عن افتتاح أسبوع لمحاربة الفاشية ، فإذا الصحف تهتم به اهتماما كبيراً ، وإذا الصحف الإنجليزية المحلية بالذات تولى هذه الحركة كثيراً من عنايتها .. فقد اعتاد الإنجليز أن يجدوا كتابا مأجورين كالأستاذ العقاد وغيره يحاربون الفاشية بالأجر أما أن تقوم بذلك حركة شعبية خالصة ، فهذا مالم يحلموا به !

وحضر إلى مقر الجماعة ذات يوم أحد السعاة يحمل خطابا مغلقا فضضته فإذا به

من صحفى مصرى يعمل محرراً باجبشيان ميل هو الأستاذ ج . خ . يقول فيه انه نشر لنا ربع صفحة عن هـــذه الحركة وأنه يتطلب التعرف بى ، فحددت له موعداً . .

وقال الأستاذ ج عندما تقابلنا أنه أعجب بهذه الحركة وأنه يريد المساهمة فيها فشكرته وقلت له : فى استطاعتك تشجيعها بالنشر ولو أن النشر بالصحف الإنجليزية لا يفيدها كثيراً . .

قال : بل أريد أن أعاونكم فى ميادين أخرى غير الصحافة هل تمانعون فى أن أعاونكم مادياً مثلا !

قلت له : إننا لانحتاج إلى مال ، لا لأن لدينا الكثير منه ، بل لأننا أعددنا برنامجنا على أساس ألا يحتاج إلى تكاليف لانقدر عليها .

قال : أليست لديكم مطبوعات مثلا ؟

قلت : بالصدفة توجد معى أصول رسالة دعوانها « الفاشية تهدم نفسها » وسأقوم اليوم بطبعها .

قال وهو يتصفحها : إنها رائعة جداً . . كم ألفا سوف تطبع منها ؟

قلت : ألف نسخة !

قال مندهشا : هذه الرسالة الرائعة يطبع منها ألف فقط ؟ . . أنها جديرة بأن تقرأ فى جميع أنحاء العالم العربى لا فى مصر فقط !

وخجلت حياء لهذا الإطراء بينما قال هو : إنى أستأذنك فى طبعها على نفقتى وسوف أطبع لك منها كمية أكبر من هذا بكثير .

وفرحت بهذه الفرصة ولو أنى خشيت فى الوقت نفسه أن يتأخر الطبع ، ولما صارحته بذلك قال :

غداً . . تأكد . . فى المساء سوف تصلك تلك الرسالة مطبوعة !

واتفقنا على أن نلتقى مرة أخرى ، وفى مساء اليوم التالى وقفت أمام مقر الجماعة عربة كارو تحمل عشرين ألف نسخة من الرسالة المذكورة ، على أفخم أنواع الورق الأبيض الموجود إذ ذاك بالسوق !

وأدركت فى الحال أن المسألة غـــير طبيعية ، وإن الاستاذ ج لا يمكن أن يكون قد دفع تكاليف هذه النسخ من جيبه .

وأدركت أن هذا الرجل قد يكون محتالا ، يحاول الإتجار بنشاطنا ، وكانت مكاتب الدعاية الإنجليزية تدفع بسخاء فى ذلك الوقت لكل من يقول أو يكتب كلمة ضد الألمان أو الطليان ، أو فى مصلحة الإنجليز بأى أسلوب .

ولم أكتف بقطع علاقتى بالرجل ، بل حرصت على كشفه عن طريق المحاضرات الأسبوعية التى كنا ننظمها ، فكنت فى جميع أحاديثى أوضح ، أن الدعوة ضد الفاشية فى أذهاننا ، لاتعنى تأييدنا للإنجليز ، وهم — كمستعمرين — لا يقلون فى نظرنا خطراً عن الفاشية ، بل ونعتبر حكومة تشرشل حكومة فاشية .

وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع ، جاءنى الأستاذ ج منزعجاً ، وطلب الانفراد فى بعض الوقت ، ثم قال : كيف تهاجم الإنجليز ! . . أنت تناقض نفسك ! كيف تزعم أنك تحارب الفاشية وفى نفس الوقت تهاجم الإنجليز ؟

قلت بهدوء وسخرية : وما الذى يزعجك شخصياً من هذا . . هذه سياستنا ونحن أحرار فى تكييفها كما نشاء .

قال : ولكنك أحرجتنى جداً .. ألا تعرف أن رسالتك طبعت من أموال الدعاية البريطانية ؟

قلت : لو أنك قلت لى لما قبلت طبعها . .

قال : ولماذا ياعبيط . . إذا كنت شيوعياً كما سمعت عنك ، فالإتحاد السوفيتى يأخذ من الإنجليز دبابات وطائرات ليحارب بها الألمان ، مادام عدوكم واحد ، فأى عيب فى التعاون !

ولماذا لاتتبادلون المساعدات ؟ . . إن فلانا وفلانا يشتغلون فى الدعاية البريطانية لأنهم بهذا يتعاونون على مكافحه الفاشية ، وفلان وعلان هما من الشبان التقدميين المعروفين !

قلت : ياسيدى أرجوك . . أتركنى . . إنى أرفض هذا التعاون .

قال : — وهو يبذل محاولة أخيرة — مارأيك فى مائة جنيه كل شهر مساعدة لحركتكم من أموال الدعاية البريطانية دون أن يكون مطلوبا منكم أى شىء سوى أن تهاجموا الفاشية فقط وتتركوا بريطانيا ؟

ولم تحتمل أعصابى هذا الاستفزاز فقلت للأستاذ ح رأيى فى آبائه وأجداده وتركته يقول لى غاضبا : أنت تشتمنى ؟ . . أنت تهينى ؟ . . سوف تدفع ثمن هذا الجنون فى أقرب وقت .

وفى اليوم التالى . . فى اليوم التالى مباشرة ، كان البوليس المصرى يحاصر الجمعية ويغلقها بالجنع الأحمر .

وعندما وقفت الأحكام العرفية فى وجه حريتنا بإغلاق نادينا ، رأيت

أن نتحايل على الطغيان فنتخذ من كل ناد وكل جماعة منبراً لنا ، وكانت الخطة تتخلص فيما يلى . .

كنا نلتقى كل صباح فى مقهى بلدى بأرض الفوالة بشارع رشدى ، وهناك كنت استعرض فى جريدة الأهرام باب (محاضرات اليوم) وكان بابا ثابتا ، ثم نوزع أنفسنا ، عشرة أوخمسة عشر عضواً على الأنديه والجمعيات التى تقدم هذه المحاضرات ، ثلاثة فى كل ركن ، ولايكاد المحاضر ينتهى من محاضرته حتى اقف أنا أطلب التعقيب على المحاضرة ، فإذا اعترض المسئولون أو اعتذروا عن السماح لى بالتعقيب إرتفعت أصوات زملائى المندسين فى الإجتماع يحتجون على هذا الاعتراض ويطالبون بسماعى ، ويتحمس معهم الحاضرون عادة فتضطر الجمعية إلى الموافقة على التعقيب ، وكنا ، عن طريق التعليق على المحاضرة الملقاة ، نحول الحديث دائماً إلى « الإشتراكية » ومما أذكره عن هذه المحاولات على سبيل المثال ، أننا ذهبنا ذات يوم إلى نادى جبهة مصر « برئاسة على ماهر باشا » ، إذ كان الثائر الوطنى عبد الفتاح عنايت يلقى محاضرة وكانت — إذا لم تخنى الذاكرة — عن (كيف نستعيد مجدنا القديم ؟) ، ووزعنا أنفسنا كالعادة وكنا حوالى خمسة أو ستة بين مقاعد الجمهور ، وما أن انتهت المحاضرة حتى طلبت التعليق ، وحاول المسئول فى الجمعية الإعتذار ، ولكن صيحات الزملاء تعالت .. أتركوه . . دعوة يتكلم . . يجب أن تكون هناك مناقشة حرة وهكذا لم يجدوا بدا — كما هى العادة فى كل الجمعيات — من دعوتى للكلام فوقفت وأسهبت فى الرد على الأستاذ عبد الفتاح عنايت الذى كان يطالب إلى كل عامل فى مصر أن يقوى روحه بالدين ، ويقوى عقله بالعلم والثقافة ، ويقوى بدنه بالتدريبات الرياضية . . فقلت ساخراً متهكما . . قولوا لى بالله كيف يقوى العامل روحه بالدين وهو يرى الفساد مستشريا . . والظلم عاما ، والحكام هم المفسدون والظالمون هم ووكلاؤهم ومرؤوسوهم . . بل كيف يفتح فمه ويحدد من هو الظالم ومن هو المفسد ؟ . . ثم قولوا لى كيف يقوى عقله بالاطلاع وهو

لا يجد فى جيبه قرشاً فائضاً من أجره الضئيل يشترى به الكتاب أو يدخل به الجامعة أو المعهد الذى يتيسح له فرصة تقوية عقله .

ثم قولوا لى أخيراً كيف يقوم بالتدريبات الرياضية بعد أن يكون قد اشتغل بيديه وبعرقه طوال عشرة ساعات أو إثنى عشرة ساعة ، وأين يزاول هذه التدريبات ، أفى الأزقة التى يسكنها وليس فيها نسمة هواء ، أم فى مسكنه الضيق حيث يحشر مع أولاده فى حجرة ضيقة واحدة . . أو حيث يسكن كل عشرين فى حجرة ، كما يحدث فى المحلة الكبرى وأحياء العمال . . وكيف يزاول هذه التدريبات ، وهو يعانى من سوء التغذية ، بل من الأنيميا . والسل . . والبلاجرا . . كما تثبت الإحصائيات الرسمية . . أم يزاولها وهو على « لحم بطنه » ؟ .

وكانت هذه الحقائق الصارخه معروفه وملموسة فى ذلك العهد . ولذلك انتزعت التصفيق الحاد المتواصل . وما أن تكلمت عن الإشتراكية بعد ذلك كعلاج . وكمنهج للإصلاح . حتى عاد التصفيق والهتاف . وخرج المستمعون ورائى فى تلك الليلة لا يريدون تركى . وكان آخر من بقى معى شاب سكندرى لم يكن له عهد بالقاهرة بعد وهو الصحفى اللامع الأستاذ إبراهيم عامر .

وفى سنة ١٩٤٣ . جمعنا سرى باشا فى أول قضية بتهمة الإشتراكية وهى التى عرفت إذ ذاك بقضية (الخبز والحرية) . وقد حققها الأستاذ توفيق رفقى رئيس النيابة العسكرية . وحضر للدفاع عنا فيها . الأستاذ المرحوم على الخشخانى . وفتحى رضوان . وعادل كامل . وآخرون من المحامين الشبان إذ ذاك . وظلت القضية تؤجل إلى دورة مقبلة عدة مرات إلى أن حكم فيها بالبراءة بعد عدة سنوات . وكنا متخمين بعشرات القضايا الجديدة فلم نتنبه لها . . ولم تكن الصحف الموضوعة تحت الرقابة تستطيع أن تنشر شيئاً عن هذه القضايا . لولا أن محرراً إذ ذاك بجريدة المقطم أراد أن يتحايل على النشر فكتب عنى سطرين فى باب الجرائم العادية . فقال « قبض أمس على فلان الفلانى المجرم الهارب من وجه العدالة وأرسل إلى السجن » !

وفى سنة ١٩٤٢ ، كنت أتسابق مع زميلى أنور كامل وفوزى المصرى فى كتابة رسائل مبسطة فى المشكلات والأحداث والمبادىء ، فقبض على أنور كامل وعلى ، وحقق معنا فى هذه الرسائل ، وكان كتاب أنور بعنوان « لا طبقات » وكنت أنا متهما بنشر كتابين هما « أهداف الإشتراكية » . و « هل انحرفت روسيا ؟ » . . وقد أمر المحقق الأستاذ إمام الخريبى (الآن المستشار بمجلس الدولة) بحبسنا ١٤ يوما تجددت حوالى أربعة أو خمسة مرات .

. . وكان هذا على إثر اكتشاف منشورات ضد الملك فاروق موضوعة على مكتبه بسراى عابدين ، وقد قبض على بعض الأصدقاء منهم الأستاذ موسى عبد الحفيظ (مدير الشركة الأهلية للإعلان حاليا) ، وبعض صولات فى مكاتب الطيران منهم المرحوم إبراهيم العطار وكان مديراً للعلاقات العامة بشركة عثمان أحمد عثمان ، وشقيقه مختار . . الخ . . ولم يثبت عليهم شىء . ولكن أحد عملاء المباحث واسمه ليفى — وقد عرف فيما بعد أنه ميل صهيونى — كان قد قدم إلى المباحث تقريراً يؤكد أننى وأنور كامل قد حرضنا المتهمين السابقين على طبع هذه المنشورات .

واتهمت مع شقيقى الأكبر مصطفى بعد ذلك بشهور بطبع منشورات تدعو العمال إلى الإحتفال بعيد أول أول مايو وزعت فعلا ليلة عيد أول مايو ، وضبطت بعضها مع الزميل المرحوم زكى أبو الخير (عامل مطبعة) ، وفتشت منازلنا . بواسطة الضابط الصاغ إمام إبراهيم (الآن لواء على المعاش) وشقيقى بواسطة القائمقام أحمد حمدى وكيل حكمدارية المحافظة ، وآخرين ، كانوا مكلفين بمراقبتنا وضبطنا . .

وكان للمنشورات أهمية خاصة فى تلك الفترة ، فرأيت أن أتعلم بنفسى الجمع اليدوى للحروف وانضم لى آخرون ، وقررنا أن نلتحق كعمال بمطبعة دار النشر الحديثة (كانت فى صف وجوار مسرح الجمهورية الآن) . وعضينا فاشترينا الحفريتة — أى بدل العمال الزرقاء — لولا أن تنبه لوجودنا — بواسطة

الجواسيس — المرحوم محمد مرسى حسين صاحب المطبعة ، فجاء على عجل ، وطردنا قبل أن تتعلم تماما وتنشىء مطبعة خاصة بنا نعمل عليها .

وانتقلنا إلى تجارب جديدة هى العمل بين الجماهير والطبقة العاملة ، داخل النقابات وخارجها : واخترت أنا نقابة عمال الطباعة إذ كانت قريبة إلى مهنتى وأعرف كثيرين من المشتغلين بها ، كما اخترت أيضا العمل مع شقيق مصطفى فى مجال إجتماعى آخر هو محاربة التدخين .. سواء تدخين السجاير أو « الجوزة » ، وطفت معه حوارى القاهرة وأزقتها نشرح للناس أضرار التدخين ، ولمسنا بأنفسنا كيف أن الكثيرين ممن يدخنون الحشيش بالذات سرعان مايفقدون القدرة على التميز أو الحكم على الأمور العادية . وأنهم يصابون بالبله والغفلة ونقص الأدراك ، والضحك على كل شىء وعلى لاشىء على الإطلاق . ووجدنا بين المتعاطين مثقفين يشغلون مناصب رفيعة مع الأسف الشديد ، كما وجدت بين موزعى الحشيش بعض أعضاء فى المجالس النيابية يتحكمون فى أصوات الناخبين وآرائهم بمنتهى السهولة واليسر !

وانتقلت إلى عمال الطباعة .. رحت اسأل عنهم سنة ١٩٤١ ، فقيل لى انهم أصبحوا مشردين لا يجدون أعمالا ولاينقاضون معونات سواء من الحكومة او الاتحادات العمالية فتركت لهم موعداً نلتقى فيه لتدارس قضيتهم ، وحضروا فى الموعد المحدد فسألتهم أن يشرحوا لى المشكلة من بدايتها قالوا .. منذ أنقصت الصحف اليومية عدد صفحاتها إلى أربعة صفحات فقط ، وأنقصت المجلات الأسبوعية والشهرية صفحاتها إلى اقل من الربع وقصدوا أول ما قصدوا إلى إتحاد الصناعات ، فقال لهم المسئولون هناك ..

تفاهموا مع غرفة المطابع ، وهناك أرادت الغرفة استغلالهم والضغط على الحكومة حتى تحقق بعض مطالب أصحاب دور الطباعة كخفض الحماية الجمركية عن الأحبار والماكينات وإلغاء قرار الإستيلاء على الورق اللازم للشغيلهم ، وذهبوا إلى أصحاب الصحف ، فقالوا لهم عليكم بالحكومة حتى

تلغى الأمر العسكرى بتحديد الصفحات ، وقال لهم بعض الانتهازيين يجب أن نقيموا حفلة تكريم للوزير الفلانى حتى يستمع إلى شكواكم وقال لهم موظفون فى مكتب العمل يجب تخفيض أجور العمال بمناسبة الحالة الحاضرة ، وقلت لهم بدورى (إن حل أزمتكم فى أيديكم طالبوا بتخفيض ساعات العمل إلى الربع مادامت الصفحات قدخفضت إلى الربع أيضاً) وواصل بعضهم الكفاح فى ضوء التوجيه الأخير حتى تحقق لهم النصر ، بينما يئس البعض الآخر وتقاعدوا عن مطالبهم وراحوا يفكرون فى حلول انتهازية كإقامة حفلات ترفيهية باسم العمال المتعطلين وتوزيع تذاكرها على أهل الخير ، وسرعان ما أنقلبت تلك الحفلات إلى أداة للنصب والإحتيال ، وانتهى أصحاب تلك الحفلات إلى أن أصبحوا لصوصاً وقوادين ومشردين ومتحللين .

وكان البعض منهم قدباع نفسه للقلم السياسى بالمحافظة فكشفهم العمال وقرروا إغتيالهم باعتبارهم خونة ، ولكنى اقترحت ضربهم علقة فقط بعد مدهم فى (فلقة) أمام زملائهم جميعا حتى يستفيد العمال بهذا الدرس دون أن يتعرضوا لمسئولية القتل والإغتيال .

.. ونوع آخر من الاحتكاك بالجماهير ، وجهت إلى الدعوة إلى إجتماع عاجل فى مسرح الريحانى من لفيف من المشتغلين بالفن الذين تعطلوا أيضا عن العمل بسبب إغلاق المسارح الجادة بعد فتح الكباريهات والمراقص الخليعة لجنود الإنجليز ، وأنبت عنى زميلا لنا هو المناضل القديم الأستاذ موسى فجاء يروى لنا ما شاهده فى ذلك المحفل . فقال . . . كل الخطباء خمسة لم يمسوا مشاكلهم ولو من بعيد ، بل ظلوا يتبارون فى ترشيح زعيم من بينهم ليتولى الحديث عنهم . . . . قال خطيبهم الأول (تريده شابا . . . جريئا . . . مقداما . . لا يخشى سوى الحق . . . ولا يهاب سوى الضمير) وبعد أن ظل يصف نفسه بهذه العبارات التجريدية ختم خطابه بأن قال (وأنا مستعد للخدمة .) ووقف الثانى فقال (بل تريده رجلا كبيراً محنكا ، له إتزان ، وفيه وقار ، وعنده حكمة ، لاينطق عن الهوى ، ولا يسكت عن الضلال ، تريده

رجلا وليس طفلا . . . نريده عاقلا وليس مغمورا . . . نريد شيخا جليلا ، ولا نريد هلفوتا هزيلا ، وختم الخطيب الهمام كلامه ، وهو رجل كبير السن بقوله ، ولا أريد أن أدلكم عليه . . . نعم ، أنا لا أزكى نفسى ، ولكنى أخضع لتزكيه من يشاء من زملائى النابهين الراشدين) .

ووقف ثالث الخطباء فقال (سمعتم حضراتكم تلك المناظرة المضحكة بين حماس الشباب وحكمة الشيوخ ولعلكم تساءلتم ما أهمية هذا كله فى موضوعكم وموضوع مشاكلكم ، إنكم أيها الإخوة فى حاجة إلى رجل وسط يجمع بين حماسة الشباب وحكمة الشيوخ ويمتاز بالشهرة الفنية العريضة التى تجعله محل التقدير والإعجاب حيثما ذهب لمقابلة حاكم أو عظيم ، وتجعله موضع تكريم واحترام . . . مجابا إذا طلب . مسموعاً إذا قال) وقام الرابع ليخطب فقال (دعونا من كل هذه المزايدات والمناقصات ، ولا تلقوا بالا لغير الماضى فيمن ترشحونه لزعامتكم . . . انتخبوا أبعدكم أثراً فى المهنة ، وأقدركم على حسن إدارة دفتكم بحكم ملازمته لكم ، ماقنا ، وتمثلا ، ومخرجا ، ومدير مسرح ٣٥ عاما فى خدمة الفن . . . أيها الأصدقاء والتلاميذ الأوفياء)

واعتلى الخامس خشبة المسرح وقال :

يا للهول يا حضرات المحترمين . . . يا للكارثة التى حلت بنا ، ونحن نبحث عن الزعيم الجرىء . ورجل الساعة القديم ، وبيننا من قام بتمثيل أدوار الملوك والسلاطين ، ثم نخرج من هذا الاجتماع دون أن نجمع على اختياره أيا لنا ، وأمينا على حقوقنا ، وحريصا على مصالحنا . . . أنه الآن بينكم فى المسرح ، فحذار أن تخطئوه !

قال زميلى المناضل . . . وخرجت من مسرح الريحانى وأنا أقول . عجبا ومع ذلك يشكو الريحانى من وجوه أزمة نصوص .

منشورات وكتب

لم يكن أمامنا أى سبيل آخر سوى المطبوعات المختلفة نفرق بها البلد ، وإيمانا منا بأهمية النوعية ، وما أكثر ما أذكره فى هذا الصدد ، فقد كانت لنا مئات التجارب فى هذا الميدان . . كيف نطبعها بعيدا عن البوليس ، وكيف نوزعها ، وكيف نحمى الموزعين والناشرين على السواء ، كتبا كانت أو منشورات صغيرة .

ولم نصل بالطبع إلى هذه الإنتصارات التى حققناها إلا بتضحيات كثيرة قدمناها . . المنشورات مثلا كنا نطبعها فى مناسبات معروفة محدوده ، وكان البوليس يعرف عادة أننا لن ندع المناسبة الفلانية مثلا تمر دون أن نوزع فيها منشوراً . . ومع ذلك ، كنا نصدر المنشور فعلا ، ونقوم بتوزيعه ، فكيف كنا نستطيع ذلك ؟

كنا نطبع المنشور فى أربعة أو خمسة مطابع فى وقت واحد ، حتى إذا عثر البوليس عليه فى مطبعة أو اثنين أو ثلاثة . . لم يضبطه فى الرابعة والخامسة كنا نطبع واحداً فى شبرا . . والثانى فى السيدة زينب ، والثالث فى عابدين ، والرابع فى مصر الجديدة ، والخامس فى المعادى أو حلوان ، بل إننا أحياناً كنا نطبع واحداً فى طنطا . . والثانى فى الزقازيق ، والثالث فى دمياط والرابع فى بنى سويف والخامس فى المنيا !

وكان الزميل الذى يكتب المنشور بخط يده ، غير الزميل الذى يتفق مع المطبعة ، غير الزميل الذى يذهب لكى يستلمه ، غير الزملاء الذين يوزعونه . . من باب الأمان !

ولما ضيق البوليس الخناق علينا إلى الحد الذى يعرض سلامة البعض للخطر كما يعرض المنشور أيضاً للمصادرة ، اشترينا حوالى ستين كيلو من الحروف الجديدة ، وأودعناها إحدى الشقق فى منزل أحد العمال — زكى أبو الخير — بحارة الزير الملق بحى عابدين ، وكنا نستعين فى جمعها وطبعها بماكينة صممها بعض زملائنا من المهندسين والعمال بطريقة بدائية ، لكنها — على أى حال — كانت تعيننا رغم بطئها الشديد ، وأشار الزميل المرحوم سيد قنديل علينا بعمل كليشيه على النسخة الأولى فقط فلما فعلنا ذلك أخذ الزميل الكليشيه وطبع منه عشرات الألوف على ماكينات خارجية ، بل لقد فوجئنا به يطبع لنا بعض المنشورات يوما فى إحدى المصالح الحكومية ، وعلى ورق منها !

وكانت هذه المنشورات تأتى كلها إلى بيتى وتوزع منه ، دون أن يفطن البوليس إلى مكانها فى أول الأمر ، فقد كنا نستخدم حلة كبيرة من حلل الغسيل من أيام أجدادنا — ونعبىء فيها المنشورات ونغطيها كالمعتاد ، ونضعها فى مكانها الطبيعى وسط عشرات الحلل الأخرى الأصغر حجما ، والموضوعة فارغة إستكمالا للديكور .

ويأتى البوليس ليفتش عبثاً ، ثم بدأنا نستعين بمائدة كبيرة ذات قلب فارغ يفتح ويغلق مثل بعض الصناديق والتى تستعمل كدواليب أيضاً .

وبدأ البوليس يتخذ من المقاهى القريبة من بيتنا فى أول شارع مجلس النواب — الآن مجلس الشعب — مكانا له ، وكل من يضبط خارجا بالمنشورات يقبض عليه ، حتى بعد أن لجأنا إلى الحيلة فاستخدمنا صندوق بريد خاص فى مدخل البيت وكنا نخبىء فيه المنشورات حتى يأتى من يأخذها منه دون أن يصعد أو يقابل أحداً وأخيراً ، إستعنا بحجرة « فراخ » على السطح ، وكان الزميل الذى عليه أن يتسلمها ، يصعد السلم ومعه مفتاح الحجرة ، فيأخذ الكمية المطلوبة ويخرج بها

وبديهى أن حجرة السطح هذه كان يستأجرها شاب أعزب مجهول من صاحب البيت ومن غير صاحب البيت أيضاً !

وكنت متمرساً فى الوقوف بين يدى النيابة ، لذلك كانت الأوامر صريحة للزملاء الذين يعهد إليهم بتوزيع المنشورات بأنهم إذا ضبطوا بها ، ولم يكن من سبيل إلا الإعتراف ، فعليهم أن يقولوا أنها من فلان الذى هو أنا !

وأنه يوزعها لثقته فى ، ثم يتوقف عن الكلام فيما عدا هذا ، فلا يناقش ماجاء بالمنشورات ، ولا يمكن المحقق من أن يستدرجه فى أى شىء سوى أن يحيله إلى مصدر المنشورات ، فلا يفتش إلا بيت واحد هو بيتى ، ولا يقبض على أحد إلا على أنا !

أما أنا فقد كانت إجاباتى لاتخرج عن الآتى . . حدث أن وكيل نيابة باب الشعرية سألنى ذات يوم ، وكان قد قبض على الزملاء على الصينى ، وعلى العدل وآخرين . . وهم يوزعون منشورات ، فقالوا إنهم أخذوها منى ، وجاء مأمور باب الشعرية القائمقام عبد الرحمن عبود فاعتقلنى ، وهو قريبى ! وقدمنى إلى النيابة ، فسألنى السيد وكيل النيابة إذ ذاك الأستاذ هـــارون أبو سحلى ، وكان شاباً صغيراً ، سألنى :

— هل تؤمن بمبدأ بالذات ؟

قلت — بالطبع . . أنا أومن بالاشتراكية .

وإنبسط وكيل النيابة جداً . . وفرك يديه فرحا بهـــذا « الربون العبيط » وقال :

— وأنا تعجبنى صراحتك فعلا ، فقل لى إذن . . وكيف تعمل على ترويج الدعوة للاشتراكية ؟

قلت : أنا لم أقل إنى أدعو للاشتراكية إنما قلت انى أومن بها ، وفرق كبير بين العقيدة — كما تعلم — التى هى حق مطلق كما يقول الدستور ، وبين الدعوة التى هى عمل إيجابى يمنع القانون من مزاولته .

وتنبه المحقق إلى أننى أفهم حقوقى القانونية بالضبط ولا آخذ بأى كلام .

وعز على أن أراه وقد بدا عليه الضيق من هذه الإجابة ، فقلت أداعب آماله فى أننى يمكن أن أقع فى الفخ المنصوب لى نتيجة خيلائى، وحبى للثرثرة والكلام !

قلت — ومع ذلك فإننى مستعد أن أخرج على القانون وأدعو لها فى الوقت المناسب .

وسر الأستاذ هارون ورفع حاجبيه دهشة وقال وهو يتذاكى :

— آه . . وكيف تخرج على القانون فى الدعوة للإشتراكية وفى الوقت المناسب ؟

قلت فى برود : سلنى أولا ماهو الوقت المناسب ؟ .. إنه سيأتى حتما يوم تتحرر مصر من الإستعمار ونقول للحكومة أولا أن هذه القوانين لم يعد إليها حاجة . . يومها سنستخدم كل حقوقنا . وكل إمكانياتنا لانتزاع حرياتنا التى سلبنا الاستعمار البغيض أهمها ، وهو اختيار النظام الذى نعيش فى ظله .

ولما يئس منى وكيل النيابة أراد أن يستدرجنى فى ناحية أخرى ، فقال :

وكيف تحارب أو تكافح الإستعمار بالقوة كما تقول فى المنشور ؟

قلت : لن أقول لك فى هذه المرة ، بقوة اليقين أو الإيمان ، ولن أقول مستقبلا سنفعل ، بل سنشرع فوراً فى مكافحة الإستعمار وحربه بكل سلاح بالحديد والنار .. سننسفهم .. سندمرهم . . سنقتل جنوده تقتيلا بلا رحمة وبلا أدنى شفقة أو اشفاق . . ما رأيك أنت ؟

ولم يجب المحقق الشاب ، بل تناول القلم وسجل فى محضر التحقيق . . إستمرار حبسه أربعة أيام أخرى . . ولكن فى اليوم التالى أفرج عنى رئيس النيابة .

جاسوس عالى !

كنت أجلس إلى مكتبى بمجلة « العزيمة » صباح يوم من أيام ١٩٤١ ، حين دخل الساعى يحمل لى بطاقة باسم : حمدى عبد اللطيف المحامى لدى المحـــاكم المختلطة .

ولعله سمعنى أقول « دعه يتفضل » ، إذ لم يلبث أن دفع الباب ودخـــل منه رجل بدين فى الحلقة الرابعة من عمره ، تبدو عليه سيماء الوجاهة والأرستقراطية .

ولم يلجأ الزائر إلى المقدمات بل اقتحم الموضوع رأسا بأسلوب لبق ، ونبرة فصيحة وابتسامة لم تفارق شفتيه منذ دخل إلى أن خرج .

قال أنه سمع من صديق لا يريد أن يذكره الآن إن دار المجلة بها عدة غرف وأنها تستطيع أن تستغنى عن بعضها وأنه يريد استئجار واحدة لتكون مقر جماعة إسمها « جماعة الباحثين عن العمل » .

وقبل أن أتكلم ، أخذ يرد على ماقد أثيره من إعتراضات كأنه يقرأ مابنفسى قال . . لا تظن إننا نعقـــد إجتماعات صاخبة تزعجكم ، ولا يدور بخلدك أن زوارنا لا ينقطعون لكثرتهم . . كلا . . إننا اشبه ما نكون بمكتب تخديم فقط ، المتعطل أن يحضر ويحرر إستمارة بمؤهلاته لنتولى نحن البحث عن العمل الذى يناسبه .

ووقعت فى « الفخ » الذى نصبه لى الرجل . إذ سال لعابى لهذه الجمعية التى تتيح لى التعرف إلى عدد من الشباب أجندهم بدورى للحركة التقدمية ، فلم ألبث أن وعدت الرجل بإنهاء هذه المسألة حتما بعد إقناع صاحب الجريدة !

وفى اليوم التالى ، تم تأجير الحجرة بسهولة إذ كان الأجر الذى عرضه الرجل مغريا وكانت الجريدة تعانى أزمة مالية .

وبدأت الصداقة تتوطد بينى وبين حمدى عبد اللطيف ، إذ كان الرجل — فى غيابى — كثير الإشادة بأخلاقى ، كثير التعبير عن إعجابه بمقالاتى . . وكان فى حضورى ، كثير التودد إلى أصدقائى ، لا يفتأ يدعونا إلى ولائم وسهرات وحفلات سينما !

ثم تلقيت ذات يوم خطابا من مجهول يحذرنى فيه من حمدى عبد اللطيف ويقول إنه جاسوس خطير !

ولم يكن من السهل أن أصدق ، أن الرجل فى غنى عن التجسس بمـــا ورثه عن آبائه من أموال وأطيان فهو يملك سيارة ويعيش مع أسرته فى قصر ضخم بالزمالك ، وعهدنا بالجواسيس أن يكونوا من أولئك الذين تغريهم ظروفهم ، رجال البوليس باصطيادهم !

ومع ذلك فإننى لم ألاحظ على الرجل شيئا مريبا ، لا هو طلب الانضمام إلى حركتنا ، ولا هو حاول أن يستدرجنا . . إنه على العكس لا يفتأ يعلن كراهيته للسياسة ، وهجومه على الشيوعية بالذات . وكان يقول لى ألست تقـــول إنك تحترم حرية الرأى . . هذا هو رأيى إذن !

لكن الاتهام عادة يثير الشك ، فلم أستطع أن أمنع نفسى من الارتياب فيه ، وكنت ذات مساء على موعد معه لتقضى سهرة من سهرات رمضان ، وطلب لنا أن نذهب إلى حى الحسين على الاقدام ، وقال لى الرجـــل ونحن نجتاز شارع الأزهر عند منتصف الليل . . هل لديك مانع من أن نقضى السهرة إلى الصباح ؟

قلت : كلا بالطبع . .

وشرد ذهنى فجأة ، فقد أثار هذا الاقتراح شكوكى بلا داع ، وخطر لى أن أجرب طريقة سيكلوجية الإيقاع به ، فقلت له بلهجة سريعة قاطعة : وهذه مناسبة طيبة لأقول لك شيئا . . هو أننى أعرف كل شىء عنك وعن مهنتك التى تخفيها وعن سر صداقتك لى .

وحدث ما كنت أتوقعه ، إذ إنهار حمدى فجأة وقال وقد ارتسمت على شفتيه إبتسامة خجولة صفراء :

— عجيبة . . من الذى قال لك ؟

ثم استطرد : ثق إننى لم أقصد إيذاءك ولم أتآمر عليك ، أوالفق لك تهمة ! إن مهمتى قاصرة على شىء واحد هو أن أدرس شخصيتك ! كنت أريد ان أعرف أى نوع من الرجال أنت . . هذا هو كل ما يهم المخابرات البريطانية فى الوقت الحاضر !

وأدركت أن صاحبنا من رجال المخابرات . وتظاهرت بأننى كنت أعرف هذا من قبل ، وقلت له وأنا ابتسم فى هدوء : هه . . وما الذى خرجت به من دراساتك ؟

قال : من الدروس التى تلقيتها أن الرجل يعرف على حقيقته فى إحـــدى حالات ثلاثة . . عندما يجلس مع امرأة ! أو يشرب الخمـــر ! أو يلعب القـــمار !

وقد حاولت أن أدعوك لكأس من الخمر فرفضت ، هل تذكر ؟ . وحاولت مرة ثانية أن أصطحبك معى إلى كباريه واتفقت مع راقصة على أن تجلس

معك ولكنك لم تحضر . . هل تذكر أيضاً ؟ . . وأخيراً ، سألتك هل تلعب الورق أو حتى الطاولة فقلت لا . . لقد حيرتنى ؛ وأخيراً ، كنت ألاعبك القمار دون أن تشعر . . بل ظللت ألاعبك القمار إلى اليوم . .

وابتسمت وتذكرت أن حمدى كان يقابلنى كل صباح ليضع قرشاً فى قبضة يده ، ويسألنى :

معك والا كتابة ؟ . . فإذا عرفت نوع القرش الذى معه أعطاه لى ، وإذا أخطأت ، طلب منى قرشاً !

وكنت أظن أنها نزوة صبيانية كتلك التى تبقى فى بعضنا من عهد الطفولة ، فأضحك وألاعبه كما يشاء . . ولم يخطر لى مطلقاً أنه كان يدرسنى من خلال هذه العملية البسيطة ، ويريد أن يعرف هـــل أنا ميال للمغامرة ؟ . . وهل أنساق فى اللهو ؟ . . وهل . . وهـــل . . من الصفات التى كان الإنجليز يريدون معرفتها !

ولاحظ حمدى إننى شردت بذهنى ، فقال : إسمع . . لقد انتهت مهمتى معك . . أقسم لك بشرفى ؛ ولم يعد لى عندك سوى الصداقة الشريفة فإذا كنت لاتثق فى أو ترتاب فى نواياى فأنا على استعداد للانسحاب فورا وإذا رغبت أن تستمر معرفتى بك فإننى أكون سعيداً ، وأنا على استعداد أن اثبت لك إخلاصى بطريقة عملية .

قلت : وما هى هذه الطريقة العملية ؟

قال : سأدعوك لتناول الطعام على مائدتى غداً ، وسأقدم لك مفاجأة هامة ستعرف منها مدى إخلاصى وحبى !

ودفعنى الفضول إلى تلبية الدعوة ، حيث قال لى مضيفى وهو يخرج بعض التقارير من حقيبة جلدية صغيرة :

— هذه هى التقارير السكتربة ضدك فى أرشيف المخابرات . . لقد أخذتها اليوم لأطلعك عليها ، وسأبدأ بأن اقرأ لك ماكتبته أنا عنك .

وفرغ من قراءة تقريره عنى ، ثم تناول آخر وقال : هل تذكر شخصا إسمه فلان ؟

قلت : سمعت هذا الإسم . . لكنى لم أعرف صاحبه شخصياً .

واستغرق حمدى فى الضحك وهو يقول : صحيح ؟ . . إنه يزعم أنه صديقك ، وأنه كان يسهر معك ، ويقول عنك كيت وكيت . .

وراح حمدى يقرأ لى بقية التقارير فكنت أجد بعضها يتضمن معلومات صحيحة عنى ، وأكثرها يتضمن أكاذيب .

قلت له : إن أكثر هذه المعلومات لا أساس لها من الصحة .

قال وهو يضحك : بينى وبينك ، إنها عملية استغفال لابتزاز الأموال وسأعترف لك ببعض ما ارتكبت شخصياً من النصب والإحتيال . . لقد كنت قبل الآن ضابطا فى المخابرات الفرنسية ، وكلفت بتوصيل مبلغ عشرة آلاف جنيه الزعيم عمر المختار الذى كان يقاوم الايطاليين فى طرابلس إذ كان الفرنسيون يهتمون بتشجيع حركات المقاومة ضد الإيطاليين ، فلم أوصل لعمر المختار سوى نصف المبلغ فقط وأخذت الباقى لنفسى .

بل إننى سأعترف لك بمسألة ستضحك لها كثيراً . هل تذكر يوم دعوتك

لقضاء ثلاثة أيام فى الإسكندرية . . على نفقتى وفى الموعد الذى حددناه قلت لك إسبقنى إلى هناك لأننى سأتخلف يوما لسبب عائلى ؟ . . هل تذكر هذه الحكاية ؟ . . بصراحة ، لقد قبضت من المخابرات مبلغاً بعد أن أوهمتهم إننى سمعت أنك ستسافر لعمل إتصالات خطيرة هناك ، وإننى لابد أن ألحق بك لمحاولة معرفة هذه الإتصالات المزعومة .

سألته : وماذا قلت لهم بعد ذلك ؟

قال وهو يضحك : قلت إنك اتصلت بأحد بحارة السفن التى وصلت إلى الإسكندرية فى تلك الأيام . واجتمعت به لأكثر من ٣ ساعات ؟ !

نساء فى حياتى !

وأنا إنسان ، وفى ضعف الإنسان ونقائصه ، لذلك كانت لى حياتى العاطفية أيضاً ؛ وعلى الرغم من أننى عرفت الجنس مبكراً قبل أن أصل إلى سن البلوغ وكانت لى علاقات متعددة مع الجنس الآخر ، إلا أن حياتى من هذه الناحية كانت سوية ، وأكثر الناس ، بل كلهم تقريباً ، لاتخلو حياتهم من المرأة ، بل وعندى أن من تكون حياته كلها بلا نساء ؛ لايكون رجلا كاملا ، ولايكون شخصا سويا !

عرفت أول إمرأة فى حياتى وأنا دون السابعة من عمرى ، وكانت هى فى سن النضوج ... أنثى تقترب من العشرين تقريباً ، ، تسكن شقة فى نفس المنزل الذى نقطنه ، وكنت أتردد عليها لكى ألعب معها ، وكنت بريئا لم تلتقط أذناى سوى بضع أسماء وأشياء وكلمات لم أرها ، وكنت أتصورها كما يرسمها خيالى ؛ وقد ارتحت كثيراً حين طلبت إلى هذه الصديقة الكبيرة أن أصحبها إلى دورة المياه ، وأطعتها بادىء الأمر ، ولم أقترب منها ؛ ولكن فجأة نشط خيالى ، واشتد شوقى لرؤية تلك الأشياء التى كنت أسمع عنها دون أن أراها ، ووجدتنى أتلصص واقترب من المكان الذى دخلته ، واسترق النظر من خلال فتحة الباب الغير محكم ، ومن العجيب ان هذه الوقاحة قد أعجبت صديقتى وتحملى سرورها فى المناداة على حتى اقتربت منها .

وتطورت المسائل بسرعة ، فأخذتنى إلى حيث وضعت لى وسادة ؛ وراحت تعلمنى ألف باء الجنس ؛ دون أن أفهم كلامها ، وكانت مرة تأخذنى فى حضنها ومرة تعبث بأجزاء من جسمى وانا أبكى وأصرخ من عنف ضماتها وقبلاتها .. وعندما هدأت بعض الشىء ، حذرتنى من أخبار أى إنسان بما كنا نفعله .

وعجبت لسذاجتى — إذ ذاك طبعاً ! — وسألتها . . وتنكر له ؟ ... وارتاعت القولى ، وهددتنى بالويل والثبور ... أى منع الشيكولاته والملابس وكل ما كانت تغدقه على ، هذا علاوة على أنها سوف تحرض الأطفال ضدى وتمنعهم من اللعب معى .

وعبثاً حاولت الصديقة الشابه أن تروضنى على اعتياد هذا الوضع ، ولكن طفولتى جفلت منها ، وهربت فراراً من قسوتها ، واعتبرت تلك المحاولات إعتداءاً مؤلماً موجعاً لا قبل لى باحتماله ، ولامعنى لإكراهى عليه ، ولعل هذا هو الذى جعلنى — حتى الآن — لا أحب المرأة الفاجرة غير المحتشمة ولا أطيق الجريئة غير الخجول .. فقد صادفت — بعد سنوات — فى فترة من حياتى سيدة صغيرة وبينما كنت أنظر إليها باشتهاء ؛ كانت هى أيضاً تبادلنى نفس النظرة ، ولم تلبث أن كررت معى نفس الخطأ الذى ارتكبته الأولى ، عندما حاولت بجرأة أن تدعونى إليها ، وبحركات جريئة أيضاً حاولت أن تروضنى ؛ فأصبت بنفس الغثيان ، وهربت منها !!

ربما أننى لم أكن ذلك الشاعر المتصوف الذى قال يخاطب ربه :

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت يا عبادى أتفتنون !
وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لايعشقون !

إلا أننى كنت أعبد الله فى أروع أعماله أيضاً .. تلك النماذج الحية الرائعة من بنات حواء .. وكنت أرى فى كل منهن لونا مختلفا من الجمال لا أراه فى الأخريات ، فأتساءل .. إن الله سبحانه له فى ذلك حكمة . . ترى ما هى هذه الحكمة ؟ !

أهى قدرة الخالق على صنع مئات ، بل ملايين الملايين من النماذج للمرأة

دون أن يتكرر نفسه وتظل كل منهن كبصمة الأصبع لا تتشابه ، ولا تتكرر مهما ظن الذين لا يفهمون الجمال ، أن المرأة فى النهاية نموذجاً واحـــداً لا أكثر ولا أقل !

إن الإنسان ليحار أمام كل ذلك الجمال ، كما وكيفا ، وقديماً قال أخناتون « إن الله يطل من العيون الجميلة » وقد خبر أخناتون آلاف من العيون الجميلة فى وجوه الجوارى والحظيات اللاتى كن يملأن قصر أبيه ، وكذلك كنت أنا مثل أخناتون — الفرعون المصرى القديم — أجد فى غرامى بالجمال الحى نوعا من العبادة أو نوعا من التصوف ، أو لعله نوعا من العشق الالهى ؟ ؟

وأيا كان الرأى فى هذه الفلسفة ، فإنى لم أصل إلى ما وصل إليه شاعرنا الشعبى العبقرى الموهوب بيرم التونسى ، حين قال متفلسفا

تحرقنى ليه يارب وأنا عبدك والا عشق وانعشق منك ومن عندك ؟
أنا كنت فى الدنيا باتفرج على فنك قال هناك صنعتى ، لكن هنا حكمى !

ولا أنكر إنى تفرجت بما فيه الكفاية ، بل وحتى فقدت ، اللهفة ، وصرت أتذوق كل نوع من الجمال — خصوصاً الحى ! — متأملا ، متمهلا ، فى تؤدة ووقار استيعاب ؟

وأقسم إننى مازاولت « الحب » فى حياتى إلا مترفعاً كبير النفس ما حاولت قط أن أصل إلى قلب امرأة بالغـــدر ، أو الكذب ، أو الالتواء . . وكان الأصدقاء يقولون لى . . أكذب على النساء . . أخدع بنات حواء . . فالمرأة تحب من يخدعها . . ويكذب عليها . . ولا تنسى أن الكذب والخداع مباحان فى الحب والحرب !

ولكنى لم أستسغ أبداً هذا التبرير ، وكنت رجلا فاضلا مع كل من عرفت لا أقدم لهن نفسى مدعيا أو مبالغا ، أو على غير حقيقتى . . ولم أقدم فى حياتى للمرأة التى تروقنى وعداً إلا إذا كنت أعلم أننى أستطيع تنفيذه .

ومع ذلك ، وربما من أجل ذلك ، كانت علاقاتى فى شبابى الباكر كثيرة ، ولكنها لم تترك بصمات على سمعتى ربما لأنها لم تخلف أثراً سيئاً واحداً . فلم أترك فى نفس امرأة أو حياتها جراحاً لا تندمل ، بل — ولست مغروراً — تركت دائماً ذكريات . وقصصا جميلة لا تنسى !

لذلك ، كانت صدمتى قاسية . عندما حاولت إحـــداهن أن تتهمنى بما لا يتفق وطبيعتى وأخلاقى ولكن الله نجانى من زيجة كادت تضم إلى صحيفة « سوابقى » فى الزواج !

فقد جاءتنى تلك الإنسانه ذات يوم ، وطلبت إلى أصحح وضعا — كنت واثقاً أنه لا يدلى فيه — وأن أستدعى مأذون الحى فوراً . . ولم أناقشها . فقد كنت أعرف أنها تتق بكل تأكيد أننى لست المتهم وإنما أنا ضحية ونظرت إلى عينيها فوجدت ذلك الذل والانكسار الذى يظهر واضحاً فى عينى « إنسانة » تريد أن تتزوج حالا لتخفى عاراً يوشك أن يلحق بها ، وقررت إلا أجرحها ولكنى قررت فى نفس الوقت إلا أتورط . . فقلت لها . . فليكن . . نستدعى المأذون كما تطلبين . ولكنى أصارحك منذ الآن بأن هذا الزواج لن يدوم لأكثر من أسبوع . . إنه مجرد ورقة تعطيك وضعا قانونياً . . فضلا عن شىء آخر . . فلعلك تعرفين بالطبع إننى إنسان فقير لا أملك قوت يومى . . وبالتالى فأن طفلك لن يحصل منى على ثروة . . بل إنه — فى هذه الصفقة — سيولد مغبونا !

وبكت الفتاة وقالت : هل معنى كلامك إنك تظن أننى جئت أنصب عليك ؟ !

ولم أرد ، فقد شعرت إننى أوشك أن أخطىء ..

وجمعت تلك « الإنسانة » ثوبها الأسود . ونهضت وهى تقـــول بصوت خافت : إننى أشكرك على أى حال .. فقد كنت عطوفا على ..

ومدت يدها وصافحتنى ، ولم أرها بعد ذلك أبداً !

... وتزوجت !

أدى القبض على عدة مرات ، إلى سوء تفاهم حاد مع عائلتى رغم تعاطفها معى ، ولـكن « بهدلة » العائلات . وإهدار كرامتها لم يكن بالشىء الذى يحتمل ، وهـكذا استأجرت مع أصدقاء من الفنانين حجرتين متواضعتين فى درب اللبانة بالقلعة . حيث الحى المعروف بحى الفنانين وفرشتهما بالحصير ، وأعددت لهما مقاعد من الجريد وسعف النخيل ، وأغمضت عينى أفـكر فى مشروعاتى القادمة .

وبينما أنا أخطط للمستقبـــل ، اقتحمت حياتى ألوان من النسوة أشباه الساقطات ، شغلن الفراغ المروع الذى كنت أعيش فيه . واستنفدن من شبابى وحيويتى فترة كان يمكن أن تكون أبهج وأحلى وأكثر ازدهارا من كل ما فات .

وقد صحوت فجأة وانتبهت إلى الوحل الذى كدت أغرق فيه ووجدت نفسى أسبح ضد التيار الحقيق السليم . وحقيقة أننى كنت أجد فى تلك الحياة الكريهة البغيضة متعا رخيصة ولذات عابرة ، ولـكنى عندما نظرت حولى ، لم أجد واحدة ممن عرفتهن تصلح لى أو أصلح لها .. ثم تذكرت واحدة كانت ابنة وزير سابق . وكانت دائماً تنظر لى كمعجبة بواحد تعتقده من أصحاب الرسالات. ولـكن البون كان شاسعاً بين مستواى العادى . ومستواها .. فابتعدت عنها مسرعا . ثم تذكرت واحدة من قريباتى .. كان أهلها ينظرون إلى باعتبارى انطلع إلى أعلى مما أستحق . وبدورها أيضا ، لذت منها بالفرار ، فأنا أكره نظرة الإشفاق . حتى ولو كانت من أجمل امرأة .

ثم فكرت فى فتاة ثالثة . كنت قد تعرفت بأسرتها عن طريق صديق كان متزوجا من أختها الـكبرى . وكالعادة . كان زوج الأخت «مجنداً» للبحث عن عريس للأخت الصغرى .. ولأمر ما سافر الصديق فى مهمة طويلة كموظف

بالتل الكبير . وكنت بدورى — فى الوقت نفسه — مطارداً من البوليس ، متنكراً فى ثياب أخرى ، وكان ذلك الصديق قد استحلفنى أن أقضى الفترة كلها فى بيت أسرته مدة غيابه . وقبلت تحت إلحاحه . وقد كلفتنى هذه الثقة التى وضعها فى صديق أن احافظ عليها وأكون جديراً بحسن ظنه ، وبالرغم من أن أهلها — أخت زوج صديقى — كانوا يتعجلون زواجها منى بالذات — ولا أدرى لماذا ؟ — ولكنى اعتقد انه صديقى الذى زين لهم هذا بإضافات مشوهة عن أخلاقى وربما عن إيرادى أيضاً ! إلا أننى رغم إعزازى للفتاة ولأسرتها ، ولصديقى أيضا ، كنت لا أفكر فى الزواج .

ثم حدث أن قبض على وارسلت إلى سجن الأجانب . فكانت تلك الفتاة التى أحبتنى حبا جارفا تزورنى فى السجن . بل كانت هى الشخص الوحيد الذى يزورنى فى تلك الفترة ، وقد أثر هذا على وجدانى كثيراً . فقلت لصديقى بعد خروجى من السجن ، لقد كنت عند حسن ظنك ، وبالرغم من أننى أحببت «فلانة» بقدر ما أحبتنى . إلا أنها لا تعرف هذا حتى الآن . ولا داعى لأن تقول لها شيئا فلست أنوى الزواج فى الوقت الحاضر . .

ورأيت فى وجهه تعبيراً ارتحت إليه فقد ازداد إعجابا بصراحتى وإن كان أصيب بخيبة شديدة فى أمله لفشل مشروعه فى تزويجى من أخت زوجته . . ومرت الأيام تباعا . . وعدت أذكرها وأنا أتمنى الخلاص من حالة الفراغ العاطفى الذى عشت فيه بين الفنانين . . ولا أدرى حقيقة ما هو ذلك الشىء الذى ينادى القلوب المتآلفة . إذ لم البث أن تلقيت رسالة منها . تقول فيها أنها ستصل إلى القاهرة — وكانت إذ ذاك فى بلدتها من أعمالى دسوق — وحددت لى موعداً للقائها أمام تمثال نهضة مصر . فهرعت إليها ، ودعوتها إلى تناول الغداء فى مطعم البسفور . وقلت لها على الغداء ، هكذا فجأة بلا مقدمات : لقد استقر رأيى على أن أتزوجك اليوم . . بل الآن . . بعد الغداء . . ان نقيم حفلة ولن نفعل شيئاً ، بل سنعقد قراننا أولا . . ثم نفعل بعدها ما نقترحين .

قالت وهى تبتسم : وأهلى . . هل نسيتهم ؟ . . ألا نستأذنهم ؟

قلت : نستأذنهم فى ماذا ! . . وهل يستأذن الإنسان فى مصيره . . فى حياته ؟

وشعرت أن ابتسامتها تتسع ، وغرابتها تزداد ، فقلت لها فى حسم : أنا لم أعرض عليكى هذا المشروع قبل اليوم ، ولن أعوده فما كرر العرض بعد اليوم ! فقررى فى الحال ، وأرى أن تنعكس الآية ، فتفكرى فى نفسك أولا إذا كنتى راضية مطمئنة ، بل سعيدة بهذه الفرصة ، ثم يمكنك بعد ذلك أن تفكرى فى الناس . . أختك وأمك مثلا . . يمكننا أن نقيم لهم حفلة نقدم فيها دبلتى خطوبة . ثم وبالتدريج . نصارحهم بعقد قراننا . . نحن لن نفعل شيئا معيبا . . وكلانا تجاوز العشرين من عمره وأصبح حراً فى رسم خريطة حياته ، ونحن على كل حال لن نتجاوز المباح والمشروع .

قالت ونحن ننطلق إلى المأذون ، أنا موافقة وأقسم لك . . ولكن ألا نؤجل هذا المشروع ولو لبضعة اسابيع ؟

وأدركت بإحساسى ما يدور بنفسها فقلت أهون عليها الأمر : أعرف أنك لست على استعداد أنا بدورى فى حاجة إلى بعض الثياب ، ولكن ما دمنا سنعقد قراننا الآن سراً وان يتجاوز الأمر عقد القران ، فلا داعى للعجلة إذن فى مسألة الثياب !

وقالت ، وقد رأتنى أحيى بعض الأصدقاء فى الطريق : وهؤلاء المعارف الذين سيرونا معا فى الطرقات ! قلت لها : فى خلال أسبوع واحد سأشترى لى بنطلونا رخيصا ، وأشترى لك فستانا بسيطا ، ثم نعلن خطوبتنا فى حفل أبسط من الفستان وأرخص من البنطلون . . ما رأيك فى أننا سنقدم لكل مدعو « كاساتا » نشتريها من محل « تاكى » بجوار سينما مترو ؟

قالت : إذن فستكون الحفلة باردة !

قلت : تكفينا حرارة الحب . وسخونة المناسبة اللذيذة . .

وأقيمت الحفلة فى بيت الفنانين ، وفى حجرة الفنان المرحـــوم رمسيس يونان ، وكان من المدعوين الذين حضروا إذ ذاك ، ولازلت أذكرهم حتى الآن ، الكاتب المعروف إحسان عبد القدوس ، والأستاذ الإنسان المرحوم أبو بكر حمدى ، والمخرج كامل التلمسانى ، والقصاص الفنان البير قصيرى.. وآخرين !

وتزوجنا . . وأقمنا بعد ذلك فى ملحق صغير ببيت الأسرة كانوا يعدونه فى بيوت زمان لتغيير الملابس ، فلا يكاد أن يكون حجرة بالمعنى المفهوم ، وكنا نستقبل فيه ضيوفنا — وما كان أكثرهم — وكنا قد أجدنا التنكيت على أنفسنا ، واتخذنا من عدم وجود كراسى أو دواليب أو تسريحات أو سفرة أو مكتب .. كنا قد اتخذنا من الفقر عموماً مادة للنكت والقفشات ، نضحك بها على أنفسنا ونسلى ضيوفنا أيضاً ، وفى خـــلال ذلك ، كنا نستكمل تأثيث بيت الزوجية ، قطعة بعد قطعة ، وكرسيا بعد كرسى ..

وعلى الرغم من أننا كنا قد اتفقنا على تنظيم عملية النسل ، وقد نجحنا فعلا فى السنة الأولى . إلا أننى فوجئت فى السنة الثانية بزوجتى وهى تقول إنها حامل ، بحجة إنها نسيت أن تتخذ الإحتياطات الواجبة ، خصوصاً ولم تكن حبوب منع الحمل قد اكتشفت بعد ! وسواء كان ذلك صحيحاً ، أو كان بسبب تهاون متعمد بناء على نصائح مستشارى زوجتى من العمات والخالات والحموات وأولهم حماتى طبعاً !

وقد انضمت إلى المجموعة بعض الشغالات فى الأسرة . . إذ أذكر أننى سمعت بأذنى ذات يوم تحذيرا من أحدهن للست ، عن إهمالها فى تطويق بربع دستة » من الأطفال على الأقل !

وقـــد جاء أولادى الثلاثة تباعا . . وذهبت إرادتى هبـــاء ، أمام

إصرار مجموعة المستشارين الخاصة بزوجتى !

ولم انتبه تماما إلا حين جاءت إحدى مستشارات زوجتى وهمست فى أذنى : مبروك . . الست حتوضع بعد يومين ثلاثة بالأكثر .

وأفقت ساعتها إلى المصيبة التى توشك أن تحل ! فطالما حذرت امرأتى من الاستعجال لظروفنا الصعبة . وبينما أنا أنتقل كل يوم من معتقل إلى سجن من الذى سيعنى بالمولود ؟ . . من الذى يعنى به ؟ . . هل نترك كفاحنا ورسالتنا لنلتفت لتربية الأولاد ؟ . . لقد إعترفت بعض الأديان السماوية بالرهبنة لخلق طبقة تتفرغ لرسالتها الدينية ، بعيداً عن زخــــرف الدنيا ومباهجها ، ومنها البنين ، فالأطفال مخلوقات صغيرة ضعيفه لايملك الإنسان إلا أن يحبهـــا ، ولايملك إلا أن يرعاها ما استطاع ، فما بالك إذا كان الطفل من صلبه أو فلذة كبده ومن حشاه ؟!

وجلست مغيظا لا أدرى هل أركز غيظى فى مستشارى زوجتى الجهلة . . أم فى زوجتى المتعلمة المثقفة التى لم تستطع أن تتخلص من غريزة الأمومة حتى مع ظروفنا الصعبة ؟

وجاء من يسألنى . . هيه . . ونويت تسميه أيه ؟

هذه إذن هى أول مسئولية للأب فى هذه الدنيا وما أسهل أن تمر فى حياة الناس ، وما أصعب أن تمر فى حياة رجل يقدس المسئولية إلى حد أنه يتهيبها لفرط تفكيره فيها !

ورحت أسأل نفسى : ماذا أسميه !

وأخذت أستعرض جميع الأسماء ، وأبحث عن أصلها وفصلها . . بعض

الناس يفضلون الأسماء التى تدل على معانى مثل مخلص . . رءوف وحنان وكرم وكريمة . . وشرف وشريفة وسميح وسامح وسميحة ، ومصلح وهانى ومهنية . . وبعضهم يفضل أسماء أخرى منحوتة من الزهور والشجر وغيرها . . بل هناك بالفعل أسماء عبير ومسك وورد وفل و ياسمين ونرجس وكاميليا وروائع وأريج . . الخ . . وهناك من يفضل أخذ الأسماء من الحيوانات مثل أسد ونمر وفهد وقط ونسناس وقرد وكلب !

ولا ننسى الذين يأخذون أسماءهم من الكواكب مثل شمس وقمر وكوكب ونجمة وزهراء . . لغاية زحل ! أما الذين يحبون أسماء الملوك والعظماء فيطلقون على أولادهم إسم ملك . ووليم . وريتشارد . . ومن المتدينين من يسمى محمد وأبو بكر وعثمان وعلى وسائر الخلفاء الراشدين . . ومن الثوار من يسمى إبنه لينين . .

ووقفت عند كلمة لينين . . وقلت أنها تصلح من نواحى كثيرة . فهى اسم لثائر عالمى لم يعوضه التاريخ . ولم يعرف نظيراً له ، ومن الناحية الوطنية ، هو تخليد لأكبر صديق الشرق العربى عرض على سعد زغلول معاونة الثورة المصرية بالمال والسلاح ، وعهد إلى سكرتيره أن يتفرغ لدراسة المسألة المصرية ، فلم يلبث أن أخرج اروع مؤلفاته وأعمقها دراسة . . كتاب كان المرجع الأول والأخير لكل من أراد أن يعود إلى الصراع بين الاستعمارين الفرنسى والإنجليزى ، ! وكيف نهبا مصرا ، وكانا يستحلبانها . . إنه كتاب « خراب مصر » !

وقلت أن لينين الذى ألغى الإمتيازات التى كانت لبلاده فى شرقنا العربى ، وتنازلت روسيا فى عهده بمحض اختيارها عن منطقة أرارات . والذى رفع الإضطهاد عن مسلمى روسيا القيصرية ، وفتح لهم المساجد والمكتبات الإسلامية وأعاد طبع قرآنهم الذى بذل جمال الدين الأفغانى المستحيلات فى سبيل إقناع القيصر الثانى بطبعه دون جدوى . .

ووجدتنى أصر على أن اسمى ابنى بهذا الإسم تكريما لخدماته فى سبيل مصر والشرق والإسلام . . وكنت قد فكرت قبلها لطول حيرتى فى أن انتخب الأسماء المرشحة وأضعها فى جراب ثم أسحب ورقة منها تكون هى الإسم الذى يمنحه الحظ لإبنى . . ولكنى عدت فاستسخفت الفكرة ، وقلت فليكن له الإسم الذى اختاره أنا . . فهذا حظه أيضاً ، وقد كان حظه هو الذى جعلنى أنتخب له هذا الإسم .

وقد ولد ابنى فى ظروف جعلته يكره السياسة ، ويشب على النفور منها ، فهو لم يجد من وراثها سوى متاعبنا وكل آلامنا ودموعنا ، ولعلى أتمس له كل العذر إذا وجدت لينين الحديث يتجه إلى الفن وهى وسيلة على كل حال تخاطب المشاعر والوجدان بلغة راقية . وإن كان بذلك يختلف اختلافا جذريا عن لينين القديم . . الرجل صاحب كل تلك القيم الإنسانية العظيمة .

إشتغلت دادة .. ومرضعه !

غدوت إذاً « أبا لينين » على الرغم من كل ما بذلته من نصائح مع أمه لعدم إنجاب أطفال ، إلا في ظروف تكون فيها أسعد حالا ، لكنها لم تكن تؤمن بتنظيم النسل ، فقد تقاعست عن إتخاذ الكثير مما فكرنا فيه معاً إنقاذاً لها بل إنها استعدت — بعد إنجاب لينين — وفي الحال ، لانجاب البنت التالية له واتفقنا على تسميتها « جهاد » !

وكان القدر يغرينا بتلك اللعبة الخالدة . فجاءت جهاد ولداً . . بل وكان من يومه رجلا أجش الصوت . طويل القامة . حاد الملامح . واضح العبارات إذا تكلم فكأنه يأمرك أو يعنفك . شخصيته صارمة حازمة رغم ما فيه من وداعة . وطيبة . وحسن طباع !

لم يخرج كما تصورنا ، أو تصورته أمه . بنتا . . . بل جاء أبعد الناس عن صفات الانثى . . . الناعمة . . « المستحية » ! ثم جاءنا « عادل » أميل إلى الأنانية وقد ورث عن أبيه التمرد ، وعن جيله الغرور !

وحدث أن تلقينا دعوة للاشتراك في المؤتمر النسائي الديموقراطي العالمي وسمعت أن الهيئات النسائية الرجعية تنوي مقاطعته ، بل ومهاجمته وفكرت في أن تحضره زوجتي سعاد ، ولكن بأية صفة ؟

إن السيدة سعاد عاملة ، وقد تكون سكرتيرة أو زوجة متفرغة ، لكنها على أي حال لا تخرج من كونها عاملة من العاملات ، فلماذا لا تمثلهن في المؤتمر ؟

فلتجمع التوكيلات ، ما دامت ليست عضواً في هيئة نسائية ، ولتذهب بهذه التوكيلات إلى المؤتمر ، فإن هذا يكون أكرم ، وأصح تمثيلا . .

وسافرت زوجتي إلى فرنسا ، وتركت لي « لينين » وهو في الشهر الأول من عمره ، وجئت له بمرضعة ، ولكن بعد أسبوعين ، لاحظت أن المرضعة قذرة وأن عيني الطفل مغمضتان دائماً . . ثم وجدت الصديد قد زحف إلى جبينه فأخذته إلى الطبيب الذي قرر أنه أصيب بميكروب « الجونوكوك » ، وأن هذا الصديد يخشى أن ينتهي بسحابة على عيني الطفل . ويلزم أن تغسل له عينه عدة مرات في الصباح ومثلها طوال الليل . . كما استقر رأيي مع الطبيب على إبعاد تلك المرضعة عندما اعترفت بأن ابنتها مريضة ، وأن « لينين » أخذ العدوى منها حيث كانت ابنتها تنام على صدرها في نفس الموضع الذي ينام فيه ولدي ! وزادت مسئولياتي . إذ اشتغلت دادة . ومرضعة معا ، كنت طول الليل أسهر على رضاعته من اللبن الصناعي . ثم أغسل له عينيه ، وأضع له القطرة مرات عدة حسب أمر الطبيب ، تعاونني جدته العجوز — أمي — هذا إذا كانت تستطيع وهيهات !

وحان موعد عودة أمه ووصلتني منها برقية تقول فيها أنها سعيدة ولا ينقصها سوى « أنا ولينين » !

وجاءت أخيراً ، وفي اليوم التالي مباشرة هاجمتنا النيابة ، وعثرت على البرقية وكانت مأساة ، أو لعلها كانت ملهاة من الطراز الأول ، فقد كان ثمة وكيل نيابة في القوة التي هاجمتنا في تلك الليلة ، أصر على أن يأخذ الطفل لزوم التحقيق في البرقية ! ويضعه في احراز ، ويختمه بالشمع الأحمر ، إلى أن ينتهي التحقيق فأكتب طلباً على ورقة دمغة لإستلام ابني هذا إذا لم يكن ثمة مانع قانوني آخر يحول دون إستلامي أياه !

الشلة تدخل الانتخابات

كنت فى ذلك الوقت شاباً صغيراً .. صغيراً فى كل شىء ، فأنا من ناحية لم أتجاوز الثانية والعشرين من عمرى فقيراً معدما .. أشتغل فى أربع أو خمس جرائد ، حتى أعول نفسى ، وأسرتى ، وأعول بعض أصحاب لى كانوا أشد منى فقراً ومسغبة .. كنا نتقاسم « السندوتش » كما نتقاسم فنجان الشاى ، ولكننا نجلس فى نهاية الأمر سعداء . نفكر فى مستقبل بلدنا ، ونحلم بأننا سوف نقيله من عثرته يوم تتحقق أحلامنا ونزيح من طريق الوطن أولئك الزعماء المفلسين والساسة الانتهازيين .

ونطلق خيالاتنا البريئة — بلا خمر ولا حشيش — فتطير بنا إلى حيث تحلق فى الأجواء العليا .. ونرى المجتمعات التى ننوى صنعها بأيدينا .. نعم .. كان يلذ لنا أن نرى تلك المجتمعات بلا متاعب . وبلا حروب وبلا صراع .. لا يعيش فيها سوى طبقة عاملة من الملائكة ومثقفين من القديسين . وزعماء من الأنبياء المعصومين . وكانت خيالاتنا تصبح بعيداً عن الواقع المــؤلم والمستقبل القريب المظلم ولكننا كنا نتعجل ذلك كله ونتعجل التطور . ونحاول دفع عجلته إلى أقصى قوة دورانها إلى الأمام !

لذلك ، ما إن إجتمعت شلتنا فى قهوة الخواجة بسعلونى بسكة الفضل المتفرع من سليمان باشا — ولم تكن أكثر من شلة ! — حتى دار الحــديث عن السياسة المحلية . ولا أدرى كيف تدرجنا منه إلى الإنتخابات . وعض كل منا على شفته ، وتحسر على أن أحداً منا لم يبلغ الثلاثين من عمره ، حتى أصبح فى إمكانه أن يرشح نفسه فى أول انتخابات قادمة فقد خيل إلينا أن الناخبين سوف يستجيبون لدعوتنا ويثقون ببساطة فى حسن نوايانا نحوهم .. نقول لهم مثلا نحن الفقـــراء مثلكم فيصدقون ! ونقول .. نحن أصحاب مبادىء ولسنا

إنتهازيين .. فيؤمنون .. وتعالوا طالعوا برامجنا التى أعددناها لكم فيوافقون ويؤمنون ثم يصفقون ويهللون !

ولم نكن نعرف إذ ذاك أن الظروف ستحقق لنا طرفا من أحلامنا لنخسر منا بعد ذلك ما شاءت .. ففى أواخر سنة ١٩٤٤ أعلنت وزارة أحمد ماهر التى كانت قد تولت الحكم فى أكتوبر من ذلك العام ، أنها ستجرى انتخابات جديدة فى يوم ٤ يناير من العام الجديد .

وهرعت إلى زملائى أحمل إليهم النبأ وأسألهم عما سوف يفعلون . فرأيتهم جميعاً يستبعدون الفكرة من أساسها .. فليس فى أيدينا مال ، وليست لدينا تذاكر انتخابية ، وليس فينا واحد يبلغ السن القانونية للترشيح .. وجلسنا إلى آخر الليل وأنا أحاول إقناعهم وأذلل كل عقبة .. فقلت أن المال نستطيع أن ندبره ولو عن طريق فتح اكتتاب شعبى من الناخبين ، والتذاكر الإنتخابية نحصل عليها فى ديسمبر قبل الإنتخابات وشهر ديسمبر قريب .. والسن القانونية ليس لها أهمية ما دمنا لن نستهدف النجاح الحقيقى فى تلك المرة ، إذ لن يكون لنا سوى هدف وحيد .. هو أن نمارس التجربة ، ونرى ما يكون عليه استقبالنا عند الجمهور وإلى أى مدى تنجح طريقتنا فى تعليم الناس نوعا جديداً ، نظيفا ، من المعارك الإنتخابية !

ولم أيأس من كلام الزملاء . بل رحت أعاتبهم فى سرى .. كيف يتصورون أن مبادئنا الجديدة لا تقوى على هذه التحديات البسيطة ؟ .. وقررت فى لحظة حماسة للإنتخابات أن أخوضها بنفسى ، وكما أكدت فى أول منشور لى .. وبلا لقب ، ولا مال ، ولا عصبية ، ولا حزب من الأحزاب ، ! وكنت بالفعل أشعر بفقرى ، وصغر سنى ، وضآلة شأنى فى المجتمع ، ولكن إيمانى الجديد بالإشتراكية كان يملأنى اعتزازاً وثقة ، فأنا أعتمد على مبادىء أقوى من أن يقف أمامها خصومى ، وأن لهذه المبادىء جاهاً يعلو على كل جاه ، وسلطانا أقوى من كل نفوذ وسلطان .. لذلك كنت أكاد اختال وأنا أسير فى الدائرة متعاليا

على بقية منافسى التسعة ، ورغم اقتراب موعد إقفال باب الترشيح ، كنت لا أزال أفكر من أين آتى بقيمة التأمين ، وكان إذ ذاك مائة وخمسون جنيها كاملة — وهو مبلغ ضخم — وأيقنت أن المشرع الرأسمالى أو الإقطاعى قد اشترطه لكى يسد الباب فى وجه من يفكر فى ترشيح نفسه من الشعب ، وهى مسألة حساسة عندى ، فقررت أن يكون أول ما أعلنه للناس ، للفقراء بالذات .. هو كيف يدخلون الإنتخابات رغم الأنوف ! وكتبت رسالة طبعتها على ماكينة الروتيو ، ناشدت فيها العمال الذين أعرفهم أن يمدونى بمساعدات مالية — هذا إذا وافقت لهم فكرة ترشيحى على المبادىء الإشتراكية — وأرسلت نسخا منها إلى ثلاثة أو أربعة جهات ، الأولى إلى بعض طلاب الجامعة الذين كنت أعرف بعضهم ، والثانية إلى نقابة عمال الطباعة وكانوا يعتبرونني مستشاراً وزميلا لهم ، وكانوا إذ ذاك يسكنون فى دار المجلس الأعلى للعمال بشارع جامع شركس .. كما أرسلتها إلى بعض زعماء عمال النسيج فى شبرا الخيمة كالمرحوم الزميل فضالى عبد الجواد الذى كان أول من تلقيت رده مدعما ببعض المال الذى أكتتب له به زملاؤه فاقتسمه معى . إذ خصنى ببعضه وقال معتذراً أنه دفعة أولى ، وسرعان ما ألحق به فعلا مبلغا آخر .. كما وصلنى بعض المال من عمال الطباعة المتعطلين فى ذلك الحين ، أما طلبة الجامعة فقد أرسلوا لى خمسين جنيها دفعة أولى مع وعد بأن تتلوها دفعات .. وزارنى المرحوم الإنسان أبو بكر حمدى سيف النصر (نجل حمدى باشا سيف النصر ، وزير الحربية الوفدى) ، وقال إنه سمع بما اعتزمته من دخول الإنتخابات ، وأنه يتعهد لى أمام ضميره بأن يجمع لحسابى اكتتابات من الأصدقاء تغطى مبلغ التأمين ، اما نقود العمال والطلبة فعلى أن أدخرها لنفقات المعركة الإنتخابية إذ أنها — الإنتخابات — ستحتاج إلى كثير .. وغاب عنى أبو بكر أياما .. وانتابنى خلالها اليأس والقلق .. فرحت اقترض بقية المبلغ من أقاربى وأخوتى ، حتى إننى رهنت مصوغات زوجة اخى حسين .. وبقى جنيه واحد على تكملة المبلغ ، فذهبت إلى صديقى الأستاذ لطف الله سليمان مدير المبيعات وقتها بمكتبة النهضة فاقترضته أيضا ، كما اقترضت عشرة قروش أجرة التاكسى الذى أوصلنى إلى مبنى المحافظة حتى

ألحق بالكاد خزينتها قبل أن تغلق ، وهناك دفعت المبلغ وقفلت راجعاً إلى البيت وأنا أفكر فى غياب الصديق أبو بكر وأقول لعله لم يستطع جمع المبلغ كله .. ثم أعود فأرد على نفسى معاتباً .. ولكن لماذا لم يقل لى بالصراحة ؟ .. لماذا كاد يضيع على فرصتى الأخيرة ؟.. وقطعت سلسلة أفكارى عندما وصلت إلى البيت ووجدت المرحوم ابو بكر واقفاً منتظراً ومعه المبلغ كله ، وفوقه خمسة جنيهات ، وكأننى — عندما رأيته — صحوت من اغفاءة ، فقد كنت فى زحمة الجرى من أجل جمع مبلغ التأمين قد نسيت ماحولى ، والآن ، وفجأة ، أحسست بالمسئولية ، وتهيبتها .. ووجدتنى التفت إلى صديقى الحبيب وأسأله .. هل هؤلاء الناس الذين دفعوا لك يعرفون نصيبى الضئيل جداً من تأييد الناخبين فى الدائرة ؟ .. هل يعلمون مقدما أنهم يقامرون بنقودهم فى لعبة خاسرة بنسبة ٩٠ ٪ تقريباً ؟ .. إننى غير معروف فى الدائرة ، وليست لى عائلة ولا عصبية ، ولا أتحكم من طريق عمل أديره فى أصوات الناخبين ولا .. وقاطعنى الصديق أبو بكر ، رحمة الله عليه ، وقال : — هون عليك .. انهم يعرفون كل شىء . وهذه الظروف بالذات هى التى تجعلهم يدفعون بل ويتبارون فى الدفع .

وضحك وهو يلتقط أنفاسه ويقول مستطردا : أنهم ثوار الصالونات .. ألم تسمع عنهم ؟ .. إنهم حفنة ممن قرأوا عن الإشتراكية فسحرتهم ودرسوا فائض القيمة والثمن والربح فأحسوا أنهم أنذل طبقة ، الطبقة المستغلة التى تمتص دماء الفلاحين والعمال ، وهم الآن يحسون بلذة فائقة إذ يتبرعون بهذه المبالغ البسيطة التى لا تكاد تكفى شيء .. ولا لتغطية واحدة من سهراتهم المجنونة ، دون أن يتحملوا أية تضحيات ..

وعندما رآنى الصديق ما زلت أنظر إليه مستفهما قال : ألا تعرف خطورة ما أنت مقدم عليه ؟ .. أنك بهذه الإنتخابات التى تدخلها إنما تعرض حياتك نفسها للخطر ، أو تدمر نفسك تدميراً .. فهون عليك يا أخى .. ولا تقلق بالك بترهات ، وخيالات ..

وتأملت صديقى لحظة ، فهو ابن ذوات ، شكلا وموضوعا — رغم طيبته وإخلاصه — والده حمدى باشا سيف النصر وزير الدفاع فى حكومة الوفد ، وأحد أثرياء الفيوم ، وأمه من أسرة راتب الغنية التى كانت يوما تسكن قصراً من قصور عابدين والتى اشتركت أمها بدور ضخم فى ثورة ١٩١٩ .

واستعرضت أسماء من كانوا يؤيدوننا من تلك الطبقة ، جورج حنين ابن صادق باشا حنين، والسيدة « بولا » مطلقة فؤاد سلطان رابنة حامد « بك » العلايلى وكيل مجلس النواب إذ ذاك ، ومجدى وهبة ابن مراد باشا وهبة ، والمهندس تحسين المصرى ابن حسن نبيه المصرى باشا عضو مجلس الشيوخ . .

وأحسست أن القائمة ستطول إذا حاولت الإحصاء الدقيق !

وسرحت مع خواطرى وأنا استعرض الأسماء وأتساءل بينى وبين نفسى عن هذه المتناقضات فى الطبقة الواحدة ، أهى من علامات التفسخ ؟ . . أهى بشير بزوال نظام الطبقات من مصر ؟ . . وابتسمت إذ كنا قد اعتدنا هذه المظاهر ، فمحمد محمود باشا الذى كان يرأس الأحرار الدستوريين ، أو حزب البيوتات وأصحاب المصالح الحقيقية ، كما يسمونه ، أى حزب الأرستقراطية الأصيلة ، كان يتأرجح فى تصريحاته السياسية ، فمرة يقول فى عنجهية واضحة . . « أنا ابن من عرض عليه الملك ، فأبى . . » . إشارة منه إلى أن أبيه محمود باشا سليمان كان قد رفض تعيين الإنجليز له ملكا . . ثم يقول فى تصريح آخر مناصراً أزمة الأرستقراطية فى نادى الفروسية سنة ١٩٣٩ . . يقول لأحد الصحفيين وهو يركب سيارة فارهة أمد شارع الفلكى طولا وعرضا . . « أنا أفخر بأنى فلاح ابن فلاح » !

وما كان أشبه مجتمعنا المصرى فى ذلك الوقت بالمجتمع الروسى فى أواخر عهد القيصرية ، نعم ، فقد كان الأمراء والنبلاء هم الذين يتصدرون الكفاح ضد طبقتهم فخرج من بينهم ذلك البرنس الإرهابى الذى اغتال الراهب الفاجر

راسبوتين ، وخرج منه « برونشكين » الفوضوى ، الذى ظل يدعو إلى تحرير كل الشعوب من كل الحكومات . . وخرج من نفس الطبقة ، الشيوعى الخيالى . . الكونت تولو ستوى الذى وزع أراضيه الواسعة وأملاكه العريضة ، ثم مات من الجوع والبرد فوق أريكة من الخشب فى محطة سكة حديد !

وانتبهت من تأملاتى ، وأخذت أقص على صديقى كيف أنه قبل أن يقفل باب الإكتتاب جاءنى الكاتب المصرى الفنان البير قصيرى — المقيم الآن بفرنسا — وكانت له مجموعة قصص عن الحياة المصرية باللغة الروعة ، ولم يكن ينافسه إذ ذاك أحد ، ولكنها كانت مكتوبة باللغة الفرنسية وقد ترجمت بعضها إذ ذاك فى مجلة المنطور التى أصدرناها فى وقت ما . .

جاءنى إذن الفنان البير وقدم لى خمسين جنيها قال أنها تبرع من الملونير اليهودى « هنرى كوربيل » وابن خالته « ريمون أجيون » ، وقال أنه سيجمع مبالغ أخرى من أناس ذكر أسماءهم . . هنرأ هوارى . . جون متالون . . سوسو حزان . . شفارتز . . سلامون . . إلخ . .

قلت لصديقى إننى قاطعت الفنان البير وأنا أضحك وأقول : لا يا عم . . هذه الأسماء كلها أجنبية ومريبة ، وما جمعناه يكفى وزيادة (وقد ظهر فيما بعد أنها أسماء مشبوهة فعلا وقد استقر أغلبها فى إسرائيل باعتبارهم صهيونيين وكانوا قبلا يزعمون أنهم شيوعيين ، وقد قسموا أنفسهم إلى فرق ، فالبعض يزعم أنهم إشتراكيون معتدلون من أنصار الدولية الثانية . أى أقرب إلى اليمين . . والبعض يزعمون أنهم شيوعيون يحاربون المجتمع الطبقى . . وفريق ثالث يزعم أنه ماركسى من أقصى اليسار ، من أنصار تروتسكى) . .

وكان ذلك التقسيم مناورة مقصودة لامتصاص درجات الثورية جميعا . .

فهكذا كانت تعليمات المخابرات الإنجليزية التى كانت توجههم ويوجهونها . . وقد عرفت — فيما بعد — وبالصدفة ، أن أحدهم — جورج متالون — كان عميلا ، بل وخبيراً للمخابرات الإنجليزية فى الصين ثم استدعته إلى مصر فاحتل مكانه فى الشرق الأوسط ليكون خبيراً فى التخريب من الداخل — أى داخل المنظمات الإشتراكية التى ظهرت — وكان هو الذى اقترح تقسيم الصهيونيين التخريبيين على ذلك النحو الخبيث !

خبر من أربعة سطور !

ولنعد إلى الإنتخابات . . لقد دخلتها فى مقر سكنى . . فى المنطقة التى تضم حالياً بين جزء من دائرة عابدين (مثل شياخات البلاقسة ، والسلطان حسين ، والجزيرة الجديدة ، والسقايين) ، وجزء من دائرة السيدة (كشياخات خيرت والدوادين وسنقر) ، وجزء ثالث من قسم قصر النيل (مثل الإنشا ، والمنيرة ، والعينى ، والطيبى وجارهن سيتى ، والإسماعيلية) .

وقد بدأت الحملة الإنتخابية بخبر من أربعة سطور نشرته لى جريدة الأهرام عن نزولى الإنتخابات فى تلك الدائرة على المبادىء « الإشتراكية » !

ومع أن العبارة بسيطة وتتكون من كلمتين فقط ، ألا أن قارىء هذه الأيام لا يتصور ما أحدثته من فزع وما أثارته من ضجيج ، خصوصاً فى الأوساط التى كانت تحكم البلاد . . واهتزت أسلاك البرق والتليفون تتساءل عن هذا الذى جرى لأول مرة فى تاريخ مصر . . ووقف أحمد ماهر باشا حائراً لا يدرى ماذا يفعل وماذا يقول ؟ . . فقد سبق أن قطع على نفسه وعداً بألا يشطب كلمة واحدة من الإعلانات الإنتخابية بالذات ، إذ كان حزب الوفد قد تحداه أن تجرى الإنتخابات حرة فى عهد الرقابة والأحكام العرفية ، وهم ينتظرون غلطة واحدة منه تفسد دعواه ، ورغم أن مشاغل الناس كانت موزعة بين مئات الدوائر الإنتخابية على مستوى الدولة كلها ، إلا أن العيون كانت متجهة كلها إلى دائرتنا ، والألسنة كلها مسلطة على معركتنا ، فالناس فى طنطا مثلا كانت تتحدث عن هذه الدائرة بالذات ، وقد ثبت هذا حين إعتقال البوليس عدداً من الشبان فى إحدى مسيراتنا الإنتخابية ، فذكروا فى التحقيق أنهم من سكان طنطا وإنما حضروا ليساهموا معنا فى معركة دائرة محكمة السيدة .. وعشرات المراسلين الأجانب طاروا من بلادهم فى أمريكا ، وأوروبا ، بل ومن

السويد النرويج وأقصى دول الشمال .. جاءت بهم الطائرات ليشهدوا أول انتخابات يخوضها رجل من الشعب على المبادىء الإشتراكية، فى بلد يحتله الإنجليز، وينهب خيراته جماعة من الأفاقين، والرأسماليين الإحتكاريين، والإقطاعيين المتعفنين ..

وقد أعدت الحكومة عدتها وازدحمت الدائرة بأصناف المرشحين بلغ عددهم احد عشر، وكلهم من الزعماء المعروفين، كما كتبوا هم أنفسهم فى لافتاتهم .. احمد حسين زعيم مصر الفتاة، الظاهر حسن زعيم الطلبة سنة ١٩٣٥ .. المرحوم إبراهيم رياض زعيم الحزب الوطنى (كان كذلك ذات يوم) المرحوم عبد الحميد حلاوة، زعيم العمال، كما وصف نفسه فى لافتاته عبد اللطيف الأصيل زعيم الشباب، وأخيراً .. محمود كامل المحامى وقد وصف نفسه أيضا بأنه زعيم حزب مصر الفتاه .. الخ . وقد أطلق بعض الصحفيين والناخبين على دائرتنا اسم « دائرة الزعماء » وذلك على سبيل الدعابة والسخرية، ولكن هذا لم يمتص الإهتمام الأكبر والحقيقى بموضوع المبادىء الإشتراكية وكيف كان يقابلها الناس بالدهشة والارتياب والتحفظ فى بادىء الأمر كشىء لم يسمعوا عنه بالطبع أو لعلهم سمعوا عنه ولم يفهموه تماما، بينما كان أنصاف المتعلمين الذين يحاولون التظاهر بمعرفة كل شىء يتظاهرون بمعرفته، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت يشككون، أو يتهامسون، أو يسبون، أو يلعنون .. فمن جهل شيئا عاداه !

وكنا نعرف كل هذا بالطبع، ولذلك كنا نحاول أن نعامل الجميع بأكبر قدر من السماحة، وكنا نفتح باب المناقشة على مصراعيه أمام الجميع .. ولم نكن نضيق حتى بالذين نعرف أنهم يجيئون إلينا بقصد الهزء بنا، والإستخفاف بدعايتنا، حتى أن بعض شباب الفاشست ظنوا أننا نفعل هذا عن ضعف أو خوف، فجاءوا ذات يوم وضحكات السخرية المتكلفة بادية على شفاههم من اللحظة الأولى، وظلوا فى ضحكاتهم الرقيعة، بينما كنا نطيل نحن فى صبرنا، واحتمالنا، وكلما حاولنا إقناعهم بمسألة ماقالوا أنهم فهموها،

ثم عادوا يسألون فيها من جديد .. وكان أن نفد صبر البعض منا فقاموا وصفعوا الشبان الفاشست على وجوههم حتى تحطمت عوينات واحد منهم، بينما تبرأ منه زملاؤه، ومع أننى وبخت زميلنا الضارب، إلا أن النتيجة كانت عظيمة، إذ لم نر وجوههم بعدها، وأقبل علينا زملاء لهم ظلوا معنا إلى آخر الشوط آمنوا بمبادئنا وظلوا معنا بعد ذلك وإلى الآن، ويعتبرون من أحسن المناضلين، وفى مقدمتهم الأستاذ يوسف حمودة الذى عرض إذ ذاك أن يمثلنى فى لجنة الإنتخابات الموجودة فى جنينة ناميش على ما أذكر !

تحديث الدكتور ماهر باشا

وقد دعاني رئيس الوزراء إذ ذاك لحضور الحفل الذي يقيمه في مناسبة عيد الجلوس أو الميلاد الملكي، لا أذكر! وذلك في قصر الزعفران، فذهبت إلى هناك وقد ارتديت البدلة الزرقاء.. بدلة العمال.. وكنت أرمز بها إلى أني عامل وأني أناضل في سبيل العمال، وهناك أدخلوني القصر، قصر الزعفران، لكي يفوتوا على فرصة الإحتجاج لمنعي من الدخول لحضوري بدون الأسمو كنج والملابس الرسمية! ولكن الواقع أنهم أرادوا أن يحددوا إقامتي في القصر فقد احتجزوني في غرفة خاصة، وقالوا لي أن أحد كبار المسؤلين سيحضر للتفاهم معي، ولكني انتهزت فرصة الهرج ولذت بالفرار حيث عدت إلى الدائرة الإنتخابية، وألقيت في مقاهي الدائرة خطبة قصيرة وصفت بها ما حدث، وكيف أن المائة عائلة التي تحكم مصر تحتقر بدلة العامل الذي يصنع الحياة!

ووصلني أن الدكتور ماهر قال لبعض المدعوين في الحفل أنني لن استعيد قيمة التأمين الذي استدنته.. لأني لن أفوز بعشر الأصوات!!

وأترك للقارىء تفسير تلك النبوءة، أو فهم ما تنطوي عليه من تهديد!

ورددت على هذه الكلمات في إحدى المجلات، وألقيت القفاز في وجهه، وقلت انى اتحداه أن يفتح باب الترشيح من جديد حتى يمكنني دفع التأمين عن دائرة اخرى، هي دائرة الدرب الأحمر، وكان صاحب الدولة قد قرر أن ينالها بالتزكية بعد ذلك!

وهكذا.. كان يمكن أن تمضي الإنتخابات كلها في هذا التراشق، لولا إنني

صممت أن أجعلها معركة مبادىء وليست معركة أشخاص، فعدت أشرح للناخبين الاشتراكية وكيف أنها حل حتمى لمشاكلهم ولا بديل له، وكان يتعالى في كل مكان أخطب فيه هتاف «اشتراكيون رغم الأنوف»... وكان البوليس يقبض على بعض العمال وطلبة الجامعة ممن يرددون ذلك الهتاف. واذكر منهم الزميل محمد درويش. والمرحوم سيد قنديل المناضل النقابي المعروف والأستاذ نهيه أبو زهرة (طالب حقوق إذ ذاك والمستشار ورئيس المحكمة الآن) وكنت بدوري أذهب إلى القسم لإخراجهم. ووقف هذا الإرهاب رغم أني لم أكن محاميا بل كنت مستغلا في ذلك حصانة المرشح. وهي حصانة عرفية لا ينص عليها قانون، ولكنني كنت أواجه المعتدين على القانون فيجبنون ويتراجعون في الحال.. ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما قبض على جماعة من المتظاهرين المؤيدين للاشتراكية في دائرتنا. وكانوا من شباب مصر الجديدة ولما ذهبت لاخراجهم، أصر الضابط صلاح حلمي على عدم الإفراج عنهم، فقلت له: إذن فأنا معتصم هنا بالقسم ومضرب عن الطعام منذ الآن حتى تحضر النيابة لسماع أقوالي..

وأفرج الضابط عنهم في الحال. بل ومزق المحضر الابيض الذي كان قد تظاهر بأنه حرره!

وكانت التهمة دائما هي توزيع المنشورات، والمنشورات من طبيعة النشاط الانتخابي لكن الحكومة الرجعية لم تكن تحتمل مناقشة مشاكل المجتمع أو التعرض لأوجاعه، وكانت تريد منا أن نشتم المرشحين الآخرين أو أن أصف نفسي بأني خادم الفقراء ونصير العمال!

ولكن مظاهراتنا كانت تسير في الدائرة وهي تهتف.. «الأرض للفلاحين والمصانع للعمال»..

«الاشتراكية علاج لكل مريض وعلم لكل جاهل»... «الاشتراكية عدالة وحرية وتأمينات إجتماعية»... «تسقط المائة عائلة».. «العمال هم الطبقة الصاعدة»... «الحكم للعمال والمستقبل للعمال»...

وأردت أن اعرف الإشتراكية التي أرشح نفسي على مبادئها في كلمات سريعة

وتقضية ، فقلت فى أحد منشوراتنا . . . الإشتراكية تمنع الاستغلال . و تقضى على الأمية ، وتحارب الإقطاع ، وتقاوم الإستعمار ، وتناصر الفلاح وتحرر المرأة ، وتقضى على الإرهاب ، وتلغى الرتب والألقاب . . هـذه الإشتراكية هى التى يرشح نفسه على مبادئها فتحى الرملى » .

وقامت قيامة الأمن العام ، والسراى ، والسفارة الإنجليزية ، وهى الثالوث الذى كان يحاربنا بضراوة منقطعة النظير . فقد وصفـوا المنشور الصغير بأنه أخطر ماوزع ، وعللوا خطورته بأنه بسيط وشعبى ومباشر ومختصر . . وجاء البوليس إلى بيتى فصادر نسخه . وفى المساء فوجئت بضابط من قسم السيدة اسمه كال عبد المنعم يدعونى إلى الركوب معه لمقابلة مدير الأمن العام محمود « بك » عثمان غـزالى الذى يجلس فى انتظارى الآن بوزارة الداخلية ليتحدث معى فى تعليمات الوزارة بشأن حالة الأمن خلال الإنتخابات .

وقلت للضابط أننى سأذهب إليه بعد قليل . ورفضت أن اخرج معه وتظاهر هو بالامتثال لرغبتى ، وخرج ، ثم تحايل على إخراجى من المنزل بحجة أن بعض الناس يريدون مقابلتى خارج الدار . وما أن إبتعدت عن البيت خطوات حتى اختطفونى فى « بوكس » وذهبوا بى إلى وزارة الداخلية وكأنهم عصابة من عصابات شيكاجو !

ولم يكن مدير الأمن قد وصل بعد ، فخرج يقابلنى عمر « بك » حسن مدير القلم المخصوص ، ولما قلت له اننى مشغول كـكل المرشحين ، وان أى تعطيل لى سأحملهم مسئوليته . واننى لن اتهاون فى العبث بوقتى . . لم يهتز الرجل من هذا التهديد وإن كان مع ذلك قد اتصل امامى بمحمود غزالى مدير الأمن فى بيته وابلغه نبأ حضورى ورجاء سرعة المجىء لأن للرشح المطلوب يتعجله !

وما هى إلا برهة حتى جاء من يدعونى إلى مكتبة وكالعادة بدأ الحديث ناعما بعد إن قدم السيجارة والقهوة . . فسألنى عن الصحة والمزاج . ثم دلف إلى الموضوع . موضوع الانتخابات بالسؤال التقليدى . هيه .. وعامل ايه

فى الدايرة ؟ ، قلت له « عال » . . وعاد يسألنى . . . وهل لديك شكوى ؟ . . قلت . . لا . . ابدا . . فالشكوى لغير الله مذلة . . . وتجاهل ما فى كلامى من معنى . وما فى نبرات صوتى من مغزى ، كما انه لم يستطع إبقاء عينيه مغروستين فى عينى . واراد ان يطرق الموضوع الأساسى فوجه الحديث ناحية اخرى ، قال « لدى تقارير تقول انك ذكرت لزوارك العديدين فى بيتك بشارع مجلس النواب انك لا تنوى النجاح فى الانتخابات ولا تفكر فيه . وإنما تخوض المعركة الانتخابية فقط لكى تشرح للناس المبادىء الاشتراكية » .

ولما كنت قد قلت ذلك فعلا ، فقد اجبته مراوغا بعد ان فهمت غرضه . ومن يدرك ان هذا الكلام نفسه ليس فى حد ذاته عبارة عن دعاية انتخابية مباحة ومشروعة ؟ . . فالتكالب على الشىء لا يفوز به وبالعكس فالزاهد فيه يناله بسهولة اكثر !

فعاد يسألنى بشىء من الحزم المصطنع : لكنك تدعو للشيوعية . . كدة وإلا لأ ؟ .

قلت : انا ادعو للإشتراكية . . اما الشيوعية فلا يدعى لها . ولا تتحقق بالجرائد الحزبية ولا بالمعارك الانتخابية ، إنما العمل للشيوعية فهو ذلك الذى وصفتموه انتم أنفسكم فى قانون العقوبات حيث حددتم انه (القوة والإرهاب والعنف) ، كما وصف المشرع هذه المبادىء الشيوعية فقال فى المادة ١٧٤ أنها (كمبادىء لينين) كما أن الشيوعيين قد وصفوا طريقتهم فى العنف بأنها مثـل « عملية جراحية للمجتمع » .

وتلعثم مدير الأمن العام وهو يرد على كلامى : . . على كل حال ليس عندى وقت لهذا الكلام الفارغ ، لا للإشتراكية ، ولا الشيوعية !

قلت بهدوء لرجل هذا تفكيره : عظيم . . فلنترك هذه المسألة إذن لرجال القانون والمشرعين . . ولنقل لرجال البوليس من مرؤوسيك أن يسألوا ويدرسوا قبل أن يتعرضوا للناس فيما لا يفهمون فيه !

وبدا من احتقان وجهه أنه استشاط غضبا ولكنه تمالك أعصابه وقال :

ـ أنا عارف إشتراكية أيه فى بلد جلالة الملك فيه يقيم طول شهر رمضان مأدب للفقراء . . وفاتح أبواب قصره لكل من يريد أن يسمع القرآن ؟ . .

ولم أرد . . وبدا كما لو ان سكوتى وعـــدم ردى قد اغرياه . . فنظر إلى مليا وقال :

ـ يا استاذ فتحى . . يبدو أنك راجل عاقـــل وابن ناس . . لذلك . . فسوف اساعدك فى الإنتخابات حتى تحقق هدفك منها .

قلت له بسخرية هادئة : أفهم من هذا انكم ، ستطبخون ، الإنتخابات ؟

وصاح دون أن يفهم أبعاد العبارة التى قلتها :

ـ انا ماقلتش كده . . إنما الانتخابات خطط ومناورات وشىء بعيد جداً عن الخطب و ، المناشير ،

قلت متساذجا : هل هناك وسائل أخرى ، يا غزالى بك ؟

قال مرتاحا إلى سذاجتى المصطنعة :

ـ قلت لى ! الإنتخابات هى تذاكر انتخابية قبل أى شىء آخر . . ونحن على إستعداد لأعطائك أى عدد من التذاكر الإنتخابية تملأها انت بمعـــرفتك وتوزعها على معارفك واصحابك !

واستغرق فى الضحك وهو يقول موضحاً :

ـ أعرف مرشحين كانوا ينقلون أسماء المتوفين إلى رحمة الله من دفاتر الصحة والله !

وأردت ان أعرف بقية « الطرق » ! التى بدت غريبة فى نظرى فقلت : هيه . . وماذا أيضا ؟

قال وقد سره أن المناقشة أصبحت مريحة لأعصابى كما توهم !

ويوم الانتخاب سأختار لك عددا من اللجـــان الانتخابية التى لا تعاند ، ولا تعمل أزمات ، وتكون عواطفها منك !

وتظاهرت بعدم الفهم ، ورحت أردد . . أزمات ؟ . . وتعاند ؟ . . . وتعاند ليه ؟

قال وهو يضحك ويربت على كتفى : حتى لا تعطل اعمالك ، وتظل تدقق وتحقق مع كل ناخب !

ثم استطرد بعد هنيهة : أما ماهو أهم . . فهى النقود . . الأموال التى ستنفقها على المعركة !

وأشار إلى الخزينة الموضوعة وراء مكتبه . . هى الفلوس دى بتاعتى ؟ . . آهى كلها للمحافظة على الأمن العام ! خذ منها ما تحتاجه ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، ٧٠٠

وقلت له ضاحكا : وكل هذا مقابل إيه ؟

وأجاب مرتاحا وهو يضحك أيضاً : ٣ مقابل ٣ . . مقابل ان تمسح كلمة الاشتراكية من جميع لافتاتك وإعلاناتك .

قلت: واكتب بدلا منها إيه ؟ . . مرشح الهيئة السعدية مثلا ؟

قال : لا . . ابداً . . الهيئة السعدية مش ناقصة ، اكتب مرشح العمال خادم الفقراء . . ابن دائرتكم . . الحبيب إلى قلوبكم !

وتابع الرجل حديثه قائلا : تانى حاجة تحـــاول غسل ما لطخت به جدران الدايرة من كلمة الاشتراكية ، وكتابة شعارات جديدة غير هذه الكلمة « القذرة » !

وتضع صورة جلالة الملك فى صدر إجتماعاتك العامة او فى فناء البيت ، على ان تبدأوا الاحتفال وتنهوه بالهتاف لجلالته ثلاثا ، وأنتم واقفين وبمنتهى الإحترام !

وانهى حديثه قائلا : أما ثالثاً . . فعليك بطرد الأولاد المتطرفين الى بيجوا بحجة المساعدة ، وهم الحقيقة مش حيوصلوك للنيابة عن الأمة ، دول راح يوصلوك للنيابة العمومية . . بعد الشر يعني ! اعقل يا راجل . . اعقل !

والتفت « غزالى بك » إلى الخزينة وفتحها بطريقة مسرحية وهو يقول ليهر اذن قبل ان يهر عيني : يلزمك كام النهاردة مبدئياً ؟

وقلت له دون أن استفزه أو أفقد هدوئى ، وإن كنت أشعر فعلا بغضب حقيقي : قد لا تصدق أنى احتقر المال رغم فقرى ، إذا كان وسيلة لشراء الذمة والضمير ! كيف تقبل على نفسك أن تشترى منى مبادئى بكرسى البرلمان أو ببضعة ألوف ؟ . . اتق الله يا « غزالى بك » فى إفساد ضمير شاب ، وتلويث شرفه ، وإهدار كرامته . . وآسف لأنى مضطر لهذا الكلام !

وهب بدوره واقفاً بعد أن استمع إلى هذا « الدش » البارد الذى القيته عليه وصاح فى وجهى بأعلى صوت — يعنى كنت « بتسرح » بى من الصبح . . وانت قاعد تبتسم ، كأنك فهمت كلامى . . أتاريك بتضحك على ؟ . مش كده طيب اسمع بقى . . من النهاردة مفيش منشورات . . مفيش ملصقات . . مفيش إجتماعات . . مفيش مظاهرات . . مفيش مرور على القهاوى حنضغك بالقوة !

اتفضل . . اتفضل . . اتفضل !

وخرجت من عنده ، وكان آخر ما فعله أو آخر ما سمعته يفعله هو أنه طلب حمدى « بك » وكيل الحكدار بالمحافظة تليفونيا يبلغه الأوامر الجديدة !

مفيش منشورات . . مفيش مظاهرات . . مفيش إجتماعات . . مفيش مرور على القهاوى !

وعدت ، ولم تكن المسافة تزيد على عشر دقائق على الأقدام من وزارة الداخلية إلى بيتى ، ولكنى فوجئت بلورى ضخم ينزل منه عشرات العساكر بالخوذ والبراوات ويدخلون البيت لإخراج من فيه وقيادهم إلى قسم السيدة

زينب ، ولكن الموجودين ظلوا يهتفون رغم القيود الحديدية التى وضعت فى أيديهم طول الطريق ، دون أن يحرؤ رجال البوليس على ضربهم فكأن البوليس كان يحرسهم فى تلك المسيرة التاريخية التى لا ينساها إلى اليوم أهالى حى السيدة وعابدين !

ذلك أن أولاد البلد توجوا موكبنا التاريخى بتوزيع الملبس والشربات احتفالا بنا على طول الطريق من عابدين إلى الناصرية إلى السيدة زينب من جيوبهم الخاصة مما جعل الجنود والضباط يخجلون ، ويتغاضون حتى عن الذين وقفوا يلقون الخطب الملتهبة ضد السلطة من فوق سلالم قسم البوليس !

وبلغت الساعة الخامسة ، ووقف مؤذن مسجد السيدة زينب يدعو لصلاة الفجر ، حين تفضل الضابط النوبتجى وسمح لنا بالانصراف إلى منازلنا .

وخيل إلى أننا انتصرنا فى الإنتخابات — قبل أن تتم — ولم يبق إلا أن تعلن ، ولم أكن أحلم ، ولكنها كانت حقيقة ، عرفها كل من كان معنا فى تلك الليلة ، ويكفى أنها لم تمح من ذاكرة الحى كله ، رغم مرور أكثر من ٢٨ سنة بالتمام والكمال . وللمنصف الذى يستطيع أن يقرأ سطور التاريخ الحقيقى للاشتراكية فى مصر . .

لقد ولدت الإشتراكية فى مصر فى تلك الليلة . . ليلة ٢ يناير سنة ١٩٤٥ !

إعلان الحرب على الإشتراكية !

ومرت أيام وأزفت المعركة الإنتخابية ، وكان علينا أن نقيم سرادقاً كبيراً لكل المرشحين ، وقد اعتزنا أن نقيمه قبل موعد إجراء الإنتخابات بيومين . وكان سرادقا يتسع لأكثر من خمسة آلاف ناخب .

وجاءنى الضابط صلاح حلمى يطلعنى على خطاب « سرى وعاجل جداً » موجه لمأمور القسم من مدير الأمن العام وفيه يقول أنه بلغهم أن فتحى الرملى المرشح بالدائرة سيلقى خطابا فى الإجتماع الذى سبق التصريح له بإقامته وأنه سيتكلم فى خطابه عن الإشتراكية . وعلى مأمور القسم أن يتأكد منه . فإذا كان ينوى

الكلام فى هذا الموضوع حقا . فإنه يجب منع الإجتماع بالقوة مع صرف الجمهور بالحسنى إذا أمكن ، وإلا فبالقوة !

واكتفيت بقراءة الخطاب دون أن أعلق عليه ، فسألنى الضابط . . هل سأتكلم عن الإشتراكية فى خطابى ؟ وكان يجب أن أرد . فقلت له أن المرشحين جميعا قد أقاموا سرادقات فلم توجهوا إليهم سؤالا . . فلماذا أنا فقط يوجه لى مثل هذا السؤال ؟

وأردفت : أما عن خطابى فسأرتجله دون أن أعرف شخصياً ماذا سأقول بعد ، وعليكم أنتم متابعتى . . فإذا وجدتم فى كلامى شيئاً يتعارض مع القانون فلكم أن تمنعوه بطبيعة الحال !

ولم تكن إجابتى هذه شافية للضابط أومطمئنة . فأبلغ مسئوليه الذين عبأوا قوات أمن لا حصر لها . . ألوف . . وقفت بخوذاتها على أهبة الإستعداد . حتى كأن المكان قد تحول إلى ميدان حرب حقيقى . . وكان منظر البوليس يفزع الناس . ورجال الشرطة الواقفون فى الناصرية — بكل أدب ! — يطلبون من الجماهير الآتية من جهة الناصرية أن تلف وتدخل من شارع مجلس النواب . والواقفون من ناحية مجلس النواب يطلبون من الجماهير الآتية من شارع مجلس النواب — بنفس الأدب — أن تلف وتدخل من جهة الناصرية !

ووقفنا ننتظر السامعين دون أن يجرءوا على الدخول من هنا أو من هناك ، واقترح أحد زملائنا العمال — وهو الزميل طه من عمال النقل حاليا — أن يذهب بنفسه من أحد الجانبين ويقتحم مع الجمهور السرادق . على أن يفعل الشىء نفسه زميل ثان من الجانب الآخر فى نفس اللحظة حتى تفسد على البوليس خطته . وتطوع الأستاذ لطف الله سليمان . وهو من العمال المثقفين أيضا — كان فى بيروت حتى وقت كتابة هذه الإعترافات — وما إن فعلنا . . حتى هجم الجمهور الذى كان متردداً من الخوف واكتظ السرادق بالناس . بل لقد ضاق بهم رغم ضخامته . . وبدأت خطابى فى ذلك اليوم بالتنديد بمن

تزعجهم « الكلمة » . ويخافون منها فيهاجمونها ويتصدون لها بالرصاص . . ثم قلت للجمهور[1] . . أنظروا هؤلاء الألوف من الجنود المدججين بالسلاح . واعلموا أنكم أقوى من أعدائكم لأن عندكم كلاما أقوى من الديناميت والرصاص . ولو أنهم قبلوا أن تتراشق أسلحتنا مع أسلحتهم . وارتضوا أن يجعلونا نقول كلمة مقابل كل قذيفة . لعادوا ونكصوا لأنهم يعلمون جيدا أننا سوف ننتصر . . لقد جاءوا اليوم ليصرعونا بأسلحتهم قبل أن نلوح نحن بسلاحنا وهو « الكلمة » . . وقد سبق أن أنذرونا بالفعل وطلبوا إلينا ألا نتكلم وإلا . . ! وهذا الإرهاب لا نرضاه ، ونحن أيضاً لا نعبأ بتهديد حكومة المائة عائلة وهى تقف أمامنا عاجزة تدجج نفسها بالبنادق والمدافع الرشاشات . ومع ذلك ترتعش . . يا لجبن المائة عائلة !

كم زعمت أنها قوية . وكم زعمت أننا نحن الشعب أضعف من أن نجرؤ على الوقوف أمامها وجها لوجه . وها نحن نتحداها الآن . . أن يتركونا نقول كلاما لا أكثر ولا أقل . . كلاما هم أول من يعرف أنه سيفجر ثورة الشعب الثائر ويكشف عن غضبه الرهيب . . وهم لأنهم يعرفون ذلك فإنهم يتجنبون الصدام معنا نحن الذين نعرف مفاتيح السخط ونعرف خزائنه فى صدور الجماهير !

لقد سألونا ضمن ما سألونا . . هل ستتكلمون عن الإشتراكية ؟ . . فقلنا أننا لا نعرف بعد فأنتم الشعب وحدكم أصحاب الحق فى الرد على هذا السؤال . . فلكم أن تأمرونا أن نتكلم . . فنتكلم . . ولكم أن تطلبوا إلينا أن نسكت . . فنسكت . . أن من حقكم أن تسمعونا وتستجيبوا لهذا الذى ندعوكم إليه أو لا تستجيبوا . . ولكننا نريدكم أيضا أن تقولوا لنا . هل أنتم على استعداد للرد على رصاصهم وبنادقهم إذا رأوا أن يهاجمونا مبتدئين ؟ . . هل أنتم على إستعداد للدفاع عن حقكم فى الإستماع والإجتماع أم أنكم ستفرطون فى هذا

---

(١) أرجو من قارئى العزيز ملاحظة أن هذه الكلمات كانت عام ١٩٤٥ أى من حوالى ٣٠ عاما وكانت هذه المعانى جديدة تماما ولم تبتذل كما هو حادث اليوم .

الحق ؟ . . وهل أنتم على استعداد لحمايتنا إذا رأيتم أنهم يحاولون خنق أصواتنا قبل أن ترتفع ؟

وصرت الحماسة بين الجماهير . وراحوا يتصايحون والغضب ظاهر فى اصواتهم التى ارتفعت تقول . . تكلم . . تكلم . . حدثنا عن الإشتراكية !

واشرت براسى . . ان نعم . . سأتكلم . .

وتكلمت فقلت . . فى مصر مائة عائلة يعز عليها ويقض مضجعها ان تفكر الطبقة العاملة فى حكم نفسها . ومنذ نزلنا إلى هـــذه المعركة باسم العمال . وبقروشهم . وبإرادتهم . والمائة عائلة اصابها مس من الجنون . وها هى تشن علينا حربا لا تعرف هوادة ولا لينا . . صادروا منشوراتنا . . اعتقلوا زملاءنا . منعوا مسيراتنا واجتماعاتنا . . وها انتم ترونهم وقد حشدوا جموعهم، بوليسهم ليعلن علينا الحرب فجأة وبلا إعلان مسبق !

ولم تحتمل اعصاب البوليس — فى عهد صاحب الجلالة ! — اكثر من هذا . وكانوا قد أتوا بعمال مخازن الفراشة وأمروهم ففكوا خيمة السرادق بدءوه من الخارج ونزعوها فجأة . فظهرت عروق الخشب وحدها فى الخلاء . . وارتفعت أصوات قائد الفرقة وهى تأمر بالإنقضاض علينا بالمسدسات ، بينما انهمرت الرصاصات الطائشة وانقضت الهراوات على الجماهير المستمعة . . ورغم المقاومة الجبارة التى لقوها من الجمهور إلا أنهم تمكنوا منا لضيق المكان . . وأصرت الجماهير كلها تقريبا على أن تذهب معنا إلى النيابة . وقد باتت تلك الجماهير ليلتها حول قسم السيدة ، وفى الفجر وقد أخذت أكثر المنتظرين سنة من النوم ، أطلق سراحنا . . نحن الذين كنا نجلس على المنصة . . الفنان الخالد رمسيس يونان . والكاتب المعروف لطف الله سليمان . والمناضل الثائر أنور كامل . والمرحوم بكر حمدى سيف النصر . والسيدة إقبال العلايلى . .

وأنا بالطبـــع !

ولم تكن فى هذا حق أو متوددين . . بدليل أن البوليس نفسه لم يجد

— رغم استفزازنا له — ما يجرم به سلوكنا أو يأخذ علينا ما يقنعه برفع الدعوى علينا بأى تهمة وكنا — قبل إطلاق سراحنا — قد أوفدنا الأستاذ مجدى وهبة . والأستاذ إسماعيل صبرى . والسيدة سعاد زهير . للتفاهم بالحسنى مع وكيل الداخلية حينذاك حسن فهمى رفعت « باشا » الذى ادعى أن هذه مسألة لا تدخل فى اختصاص عمله . وإنما هى من اختصاص زميله الوكيل الآخر بدوى خليفة « باشا » . . هذا رغم أنه كان من المعروف للجميع أن الشيء الوحيد الذى يدخل فى اختصاص بدوى خليفة هو شئون العمد ومشايخ البلاد !

واستطاع حسن فهمى رفعت ان يجر مبعوثينا إلى الحديث من الاشتراكية .. وبعد أن استمع إليهم قال . . لا تفعلوا . . واذكروا دائما . . إننى كنت على رأس بعثة زارت روسيا سنة ١٩١٣ وتعلمت عن البوليس القيصرى كيف تكافح هذه المبادىء الهدامة !

وعندما عادت البعثة ، وروى لى الأخ « نهد ابو زهرة » الطالب بالحقوق حينذاك تفاصيل ما قاله وكيل الداخلية قلت له ؟ ولماذا لم تسأله . . وما مصير أساتذته الذين علموه مكافحة الشيوعية ؟ !

وقد خرجنا منتصرين من تلك الإنتخابات ، فقد عرفنا مدى إقبال الشعب على مبادىء الغد . . وأحسسنا بالنبض الاجتماعى . وفهمنا وادركنا مدى وعى طليعاتنا الكادحة . .

اما عن التذاكر الانتخابيـــة ، والتزوير ، وجر الناخبين بالرشاوى ، والعقراء بالتضليل . .

اما المناورات الانتخابية ، والقمع ، والإرهاب . . فذلك شيء لانعرفه ، ولن نعرفه !

حاجى بابا المصرى !

إنتهت الإنتخابات العامة ، وراجت الصحف تكتب عنى ، بل وعن زوجتى

وأولادى ، ونشطت بعضها فى عمل أحاديث معى ، واستكتبنى خاطرات وذكريات ، مجلة الإثنين تسألنى ، لماذا سميت إبنك لينين ؟ ، وتحقق مع زوجتى بشأن سفرها باريس ، والأيام التى قضتها فى فرنسا . . ومجلة نداء الوطن تسألها . . كيف اخترت زوجك . . وكيف تعيشين معه ؟ . . ومسامرات الجيب تسألنى أن أحكى لها عن مغامراتى مع البوليس وكيف دوخته ، ومجلة نداء الحرية تنشر كيف أن لينين ابنى من نسل النبى ويتقاضى من نقابة الأشراف خمسة قروش كل عام .. وجريدة الاسبوع تترجم حياتى مع المهتمين بالإشتراكية . . ومجلة الشعلة الوفدية تستكتب الأستاذ الكبير سلامة موسى فيعقد فصلا كاملا يستغرق أكثر من صفحة فى حجم الجرائد اليومية يستعرض فيه شيئا من كفاحى ، ويقول . . هذا هو نموذج العائلة المصرية العصرية التى تفخر بها البلاد ، إنهما فتحى الرملى زوجته !

وأجلس يوما بين أكوام الصحف والمجلات التى تكتب عنى ، وأضع نفسى مكان القارىء . فكيف أجد الصورة التى رسمتها لى ؟

صورة بطل أسطورى يفعل المعجزات فى مغامرات لا تنتهى مع البوليس ومع الأغنياء ، يريد أن يصل إلى شىء . فيقع مرات فى فخاخ السلطة ، والسجان التى تعدها له فى كل حين ، ولكنه لا يلبث أن يضحك عليها ويفر من تدبيراتها !

وأحسست فجأة بالغم والإنقباض . هذه الأجهزة المشبوهة فى أساليبها الاعلامية . كأنما أرادت بهذه القصص والكلمات أن تضفى على نضالى طابعا فرديا . بينما كنت أعمل ضمن مجموعات من الشباب . وما كان لى أن أحقق نصرا إلا بهم . وبجهودهم وتضحياتهم . . وقد زاملونى فى كل لحظة . وفى كل خطوة من خطواتى . وإذا كانوا قد شاءوا أن أكون واجهة لهم . أو أن أظهر وحدى . ويختفون هم . فتلك كانت إرادتهم فى تلك المرحلة من كفاحنا ونضالنا الثورى . وقد كنت أحاول ما استطعت أن أكون خير معبر عما يريدون . وقد نجحت أحيانا واخفقت احيانا اخرى بطبيعة الحال . كما كنت

اتمرس بإرادتى الشخصية وتفكيرى الذاتى . ولكن فى حدود ما استشعره من أنى اقوم بتمثيل زملائى .

حدث ذات يوم من سنة ١٩٤٦ إن كنت اسير امام مقهى إيزائيفتش بميدان الإسماعيلية (التحرير الآن) فنادانى احد روادها وهو يجرى ليلحق بى . وتوقفت انا بينما اقترب هو وصافحنى وقال انه يرجو استشارتى فى موضوع هام !

قلت وانا اسير معه إلى المقهى : خير إن شاء الله . .

قال : اولا . . انا احمد عصفور . . واحسبك لا تعرفنى . . ولكننى انا اعرفك واسمع عنك !

قلت : العفو . . العفو . .

قال : لا عفو ولا حاجة . . المهم اننى اريد ان اعرض عليك مشكلة مائة الف عامل من العمال المتعطلين . . انهم جيش ضخم من العمال الذين كانوا يعملون فى الورش الإنجليزية وسرحوا فجأة من سلطات الاحتلال وأبديت أسفى لحال العمال المساكين ، ونظرت إلى الزميل عصفور نظرة معناها . . لقد ألقيت على كتفى عبئا ثقيلا . بينما انا لا استطيع ان افعل شيئا . فأنت تعلم كم انا فقير !

وقال عصفور بقوة . وبذكاء ومرارة معا : اعرف ما تفكر فيه ، ونحن لا نستشيرك من أجل أن تنعم علينا بمال لا تقدر عليه ، لكن أملنا كبير فى عقلك . . أنه أكبر ثروة وأعظم غنى . . فكر معنا ، فلا شك أنك لن تلبث أن تخرج علينا بحل ، إنك حلال المعضلات !

وخجلت لهذا الأطراء ، وقلت باستحياء وانا أضحك : مادام الأمر كذلك ، فهناك الحل الطبيعى ، والأسهل والأيسر فى نفس الوقت .

ياصديقى . . مادمتم كما تقول جوعانين ، ولا تجدون لقمة تبلغون بها ، فليذهب منكم اليوم وفدان أو ثلاثة إلى بعض المطاعم العادية ، وتناولوا غداءكم أو عشاءكم !

وقال عصفور وهو يفغر فاه دهشة : ولكنى قلت لك أنهم لا يملكون حتى هذه القروش القليلة !

قلت : خلاص . . لا يستدين المفلس حتى تواتيه فرصة لرد دينه ؟ . . أذهبوا وكلوا بالنسيئة — أى بالشكك — ولا تخشوا شيئاً ، فإذا سألوكم عن ثمن الطعام ، قلتم لهم أنكم ستدفعون ساعة ميسرة .

قال وهو يضحك : وإذا استعانوا بالبوليس ؟

قلت : لن يفعل البوليس لكم شيئاً ، فالقانون أرحم من أن يفتح السجون لمتعطلين أرادوا أن يأكلوا ويدفعوا ثمن طعامهم وعـــدا بالسداد متى انفرجت الأزمة .

وتهلل وجه أخينا عصفور وهو يصافحنى ويقول : ألم أقل أنى سأجد لديك حلا . . الليلة سنجرب الأكل على الحساب !

وجلست أرقب الحالة من بعيد ، فإذا أخبارهم تصلنى بأنهم ذهبوا إلى كبابجى بحى الأزبكية ، وبعد أن أكلوا تقدم لهم الجرسون فقالوا له : نحن عمال متعطلون عن العمل ، وعندما تلحقنا الحكومة بأعمال سترد لك أن تقودك من أجورنا !

واستغاث الرجل بالبوليس ، فحضر إليهم مأمور الأزبكية الذى لم يجرمهم ، واكتفى بأن رجاهم أن يأكلوا فى المرات القادمة فى أحياء أخرى كالسيدة زينب وعابدين والجمالية والخليفة ، حتى تتوزع المسئولية على كل أقسام البوليس ! وراح يشرح لهم أهمية هذا التوزيع لنشر قضيتهم فى مساحة أكبر .

عرفت هذا من الصحف ومن بعض الناس ، ومن عصفور أيضاً بعد يومين عندما جاء يسألنى . . والزملاء الذين لا يجدون مأوى بعد إن صدرت ضدهم أحكام طرد بسبب تأخرهم فى دفع الإيجار . . ماذا يفعلون ؟

قلت : نفس الشىء يا أخى .. أليس فى البلد لوكاندات ؟ .. فلتدفع حكومة

السعديين أجر المبيت ما داموا هم لا يستطيعون . . تلك هى وظيفة الحكومة فى هذا العصر ومسئوليتها . . أن تتكفل بعلاج كل مريض ، وتغذية كل جائع ، وإيواء كل مشرد ، وتعليم كل أمى !

وقد كان لهذه العملية صداها العميق وضجتها الكبرى ، وردت الرجعية على ذلك بالعمل بسرعة ، إذ استصدرت فى غيبة البرلمان ، وفى عطلته الصيفية ، قانوناً يعاقب بالحبس والسجن كل من يأكل طعاماً ولا يدفع ثمنه فى الحال ، وكل من يبت فى فندق ولا يحاسب فى اليوم التالى !

كنت منطقياً إذن حين اخترت البرلمان سبيلا إلى وقف أمثال هذه القوانين وإلغاء قوانين أخرى ظلت قائمة منذ عهد الاحتلال كقوانين المطبوعات . وهى قوانين متوحشة بمعنى الكلمة !

معذرة . . فلم أكن حقاً إذن عنـــدما استهترت بالإنتخابات فلم اهتم بها قط ، إذ كان كل هدفى — كما قلت — هو التعريف بمبادئنا لا أكثر ولا أقل !

* * *

وأعود فأقول أن أساليب الشكك ، هذه قد تطورت إلى أساليب أكثر خطورة وجرأة ، فإن بعض الزملاء الغاضبين على سوء الحال ، اقترحوا أن يلجأ الزملاء المتعطلين إلى التعبير عن احتجاجهم بوسائل أخرى ، كأن ينتزعوا المال الحرام من على موائد القمار فى الأوبرج وغيره ، حيث كان الملك يسهر كل ليلة ، بل أن ينتزعوا المجوهرات واللآلىء من فوق صدور الأميرات ومن إليهن حيث كن يسهرن إلى الصباح فى قصر الأميرة شويكار ، فإذا حاول أحد أن يستردها منهم بالقوة قالوا له : هذه دموع أطفالنا ، كما أن هذا الويسكى الذى تشربونه هو عرقنا ودمنا .

وكانت عيونهم تلمع بتلك الإرادة الشعبية الصلبة ، وهى تنبعث من العيون شرراً متطايراً ، ولكنى قلت لهم وأنا أكاد أدمع لفرط تأثرى : أن هذه

الأعمال ان تؤتى ثمرتها إذا لم يتم نضج الظروف المناسبة لها ، وأن بين الطيش ، والهوس ، والجنون ، وبين الثورية الواعية الحقيقة خيط دقيق الويل لمن لا يفهمه أو يزنه .

أن الثائر الحقيقى لا يكون عادة أول المندفعين ، ولا أجرأ المغامرين ، وحتى فى الكلام ، تجد الثائر دائماً هو أقل الجميع كلاماً ، وأكثرهم تنظيماً وتخطيطاً ، فإذا أقدم ، كان أقوى الجميع تصميماً وأوفرهم حماسة وأكثرهم شراسة . . ذلك هو البطل الذى لا يتراجع ولا ينهزم ، ولا يقبل التسليم .

قلت للزملاء الغاضبين لى ذلك اليوم : ليس الآن . . ولا قبل أن تنظموا صفوفكم ، وتستعدوا للمعركة التى يصفى فيها الشعب حسابه مرة واحدة مع طائفة اللصوص والمتصبين ، وقد تم ذلك فعلا ، ولكنى بطريقة شرعية وقانونية ، وعلى مرأى من العالم أجمع .

واذكروا تلك الثورة العظيمة التى بدأت ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وأثبتت مع الزمن أنها فى حاجة إلى حراسة شديدة لوقف مراكز النفوذ التى انحرفت بها لمصلحتها ، ثم اذكروا تصحيح مسار الثورة فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بإعادة الحريات للشعب ، ثم اذكروا أخيراً أن الشعب — فى هذه المرة — هو الذى يجب أن يتولى حماية الثورة الجديدة حتى تحقق كل أهدافها ، ولو كره الحاقدون على العمال والفلاحين لعلمهم ان ما سوف يحققوه سيكون أعمق ، وأكثر . .

الجبهة الاشتراكية

كنا نتصور أن الجبهة الاشتراكية التى أنشأناها أيام المعركة الإنتخابية من العاطفين على الاشتراكية سوف تنتهى فور إنتهاء المعركة ، ولكن الجماهير التى التفت حولنا اعتبرت ذلك نقطة انطلاق لمشوار طويل من الكفاح لتحقيق ذلك الأمل — الاشتراكية — الذى أصبح لديهم حلما عزيزا غاليا ، وأصبحنا محاصرين بأنصار الفكرة والذين آمنوا بها حديثاً !

واصبحت شخصيا لا أذهب إلى عملى فى آخر ساعة — إذ ذاك — إلا لأجد أربعة أو خمسة أو أكثر ينتظرونى أمام الباب ، أو فى المقهى الكائن فى أسفل عمارة بحرى بميدان التحرير ، يحضرنى منهم الآن الزميل أحمد طه عضو مجلس الشعب عن الساحل ، ولا أكاد أعود إلى البيت إلا لأجد عدداً أكبر ينتظرنى فى المقهى المقابل له ، وكان الكل يطلبون مزيداً من الدراسات عن الاشتراكية وكانت تلك الدراسات ممنوعة بحكم القانون ، وكنت أعرف مقدما أن بين بعض هؤلاء الذين يطاردونى عدد من الجواسيس ; مندوبى القلم المخصوص بوزارة الداخلية أو القلم السياسى بالمحافظة ، وإن الهدف من محاولاتهم تلك أن يوقعونى فى المحظور !

ومع ذلك فقد قررت أن أفتح بابى لعـدد كبير منهم وأن أزور البعض فى بيوتهم لهذا الغرض ، أو بالقليل أرسل لهم عدداً من الكوادر الذين يعملون معى كالأستاذ المرحوم شكرى النقادى والصديق فوزى المصرى وسعد الدين الهداوى وغيرهم . .

وانتهز الصهيونيون فرصة انشغال البوليس المصرى بنا ، فشكلوا فى ذلك الوقت عدداً كبيراً من التنظيمات ، أطلقت على نفسها أسماء منظمات اشتراكية ، بل وشيوعية أيضاً !

وقالوا أن الاشتراكية والشيوعية صنوان بل هما توأمان لا ينفصلان ، ووضعوا على رأس كل منظمة « خواجة صهيونى » ، فهذه يتزعمها هنرى كوريل ابن المرابى المعروف دانييل نسيم كوريل ، وتدعى « الحركة المصرية » التى ما لبثت أن تحولت إلى « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى » !

وتلك تدين بالزعامة لصهيونى آخر هو شوارتز وقد سماها « أسكرا » ، أى « الشرارة » . . وثالثة تدعى « نحشم » ، أى نحو حزب شيوعى مصرى . . ورابعة تدعى « ششش » وهو اختصار كلمة منظمة مصر الشيوعية ، ويرأسها الصهيونى « سلامون سيدهم » ، وقد بلغ من قدرة الأخير فى التسلط على أعضاء

منظمته أنه كان يأمرهم بعدم مكالمة زملائهم وأن يخصموا آبائهم ، فيرضخون للأوامر !

وهناك كان أيضاً الخواجات الصهيونيون أيلى ميزان ، وسوسو حزان ، وعذرا هرارى ! .. وأخيراً ذلك الصهيونى الفرنسى « جاكيه دى كومب » ويدير منظمة « دنش » وتعنى الديموقراطية الشعبية . وكانت كل منظمة تضم أربعة أو خمسة صهيونيين ، وربما كان من أعضائها أيضاً مصرى واحد أو مصريان هو الذى توفده إلى الجبهة الإشتراكية مثلا لتضللنا عن حقيقتهم والزعم بأنها حركة تضم عدداً كبيراً من المصريين ، ولكن سرعان ما كشفوا بأنفسهم من هذه الحقيقة ، فقد حاولوا أقناعنا بتحويل جبهتنا إلى سرداب من « سراديب » تآمرهم بحجة أن العمل فى وضح النهار يعرض الحركة لهجوم الحكومة الملكية الرجعية وأجهزتها الارهابية لقمع الأحرار . ولكننا — نحن المصريين — تمسكنا بوجهة نظرنا وهى أن الأصـــل فى الكفاح أنه علنى لأنه كفاح الشعب والاشتراكيين كانوا دائماً كذلك فى العالم كله ، وأننا لا نرى ضرورة لأن نضع على وجوهنا اقنعة لا داعى لها وكل ما علينا هو أن نكافح الرجعية لكى نكشفها ولا يكون هذا إلا بمواجهتها بالتصادم معها فى صراع « ايدولوجى » لاتستطيعه الصهيونية بآرائها المتخلفه « المتعفنة الإستبدادية » ..

ومن هذا الصدام يمكن الحكم عليها أو علينا ، وحتى إذا أسفر هـــذا عن نتيجة سيئة كاعتقـــال البعض فأنهم بلاشك سيكونون فى حمى الرأى العام الذى يلتف عادة حول المكافحين ، ولكنه لايلتف مطلقاً حول شراذم من أعضاء السراديب المجهوله والأقبيه المظلمة كتلك المنظمات والخلايا الصهيونية التى أطلقت عليها شبكة التجسس الصهيونية العالمية اسم « الخلايا الشيوعية » على سبيل التضليل من ناحيه ، ومن ناحية أخرى لهدم كفاح الوطنيين المخلصين .

وقد كانت تلك الخلايا هى طليعة جهاز المخابرات الصهيونية الذى قامت على أساس فرع منه فى الشرق الاوسط حكومة العصابة الأسرائيلية ، أو عصابة الحكومة الاسرائيلية حسبما يرى القارىء اللبيب !

ولقد دابت تلك الشبكة الرهيبة التى أقامتها الصهيونية فى مصر فى خلال الحرب العالمية الأخيرة سنة ١٩٣٩ ، على تجنيد مئات من الأبرياء فى براعة مرة باسم الماركسيه ومرة باسم السلام !

ووصل الأمر بهم أن كونوا عصابتهم فى العراق باسم جمـــاعة مكافحة الصهيونية كانت من وثائق القضية التى عرفت إذ ذاك بهذا الأسم ، واعترف بعض المتهمين فى تلك القضية المعروفة بما فعلوه ، وفسر البعض عبارة « مكافحة الصهيونية » بأنها تعنى « كفاح الصهيونية » !

وقد أعدم البعض منهم إذ ذاك وأظن أن ذلك حدث فى عام ١٩٤٥ ، وكانت لهم سابقة كهذه ، حدثنى عنها المستشار السابق المرحوم مرشد امين قال أنه فى سنة ١٩٦٥ كان قد أسس جماعـــة أنصار السلام وكان ذلك أبان اشتغاله بحركة الدفاع عن الحبشة التى وقعت فى براثن الفاشية الإيطالية ، إذ انضم إلى الحركة عدد كبير من الأجانب ، ولم يلتفت إلى هذه الظاهرة إلا يوم اكتشف أن هؤلاء الأجانب ليسوا إلا جماعة من اليهود ، فلم يجد بداً من وقف نشاط ذلك العمل العظيم نتيجة إقتراب ذلك الذباب منه وطوافه حواليه !

وهكذا اعتاد الصهيونيون أن يضللوا الجميع عن اسماء منظماتهم وشبكات تجسسهم بأسماء مستعارة .. ولماذا نذهب بعيداً .. ألم يثبت أنها كانوا يعملون على استدراج الأستاذ إبراهيم رشيد ، وكان محاميا وسياسياً معاصراً ، باسم تعيينه عضواً فى مجلس إدارة بنك دولى فى طنجه ؟ ..

وكانوا يطلبون منه كتابة تقارير عن حالة مصر الإقتصادية ؟

واتضح عند نظر القضيه أن البنك المذكور كان بنكا وهميا أو مجرد مصيدة لاستدراج الجواسيس ؟ ..

ألم يجندوا بالفعل عدداً من الأجانب والمصريين كان بينهم أحـــد التشيكوسلوفا كيين السذج أو المتورين والذى تجسس على بعض الجهات فى مصر ومنها السفارة الروسية باسم مكافحة الشيوعية ؟ ..

وقد برأته المحكمة على أساس أنه كان ضحية التضليل والغفلة أو مايسمونه بحسن النية ؟ . .

وكنت أحس بغرابة أولئك الصهيونيين وألاعيبهم ، وأسلوبهم الخادع ، وعبثا كنت أطلب إليهم العمل مع الجماهير بينما ظلوا هم يطلبون تطعيم الحركة بالأخيار التى تساعدهم على العمل . . ثم حدث أننى اقترحت فى غياب بعض أولئك الصهيونيين — أن نطبع بيانا ضد مؤامرة الصهيونية لإحتلال فلسطين التى بدأت بوعد بلفور ، وكان بيننا وبين ذلك الموعد ثلاثة أيام وحصلت على موافقة إجماعية باعداد ذلك البيان وتسليمه للجهاز الفنى لطبعه وإعداده لتوزيع صباح يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ .

وقامت قيامة « هنرى كورييل » زعيم ذلك التنظيم المشبوه ، وطلب عقد جلسة سريعة للجبهة لأنها معرضة لعمل تخريبى !

وفى الجلسة ، ظهر أننى أنا المتهم بالتخريب !

وإن ذلك التخريب هو كتابة البيان الذى هاجمت فيه الصهيونية ، وأمرت بطبعه وتوزيعه . . وتكلم الخواجة كورييل فقال ان « أن الزميل فتحى الرملى يبدو أنه رجل شوفينى — أى متعصب وطنى — وأنه ارتكب جريمة شنيعة فى حق الاشتراكية ، إذ أراد أن يهاجم الشعب اليهودى المضطهد فى فلسطين ويحرمه من حقه الطبيعى فى أن يتخذ له وطنا قوميا من فلسطين !

بدلا من أن يهاجم الاستعمار الإنجليزى معنا ، وهى فرصة أيضاً لمهاجمة « الرأسمالية » اليهودية التى تحارب الشعب اليهودى هناك !

وعجبت أنا من تسمية اليهود بـ « الشعب اليهودى » ، فنحن كاشتراكيين نعرف أن هناك تعريفا علمياً للشعوب ، لاينطبق شىء منه على اليهود ، وحاولت أقول هذا ولكنه راوغ قائلا . . أنا على كل حال لما شفت المنشور اللى إنطبع « حرقته » ، على مسئوليتى !

وقال كورييل : أنا اعترف بأنى غلطان من هذه الناحية ، وعشان كده ،

أنا مستعد لدفع تكاليف طبع المنشور . . هل تكفى عشرة جنيهات ؟

فأجاب بعض زملاء طيبين أو خبثاء ! : بل تدفع عشرين !

وابتسم هو وقال : وهو كذلك . . عشرة التكاليف . . وعشرة غرامة !

ولم تنته الجلسة بهذه البساطة ، بل تطورت المناقشة ، وقال لى هو . . إذا كنا مش عاجبينك بلاش يا أخى . . قدم إستقالتك !

قلت له : أنت وقح ! وسنفصلك من حركتنا الجديدة . .

وشرعنا من ذلك اليوم فى تأسيس « حركة المقاومة الوطنية » مع حركة الجبهة الاشتراكية !

وفى سنة ١٩٤٦ ، عاد هنرى كورييل يحاول التفاهم معى بطريقة خبيثة ، وكان الوسطاء له صهيونيون من العراق ومن فلسطين . . اتصلوا بى بحجة تقريب الأفكار بيننا إتصل بى يوسف حزقيل من العراق يطلب ألف نسخة من مؤلف لى ، وأن يدفع لى مقدماً قيمة ألف نسخة أخرى من كتابى « آراء مضطهدة » !

وأرسل مع ذلك العرض خطابا لم أرد عليه طبعا ، جاء فيه . . . « وحبذا لو اتبعت آراء مضطهدة بكتاب ، بل بكتب عن الشعوب المضطهدة كالشعب اليهودى المكافح فى سبيل وطنه فلسطين » !

تل أبيب تتدخل !

أما الصهيونى الآخر ، فهو ذلك الذى رويت قصته فى كتابى الذى طبعته سنة ٥٦ (الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار) ؛ وقلت فى الصفحة الخامسة وبالحرف الواحد :

« فى أواخر سنة ١٩٤٥ فوجئت بزائر يقتحم على البيت ، أشقر الشعر

أحمر الوجه ، قدم لى نفسه بلهجة متواضعة خجولة . . أو هكذا بدت لى فى ذلك الحين أنه يسحق بن يعقوب . . صحفى من فلسطين ،

ولما كانت تربطنا بفلسطين إذ ذاك علاقات الكفاح المشترك ضد الاستعمار فقد تبخر بسرعة ما أدركنى لأول وهلة من عدم ارتياح تجاه لارتباطى به سابق معرفة ، أو على الأقل سابق ميعاد . . تبخر ذلك الأثر بسرعة ، ووجدتنى أستقبل الشاب الفلسطينى بحماسة حقيقية وترحاب صادق . .

وبدأ السيد إسحق بن يعقوب يشرح لى مهمته لدى . لقد قرأ وسمع عنى فى فلسطين وعرف أننى أكرس حياتى للمبادىء الإشتراكية التقدمية الجديدة ، وهو لهذا يحرص على معرفة رأيى فى بعض الشئون السياسية . . لقد ظفر لجريدته بأحاديث مع زعماء اليمين ، ولكن الذى يعنيه بالدرجة الأولى هو أن يستطلع رأى الجبهة الأخرى . . جبهة اليسار !

وقلت له – وقد شممت من كلامه أنه يعنى الجبهة الاشتراكية — أننى لا أمثل جبهة فكل ما هناك محاولة ناشئة لخلق الوعى الجديد فى مصر ، وأن الأنبياء والمبشرين بهذا الوعى مجموعة صغيرة جداً من الشباب لا تؤلف بعد جبهة ولا شبه جبهة .

وابتسم السيد إسحق بن يعقوب ، وأصر على أن ما أقوله هو مجرد تواضع لا أكثر ولا أقل ، ثم عرج على موضوع الحديث الذى يطلبه فقال وهو يخرج ورقة بالأسئلة من جيبه : أريد قبل أن أبدأ ، أن تسمح لى بتصويرك . . فإن قراء جريدتى سوف يسعدهم أن يروا صورتك إلى جانب الحديث !

ولم أكن أكثر من شاب يتملكه الزهو أمام مثل هذا الطلب . . مهما أرهق عقله بمصارعة غروره ونزواته . . وتغلبت على استنكار عقلى لهذا الغرور الذى تملكنى بشكة زائفة . . لن أكون مسئولا إذا هبط توزيع جريدتكم بعد نشر الصورة !

قلتها وأنا أتهيأ لمقابلة العدسة وما كاد السيد بن يعقوب يفرغ من إلتقاط

الصورة . . حتى أخذ يحدثنى عن نفس الموضوع الذى شرد إليه ذهنى وكأنه يطالع أفكارى . . قال أن جريدته توزع ربع مليون نسخة . . وعجبت لهذا الرقم الضخم . . وإنما استطرد هو يقول . . لا تعجب لجريدتنا تصدر أيضاً باللغة العربية . . ويقرأها اليهود فى شتى أنحاء العالم . . أن توزيعها لا يقتصر على يهود فلسطين !

وابتسمت للفكرة . . فما كان يخطر لى قط أن كلاما لى سوف يترجم فى يوم من الأيام إلى اللغة العبرية . . وقلت للسيد إسحق بن يعقوب الذى أدركته — لأول مرة — أنه يهودى ، وما اسم جريدتك ؟ . .

أجاب بنفس اللهجة المتواضعة : أننى مندوب جريدة « دافار » . وهى التى ستنشر الحديث الرئيسى معك ! ولكنى سأنشر أيضاً بعض كلامك فى جرائد أخرى تصدر باللغة العربية ، مثل جريدة « نداء الأرض » وغيرها من جرائد فلسطين !

قلت لنفسى : وإذن ، فهذه فرصة ذهبية . . أن أحاديثى سوف تنشر بالجملة فى جرائد مختلفة فى وقت واحد . . وتطلعت فى شوق إلى الصحفى الفلسطينى أستمع إلى أسئلته ، وإذا به يصدمنى بسؤاله الأول : ما رأيك فى فتح أبواب فلسطين للمضطهدين من اليهود ؟ !

وأدركت ، وفى الحال ، أن كل تلك المقدمة لم تكن أكثر من « طعم » . . إنها رشوة خبيثة لا تتكلف مليما واحداً . . وهى مع ذلك أخطر أنواع الرشوة . . إنها صورة . . وأحاديث . . وشهرة ملفقة ، مفتعلة !

وجاء دورى لكى أتفرج أنا عليه فأجبته فى لهجة حاسمة : أننى ضد الهجرة اليهودية !

وبرقت عيناه دهشة ، أو لعلها ذعرا من إجابتى ، وسأل : ألست تقدمياً ؟ . . أن جميع الإشتراكيين ، فى كل أنحاء العالم يؤيدون هذه الهجرة !

قلت فى هدوء : على اى اساس ؟

قال : على اساس انها مسألة إنسانية .. ففى بعض دول العالم اضطهاد عنصرى ضد الأقلية اليهودية ، فالإشتراكية من ناحية تحارب هذه العنصرية .. ومن ناحية اخرى هى تعطف على هؤلاء الكادحين المشردين الذين يعيشون بلا مأوى !

قلت له : أظن انه لم تعد هناك دول تضطهد اليهود .. وإذا كنت تعنى بكلامك ألمانيا النازية فهذه لم يعد لها وجود .. ومع ذلك .. فلماذا تريد ان تحل مشكلة اليهود المشردين — ان صح ان هناك مشكلة بهذا الإسم — على حساب سكان فلسطين ؟

وعاد إسحق بن يعقوب يشككنى فى مبادئى : فقال : عجيب ! هذه اول مرة اقابل فيها إشتراكياً يعالج المشكلات من زاوية « عنصرية » !

ولم احتمل هذه الوقاحة ، فقلت له بحدة : من هو العنصرى فينا ؟ .. أنا الذى أقول أن فلسطين لسكانها العرب .. أم أنت الذى تقول أنها للمهاجرين اليهود ؟

واحس بن يعقوب أنه تعثر فى أسلوبه معى ، ولكنه لم ييأس ، فعاد يعتذر عن هذه « الهفوة » بأنها نتيجة تأثره . ثم بكى فجأة وهو يقول : آه لو رأيت حال هؤلاء المعذبين ، واستطرد هل تظن أن الموافقة على فتح باب الهجرة إلى فلسطين تعنى تدفق اليهود من أنحاء العالم إلى هناك ؟ .. كلا بالطبع .. فاليهودى الذى يعيش فى أى بلد مطمئنا إلى مصالحه وحياته لا يمكن أن يفكر فى الهجرة من هذا البلد .. انما نطالب بفتح فلسطين لليهود كمبدأ فقط ، وتأكد أنه لن يذهب إلى هناك أكثر من بضعة ألوف من المضطهدين بالفعل !

قلت له لأحسم المناقشة وأنا أطالب بمنع الهجرة تماما من حيث المبدأ .. لأن هذه الهجرة هى إعتداء على حق السكان الأصليين من ناحية ، ولأن من شأنها — من ناحية أخرى — أن تحول فلسطين إلى دولة يهوديه !

وقهقه إسحق بن يعقوب ساخراً وقال وهو يربت على كتفى : هذه دعاية استعمارية يراد بها تأليب العرب على اليهود حتى يخلو الجو للإنجليز .. كيف تصدق — وأنت رجل تقدمى — أن اليهود سيؤلفون دولة فى فلسطين ؟

وكأنما كان الرسول الصهيونى قد أعد عدته لكل شىء ، فاستطرد قبل أن أرد : .. ومع ذلك ، فلنفرض المستحيل ، ولنسلم جدلا بأن اليهود سوف يؤلفون حكومة فى فلسطين ، فأيهما تفضل أيها الزعيم الاشتراكى ! — هكذا قال على سبيل الرشوة ! — حكومة يؤلفها الإقطاعيون العرب من عائلة الحسينى .. أم حكومة يؤلفها العمال اليساريون اليهود ؟

وأجبت بلهجة حاسمة : أنى أفضل بالطبع حكومة يسيطر عليها الاقطاعيون العرب — إن صح التعبير — على حكومة تسيطر عليها الصهيونية العالمية !

ولم ييأس بن يعقوب أيضاً ، فقد قال : قلت لك لا تصدق الدعايات الإنجليزية .. فالرأسمالية اليهودية — ويلاحظ أنه لم يستخدم الصهيونية — لا تظفر بأكثر من عشرين فى المائة من المقاعد فى الوكالة اليهودية ، بينما يظفر العمال فى انتخابات هذه الوكالة بالثمانين فى المائة من المقاعد .

قلت له : أن الرأسمالية لم تستمد قوتها يوماً من كونها تؤلف أغلبية ، ولكنها تستمد قوتها من نفوذها الإقتصادى .. من سيطرتها على رءوس الأموال !

وأحس ابن يعقوب أن أمله قد خاب وأنى لست بالفريسة السهلة التى تصورها ، فقام ، وقال وهو ينصرف سأترك لك هذا التقرير لبن جوريون — ولم يكن إذ ذاك إلا زعيما صهيونيا ! — وسترى فيه حقائق تجعلك تعيد النظر فى هذه الآراء !

ولم يزد ، بل شد على يدى وخرج .. وبين ثنايا التقرير ، كان إسحق بن يعقوب قد قد نسى بطاقته الحقيقيه أنه إيزاك جاكوب !!

* * *

لقد سقطت فى الإمتحان الذى عقده لى . إيزاك بن يعقوب ، مندوب تل أبيب ، وحقت عـلى اللعنة الصهيونية ، فجأة ، تجمعت المنظمات التى يسيطر عليها الصهيونيون فى مصر لتعلن على حربا عنيفة لم تترك نقيصة واحدة لم تلصقها بى . . وفى نفس الوقت نشطت فى البحث من « زعماء » اشتراكيين آخرين . . البحث عن « تقدميين » ممن يؤمنون بأن التقدمية ، والصهيونية سواء !

ووضعت فى أفواه البغبغاوات والمأجورين أقبـح الشتائم وأشنع الاتهامات ، وجردت حملة منظمة ، استخدمت فيها الأموال والفتيات الصهيونيات لتحطيم أى نشاط أتولاه لخدمة بلادى . . فلا ينبغى أن يظهر على سطح الارض إشتراكى لا يؤمن بالصهيونية !

وكنت أختلف مع تلك المنظمات الصهيونية فتشتد حملاتها ضدى ، ويزورنى أحد أولئك الأدنياء ، هنرى كورييل ، مثلا . فيبدأ محاولا « المصالحة » على أساس انه يعترف بأنه أخطأ فى حق زملائه ، ينتقد « نفسه » ويريد أن يبدأ معى صفحة جديدة . حدث هذا لآخر مرة سنة ١٩٤٧ ، عندما أحسوا بقوة التنظيم وباتساع حركتنا عندما كان العمال والعاملات يجمعون التوقيعات لإيفادة السيدة زوجتى مندوبة عن العاملات المصريات فى المؤتمر النسائى الديموقراطى العالمى الاول بباريس فى ذلك العام ، لقد كشفنا إذ ذاك ألاعيب الصهيونية ومحاولة ضرب التجمعات الوطنية وإيجاد الفرقة بينها وأن المطلوب فى كل مرة تحاول فيها المنظمات الصهيونية التقرب إلينا والمصالحة ، هو القيام بعملية تخريب فى صفوفنا من الداخل وتسليم « كوادرنا » للبوليس ، بل لقد كان يقبض علينا باتهامات ملفقة ولا تلبث النيابة أن تتبين زيفها فتفرج عنا ، ولكن بعد حبس احتياطى كان يمتد فى كل مرة إلى ثلاثة وأربعة شهور . . مثل ذلك الحادث الذى ضبطت فيه منشورات على مكتب الملك السابق فاروق ، واتهمنا — أنور كامل وأنا — وتسعة آخرين من العمال . بطبعها وتوزيعها ؟

وفى تلك الفترة ، تبين لنا أيضا أن « كورييل » كان يستعين بالمال فى شراء ذمم بعض ضباط القلم السياسى والقلم المخصوص للعمل لحساب الصهيونية وتأكد

لى هذا إذ عرفت بعض أولئك الضباط بالفعل عملاء يسخطون على سخطاً أشد وأنكى . .

كانت المعلومات التى تجمعت لدى خطيرة لدرجـة أنهم — ضباط القلم المخصوص — اصبحوا يخشون من لسانى حتى لا يفلت وتتسرب تلك المعلومات الى رؤسائهم ، فكانوا يبالغون فى اضطهادى حتى إذا ما عرفت الجهات الرسمية امرهم ادعوا ان كل ذلك ليس إلا افتراءات واكاذيب وشائعات اتولى انا نشرها ضدهم ، كرد منى على الاضطهاد والأذى الذى ألقاه منهم .

لماذا لم اكن اذيع شيئاً عن اولئك الجواسيس المزدوجين ، وكلهم يعمل بوجهين ، وجه مع الحركات الوطنية ، والوجه الآخر مع الصهيونيين ؟ .

لقد قال لى مرة سنة ١٩٤٨ ، الصهيونى المقيم بإسرائيل ، ولعله الآن فى إسرائيل أن التنظيم الذى شكله « دفع خمسة آلاف جنيه لعضو فى الجامعة العربية ، هو « سيف الإسلام عبد الله » مندوب اليمن فى عهدها الملكى ، وذلك مقابل ان يطلعهم على ما دار فى الجلسة السرية التى تقرر فيها إعلان الحرب على . فلول العصابات الإرهابية الصهيونية » على حد التعبير العربى وقتذاك . سر خطير اذاعه ذلك الصهيونى فى معرض اغرائى بالانضمام إلى ما يسمونه « حركة التوحيد بين المنظمات التقدمية » ، وقد اعتبر المنظمات الصهيونية منظمات تقدمية وتحريرية .

وانزعجت فقد تأكد لنا بصفة قاطعة ، وحاسمة ، ان هذه التنظيمات زائفة ومريبة . وفى الوقت الذى اصدروا فيه منشوراً سرياً يبارك تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، اصدرنا نحن فى الجبهة الإشتراكية بياناً علنياً واضحاً نددنا فيه بالصهيونية وطالبنا رفض التقسيم ، وقد نشرت إذ ذاك بعض الصحف ملخصاً له ومنها جريدة الأهرام ، وفى الوقت نفسه جاءنى بعض اولئك الزملاء « يتوددون » منذرين منشة . وقال انهم اعتبرونى مخربا ، وفرديا ، إذ اننى انفردت برفض التقسيم فى حين ان « جروميكو » وزير خارجية الإتحاد السوفيتى قد اعلن موافقته عليه وادركت انا ان جروميكو لا يمكن ان يقول كلاما فارغاً كذلك الذى زعمه ابناء صهيون ، فأحضرت النص الحرفى لأقوال جروميكو ، فوجدتها

بالعمل غير مطابقة للملخص المشوه الذى اعتمدوا عليه ، فقد استعرض جروميكو إذ ذاك المراحل التى مرت بها المشكلة منذ بدا الاستعمار يفتح الباب على مصراعيه للهجرة اليهودية ويسلح اليهود بالأسلحة التى اخذت تدفع المتعصبين إلى التصادم فى حوادث رهيبة افقدت كل من الطرفين ثقته فى الطرف الآخر وكيف ادى ذلك إلى تجمع اليهود فى بعض بلاد فلسطين حتى استولوا تدريجياً على مناطق بأكملها ، وانكمش العرب وتجمعوا بعيداً عن اليهود فى مناطق اخرى فكان خطة التقسيم قد وضعت قبل ذلك بكثير واصبحت اليوم واقعية ، فالتقسيم إذن حقيقة واقعية .

وقال جروميكو اخيراً انه كان يفضل الحل الأسلم والطبيعى وهو ان تقوم فى فلسطين حكومة ديموقراطية واحدة (وهذا الحل هو الذى تنادى به اليوم منظمة تحرير فلسطين بقيادة ياسر عرفات) ، ولكنه ازاء الحالة الخطيرة التى اشار إليها ومنعاً للتصادم فإنه ينادى بدولة ثنائية القومية — اى فيها قوميتان متعاونتان — إلى ان تخف حاله التوتر والتعصب الموجودة حالياً .

وهذا الراى يجدر كل من يطلب الحقيقة بالرجوع إلى النص الرسمى لخطاب جروميكو الشهير وإلى جريدة الأهرام قديماً إذا اراد ان يطلع على بيان « الجبهة الإشتراكية » الذى اشرت إليه .

وقد اعترف بموقف « فتحى الرملى » من المسألة الصهيونية ومسألة التقسيم احد وزراء الداخلية السابقين — مرتضى المراغى — لأستاذنا الكبير فكرى اباظة ، عندما ذهب إليه ساعياً فى الإفراج عنى باعتباره نقيباً الصحفيين اذ ذاك ، فطلب الوزير الملف الخاص بى ، ثم اعترف بالحقيقة ، بعد ان قرا كل ورقة فى ذلك الملف فقال . . فعلا . . فتحى الرملى مواقف مشرفة ضد الصهيونية .. وفعلا كان يعارض التقسيم .

مائة عائلة تحكم مصر

« . . فى مصر مائة عائلة ، وربما أقل هى التى تحتكر الثروة ، والنفوذ ، والحكم . . مائة عائلة هى التى تحتل مقاعد البرلمان فى كل عهد ، وتتربع على كراسى الحكم فى كل وزارة ، وهى التى تملك أكثر الأراضى ، والعمارات ، والمصانع !

مائة عائلة ، وربما أقل ، هى التى تنعم بخيرات هذا البلد الجائع العارى المريض » .

هذه كانت هى السطور الأولى من إفتتاحية العدد الثالث من مجلة « كلمة الحق » التى كنت أصدرها عام ١٩٤٧ ، وكان عنوان المقال « المائة عائلة » .

ولم تكن أمام البوليس السياسى فرصة لمصادرة العدد ، فظهر وملأ السوق ، وتطوع مستشارو الملك السابق بلفت نظره ، فثار واتصل بالقراشى « يوبخه » على ترك الشيوعيين ينشرون آراءهم بهذه الجرأة !

وعندما تلقيت الدعوة التقليدية من نيابة الصحافة إذ ذاك للمثول أمامها فى اليوم التالى ، كنت أعلم الأوامر التى صدرت فى الليلة السابقة باعتقالى ، فرسمت خطتى على هذا الأساس .

وفى طريقى — فى صباح اليوم التالى — إلى دار النيابة ، قابلت صديقى النائب السابق الأستاذ موريس فخرى عبد النور المحامى ، وما كاد يعرف وجهتى ، حتى أبت عليه وطنيته إلا ان يحضر معى ، وأخذ الأستاذ موريس منى العدد وراح يقرأ المقال ثم التفت يقول لى : أن اسلوبك هذا عنيف جداً ، وكلمتك فى منتهى الخطورة ، لماذا تكتب بهذه الخشونة ، إلا تعرف أننا نعيش فى ظل حكومة أرهابية بوليسية ؟

وكنت اقدر الدوافع النبيلة التى جعلته يبدى هذا الرأى ، كنت أقرأ فى عينيه أنه يتوقع لى مصيراً مظلما فى نهاية التحقيق ، وراح الرجل يؤدى واجبه رغم يأسه تماماً من النتيجة ، فأخذ ينصحنى بالإعتدال فى الإجابة ، ويرسم لى طريقة

تفسير كل فقرة من المقال بحيث أثبت حسن نيتي وأقدم الدليل على أنني لا أهاجم النظام !

ووصلنا إلى النيابة وفي رأسي خطة خشيت أن أكاشف بها صديقي المحامي الكبير حتى لا يثنيني عن عزمي، لقد كان الفرق بيني وبينه في التفكير أنه يريد لي الأفراج، إذا أمكن !

أما أنا فكنت أريد شيئاً آخر، هو مقاومة الطغيان بأسلوب جرىء، هو مواجهته، وفضحه أمام العالمين .

لذلك، ما كاد الاستاذ إسماعيل عوض رئيس النيابة يفتح محضر التحقيق معي حتى قلت له رداً على سؤاله الأول : أحب قبل أن أجيب على أي سؤال، أن اسجل في محضر التحقيق ثلاثة حقائق، أولاها أن التحقيق الذي يجرى معي اليوم هو حلقة من سلسلة تحقيقات صورية غير جدية، لا يقصد من ورائها سوى مجرد التنكيل بي، عن طريق حبسي إحتياطيا لتعطيل رسالتي الصحفية، وارهاقي ماديا بالكفالات أذ تعرف الحكومة أنني رجل فقير لا أستطيع سد هذا الباب !

وثاني هذه الحقائق أن عشرات من التحقيقات قد أجريت معي في خلال السنوات القليلة الماضية فانتهت جميعا بالحفظ ولم تجرؤ الحكومة على تقديمي في قضية واحدة حتى الآن وهذا ما يؤيد أن المسألة لا تعدو أن تكون مؤامرة على حريتي وعلى رسالتي عن طريق إستخدام الحبس الإحتياطي استخداما قبيحا إلى جانب سلاح الكفالات التي تريد الحكومة أن تحطمني به تماماً !

والحقيقة الثالثة هي أنني جئت هنا بقرار لن أحيد عنه، هو أنني إذا صدر أمر بحبسي إحتياطيا فلن أقدم معارضة في أمر حبسي، وإذا طلبت مني كفالة فلن أدفعها ولو كانت مليما واحدا، بل إذا تقرر الإفراج عني بالضمان فلن أدفع هذا الضمان .. لقد جئت اليوم أتحدى النيابة أن تثبت إنها جادة معي، وأن تقدمني للمحاكمة في أقرب جلسة !

هذا هو الطلب الوحيد الذي أتقدم به، فإذا لم تجبني إليه النيابة فسيكون

هذا أكبر دليل أعرضه على الرأي العام العالمي وأثبت به أن النيابة غير أمينة على الدعوى العمومية وأن القائمين بها غير جديرين بمناصبهم .. وغدا .. غدا بالذات يعقد زملائي في الخارج مؤتمراً لمراسلي الصحف الأجنبية ويزودونهم بكل التفاصيل عن هذه الفضيحة الكبرى !

ونظرت إلى رئيس النيابة الذي بدأ التحقيق معي متحفزا كالأسد .. نظرت إليه فوجدته محتقن الوجه، ترتعش يده، ويحاول أن يخفي أضطرابه أمامي دون جدوى، ولم يلبث أن وجه سؤالا جديدا :

- الا ترى أن هذا المقال كتب بلهجة عنيفة من شأنها إثارة طبقة على أخرى ؟

كنت اعرف أنه يقدم لي فرصة أقول فيها شيئا . أي شيء يعطي به موافقة إذا أفرج عني، ومع ذلك رأيت ان أمضي في الخطة التي رسمتها فقلت له :

- إذا كنت آسف على شيء فهو أن لهجة المقال جاءت خفيفة جداً بالنسبة لما قصدت إليه .. انني أشعر بالخجل لهذا التقصير المعيب لذلك اسجل هنا عهدا على نفسي ان يكون أول عمل لي - إذا خرجت اليوم - هو إستئناف الكتابة في هذا الموضوع بالذات ولكن بلهجة أشد وأسلوب أعنف .. ان احتكار مائة عائلة لمصادر الثروة والنفوذ والحكم هو أمر يتعارض تماماً مع الدستور الذي يعتبر الشعب مصدر السلطات، وأنني كمواطن حر أرى أن عدم الدفاع عن الدستور والنظام الديموقراطي جريمة لا أستحق معها لقب « مصري » !

وارتعشت يد الأستاذ إسماعيل عوض وتصبب العرق على وجهه وارتبك فلم يدر ماذا يوجه لي من الأسئلة بعد ذلك، فأنهى التحقيق على هذا ثم حمل المحضر وخرج على أن يعود إلينا بعد دقائق !

والتفت إلى صديقي الأستاذ موريس فوجدته في خوف شديد علي، وعاتبني بعنف فقال ما هذا الذي فعلته ؟ .. لماذا قبلت حضوري معك إذن مادمت تريد أن تسجن بأي شكل .. أسمح لي لم تعد هذه شطارة !

إنما الشطارة أن تنفذ من أعدائك بأي حيلة .. لقد ذهب رئيس النيابة ليتفق مع النائب العام على القبض عليك !

ولم أجب . كنت اعرف أن أى رد سوف يزيد ثورة صديقى وحامى ومضت فترة طويلة ، طويلة جداً ، لم يمزقها سوى دخول رئيس النيابة مشرق الوجه ، وما كاد يقترب منى حتى صافحنى فى حرارة وقال : مبروك !

لقد أثبت لمنصور باشا — يقصد النائب العام وقتها — إنك كنت حسن النية فقبل الإفراج عنك . . وبلا كفالة !

قلت وبلا ضمان شخصى ؟

قال : وبلا ضمان شخصى !

ثم قال : ولكن لى عندك رجاء كأخ .. كوطنى مثلك .. أن تكف عن الكتابة فى هذه المواضيع فى الوقت الحاضر . فأنت تعرف أن النقراشى باشا على وشك أن يعرض قضية مصر على مجلس الأمن ولا يرضيك بالطبع أن يقول الإنجليز عنا إننا لا نستحق الإستقلال بدليل أن مائة عائلة تحكمنا !

قلت : ولى أيضاً رجاء .. أن تنصح النقراشى باشا باحترام حريات المواطنين فهذا أدعى للمحافظة على سمعة مصر خصوصاً وهى بصدد المطالبة بحريتها !

وعندما خرجنا من حجرة رئيس النيابة قال لى الأستاذ موريس فخرى عبد النور وهو يقبلنى : الآن أعرف سر قوتك .. أن سر قوتك هى هذه الشجاعة !

لكن .. لكن هذه النتيجة لم تعجب الطاغية الأكبر فاروق ، فثار مرة أخرى عندما سمع النبأ ، وفى اليوم التالى اضطر النقراشى إلى أن يأخذ من الوزراء منفردين موافقة على قرار عاجل . .

قرار بتعطيل مجلة كلمة الحق !

قاومت الطغيان !

واصل الصهيونيون محاربتى وتشويه سمعتى بمختلف الشائعات المتصلة وإستخدموا عملاءهم فى تقديم تقارير تتهمنى بأننى خطر جداً على «الأمن العام» !

وهكذا أخذت انتقل من معتقل إلى معتقل . .

وفى ١٣ مايو سنة ١٩٤٨ ، عرفت أن الخطة التى رسمها الجنرال كلايتون مع الملك عبد الله ، ونشرت جريدة « البلاغ » وثائق تفاصيلها ، على وشك أن تنفذ وأن قوات الجامعة العربية ستستخدم كـ « مخلب قط » للاستعمار البريطانى فى مغامرة جديدة مهد لها المهرجون الفاشست بمئات الخطب التى تفيض بالحماسة المزيفة والمصحوبة بعشرات الحركات المسرحية التى يذكر القراء بعضها ولاشك !

وعز على — وأنا صحفى — أن أطرق أبواب الصحف جميعا لتأدية واجبى فى فضح هذه المؤامرة الإستعمارية الكبرى ، فلا أجد جريدة واحدة تقبل أن تنشر لى شيئاً فى هذا الموضوع الخطير . . وسمعت أن الرقابة لن تلبث أن تفرض على الصحف والمطبوعات حجب الحقائق الرهيبة عن الناس ، ففكرت فى إنشاء مطبعة خاصة تتولى أصدار النشرات التى لابد منها لتنوير الرأى العام .

وفى ليلة ١٥ مايو أتصل بى أحد الزملاء الصحفيين وأبلغنى أن هناك حملة بوليسية كبرى لاعتقال الوطنيين ، فشكرته ، وغادرت البيت فوراً إلى حيث قضيت الليلة عند أحد أصدقائى ، وفى الصباح اتصلت تليفونياً بالمنزل فعلمت أن أحداً من رجال البوليس لم يطرق بابى ، أو يحضر لاعتقالى ، فدهشت لهذا الاستثناء العجيب ، إذ كانت الصحف زاخرة بأنباء هذه الحملة الطائشة على جميع الأحرار فى مصر ، ثم علمت أن أخبار المفاوضات التى أقوم بها لإنشاء المطبعة قد وصلت إلى البوليس ، وأننى تحت الرقابة الدقيقة من البوليس السياسى كما علمت أن المخبرين الذين يكلفون بمراقبتى لا يقتصرون على المنزل كما جرت العادة بل ينتظرون فى شتى الأماكن التى اتردد عليها عادة ، عند البوستة مثلا أو عند نادى الصحفيين !

وعدلت عن إتمام صفقة شراء المطبعة الخاصة للجو المريب الذى أحاط بها وبدأت أفكر فى حل جديد . . وشاءت الصدفة أن التقى بالأستاذ خليل الآسى المحامى ، ومع أننى كنت أعتبره ممثلا لاتجاه سياسى يختلف مع إتجاهى فى كثير من تفصيلاته ، إلا أننى وجدته فى ذلك اليوم يلتقى معى فى كل آرائى عن الموقف

الذي يجدر بنا كأحرار أن نقفه من هذه الحـــوادث ، فلما بدأنا نتحدث عن تفاصيل الخطة التي يجب أن تقوم بها لشرح وجهة نظرنا لمواطنينا رغم ظروف الحكم العرفي ، أبدى استعداده لأن يأخذ على عاتقه مهمة طبع المنشورات بواسطة « مطبعجي » طالما عاونه بإخلاص في مثل هـــذه المهام ، وذهبنا فعلا إلى مكان ما !

حيث أمليت على زميلي صيغة بيان وافق عليه وتحمس لطبعه في الحال !

وفي اليوم التالي دعاني زميلي لمقابلة « المطبعجي » في قهوة بباب الخلق لأرى العروفة وأتفاهم بشأن الأجر . . وكنت أظن أنني سأقابل شخصاً لا يعرفني ولا أعرفه ، وقد قدمني إليه الأستاذ خليل بادىء الأمر باسم « نصار أفندي » . . ولكن ما أدهشني هو أنه ابتسم وقال :

أنني أعرفك يا أستاذ فتحي !

وفزعت لهذه المفاجأة ، فبادر يطمئنني بأنه يعرفني منذ كان عاملا في إحدى المطابع التي اعتدت أن أطبع فيها كتبي . . وبدأت أشعر بالارتيـــاح إليه ، وبعد أن كان البرنامج المتفق عليه يقضي بأن يتولى الأستاذ خليل استلام المنشور بعد طبعه قررت أن أعفيه من هذه المهمة بسبب تعارضها مع مواعيد عمله ، وقلت له من الأفضل أن تقوم السيدة سعاد زهير باستلام المنشورات !

وهنا صاح المطبعجي : أنني أعرفها . . لقد رأيتها معك مرار !

وقبل الموعد المحدد اتصلت بالزملاء الذين قررنا أن نلقي عليهم مسئولية التوزيع ، وارتبطت معهم بمواعيد معينة في أماكن معينة !

وفي موعدنا في السابعة مساء ، ذهبت السيدة سعاد إلى ميدان صلاح الدين بالقلعة ووقفت تنتظر المطبعجي في المكان الذي حدده .

ومضت ساعة كاملة وهي تنتظر ، وبدأت بدوري أشعر بالقلق ، إذ كنت انتظرها في مكان قريب ، وقررت أن أذهب إليها لأعرف أسباب التأخير ، وهناك وجدتها لا تزال تنتظر فوقفت التلفت معها حولنا . وشعرت بالانقباض حين لمحت بعض الرجال يفترشون حشائش الحديقة التي تقف إلى جوارها ، وقلت للزميلة وأنا أشير لها عليهم : المخبرين ناموا . .

وضحكت السيدة سعاد واعتبرتها نكتة ، ولكني كنت قد بدأت أرتاب في الجو المحيط بنا ، وفجأة لمحت صاحبنا المطبعجي يقف متكئا على « ربطة » كبيرة من المنشورات ، فأقبلت نحوه بلا تفكير ونقدته الأجر المتفق عليه بيننا وتناولت السيدة سعاد الربطة ، وبدأنا نحن الثلاثة نرتقب مرور أي تاكسي ، ولكن ، وفي لمح البصر ، لمحت حجازي أفندي من ضباط البوليس السياسي يهجم علينا بالمسدسات في منظر سينمائي ، ومن خلفـــه عشرات الكونستبلات والمخبرين !

وسارت الزفة بضع خطوات قسم الخليفة . . ثم مضت دقائق معدودة وقيل لنا أن رئيس نيابة الصحافة عبد العزيز « بك » حلمي ووكيل نيابتها الأول الأستاذ مختار قطب قد وصلوا . كما وصل القائمقام إمام إبراهيم « بك » . . وكنت أظن أن الذين سيقدمون للمحقق هم السيدة سعاد ، والمطبعجي ، وأنا . . ولكن ظهر في القسم أن المطبعجي لا وجود له . . فقد ترك البوليس السياسي الذكي مرشده الهام فلم يعتقله معنا ولو على سبيل التغطية . . ثم ظهر أنهم دبروا طريقة جهنمية لاعتقال الأستاذ خليل الآسي أيضاً ، فقد دس المطبعجي علبة « كارت » باسمه بين المنشورات ، كان قد عرض عليه أن يطبعها له بصفة هدية !

وكان البوليس قد حجز كلاً منا في حجرة ، ونودي على السيدة أولا ، باعتبارها صيداً أسهل — على الأقل في نظر البوليس والنيابة — فقررت ، كما كان شأننا أنني دعوتها إلى هذا المكان حيث كانت لنا فيه ذكريات أيام زواجنا الأولى ، ولا تعرف أكثر من هذا . . ثم نودي على الأستاذ خليل الآسي ، وكان هو حلقة الاتصال بيننا وبين المطبعة ، فقال أيضاً أنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع !

وجاء دوري ، وكان الصاغ حجازي قد صحبني إلى غرفة التحقيق ، وهمس في أذني وهو يتباهى بفروسيته ، عما عساني أقول إذا هو عرض على النيابة « الأصل » المكتوب بخطي ؟ !

وبينما كنت أقلب الأمر في ذهني عن صحة هذا الكلام ، إذا بي أجد أصل

المنشور فعلا موضوعاً على مكتب المحقق !

وهنا . . نقف قليلا لنستعرض ما جاء بالمنشور . . وليس فى وسعى طبعاً أن أتذكر نصه ، لو أستطيع نشر هذا النص ولكنى أكتفى بأن أقول انه كان معنونا بـ « من حركة المقاومة الوطنية إلى النقراشى باشا » ، وأنه كان يطالب الحكومة بإعلان الحرب على الإنجليز وإلا فإن الشعب سيتولى تحقيق أهدافه بنفسه ، كما كان المنشور يرسم للشباب طريقه هذه الحرب التحريرية . .

ورسمت خطتى على الفور ، فدخلت على المحققين وأنا ارغى وأزبد ، والعن متصفيل الذمم الخربة ، والضمائر التى لاتعرف الوطنية ولا الكرامة !

وسألونى عن سبب هياجى فقلت أنها تلفيقات البوليس السياسى !

وقال رئيس النيابة : قل لنا أولا ، ألم تكتب هذا المنشور ؟

— منشور ؟ أنا الذى كتبت هذا البيان !

— هل هذا خطك ؟

— واضح أنه خطى !

— إذا ما الذى صنعه البوليس السياسى من تلفيق ؟

— كنت وعدت للطبعة أمر طبعها فى هذا الوقت لتصليح بروفة البيان ، وذهبت فوجدت عامل المطبعة يقول أنه اضطر لإنتظارى بعد التصليح ، فإذا به يسلمنى البيان ويقول لقد صححناه وطبعناه على مسئوليتنا !

ولما قلت له : وهل عرضتموه على الرقابة ، قال طبعاً ! طبعاً !

— وأين عامل المطبعة ! لماذا لم يضبطه البوليس معكم ؟

قلت : إن البوليس لم يكن يريد ضبطه ، لقد (طبخا) الموضوع بالاتفاق ، ولذلك أطلق سراحه فى الحال !

قال : وأين صاحب المطبعة ؟ . كيف أفلت من البوليس ؟

قلت : الحقيقة أن البوليس هو الذى أفلت منه !

وظل التحقيق يجرى على هذا المنوال إلى أن ختمه المحقق بعد تحقيق طويل ، وليلة أطول : أليست لديك أقوال أخرى ؟

قلت : إننى أريد تسجيل دهشتى لمصادره مثل هذه المنشورات الوطنية ، ويزيد من عجبى أن يتولى مصرى مثلى محاسبتى على الدعوة لمحاربة الإنجليز . . هل فى القانون مادة تعاقب من يدعو لتحرير بلده ؟

قال رئيس النيابة المحقق أن الدعوة لمحاربة الإنجليز فى ذاتها ليست جريمة ، ولكن مجىء هذه الدعوة فى مثل هذا الوقت بالذات وهو الوقت الذى تشترك فيه جيوشنا فى حرب يجعلها مريبة !

قلت : أننى احتج على إعتبار الدعوة لتحرير مصر من الإستعمار دعـوه موسميه . . نتذكرها فى مناسبات ونتجاهلها فى مناسبات أخرى ، كما إحتج على وصف هذه الدعوة بأنها مريبة فإن تاريخى على كل حال يشهد بوطنيتى ، أن لم يشهد بأننى فى طليعة الوطنيين . .

وهز المحقق رأسه ، وأقفل المحضر وأفرج عنا جميعاً فى الحال بالضمان الشخصى ولكن أفراج النيابة هذا بالضمان الشخصى لم يكن كافياً لاطلاق سراحنا فى ذلك العهد . . ولم يكن من تقاليد الطغاة يوما الرضوخ لإرادة القضاء فضلا عن ارادة النيابة ، فاحتجزونا قسم الخليفة — حيث دار التحقيق — وذلك تنفيذاً للأمر الذى أصدره ، اليوزباشى ، حجازى ضابط البوليس السياسى إلى البكباشى امين صادق مأمور القسم ولاعجب فقد كان للبوليس السياسى إذ ذاك سلطانا يعلو على كل سلطان !

وبتنا ليلتنا فى احد مكاتب القسم ، فى حجرة خالية إلا من كرسى واحد ظللنا نتناوب الجلوس عليه طول الليل ! وفى الصباح جاء شيخ الحاره ! وضمنا نحن الثلاثة ، فسمح للأستاذ خليل بالانصراف اما السيـدة سعاد وانا فقد احتجزونا يوما ثانياً لحين تنفيذ الأمر الذى أصدره الحـاكم العسكرى باعتقالنا . . وفى يوم ٢٣ مايو حاولت السلطات الفاشية نقل السيدة سعاد إلى

سجن الأجانب دون أن ترى ولديها وتستصحبهما معها ، فقد كان أحدهما « ليلى » فى الثالثة من عمره ، وكان الثانى « جهاد » فى شهره الثالث أو الرابع ولكن السيدة سعاد تشبثت بهذا الحق ورفضت الإنتقال إلى هناك دون ولديها فاضطر المسئولون إلى الإذعان لمطلبها . . وتوجه البوليس معها إلى المنزل حيث ودعت أمها وجيرانها فى ظل الحراسة المسلحة وأخذت معها إلى سجن الأجانب أصغر المعتقلين فى تاريخ الطغيان فى مصر !

وفى اليوم التالى جاء دور ترحيلى ، وعبثاً حاولت أن أقنع الضابط المكلف بنقلى إلى المعتقل بالمرور على المنزل لآخذ من هناك « غيار » ملابس ، فقد أقسم لى أن هذا التصرف يعرضه لمجلس تأديب !

ولم أكن حتى هذه اللحظة أعرف شيئاً عن إسم المعتقل الذى تقرر نقلى إليه . . فضلا عن مكانه !

وانطلقت بنا السيارة بعيداً عن القاهرة ، وتوغلت فى طريق صحراوى موحش لا عهد لى به ، وعبثاً حاولت أن أسأل الضابط عن مكان هذا المعتقل ، فقد لذ له أن يتسلى على حساب أعصابى . . وطالت الرحلة ، وبدأت الأفكار المخيفة تساورنى هل أنا فى طريقى إلى حيث تستطيع السلطات الطاغية أن تتخلص منى نهائياً ؟

هل أنا فى طريقى إلى منفى . . فى بلد آخر . . إلى خارج الحدود ؟

وهنا تذكرت كيف كانت إحدى الحكومات الرجعية فى فنلندا تسوق الأحرار وتقذف بهم إلى خارج الحدود . . وفى هذه اللحظة التى صور لى فيها التشاؤم أننى سأغادر وطنى انحدرت من عينى دمعة أبيت أن أمسحها بل تركتها تسيح على صفحة وجهى ، ورحت أملى عينى من صحراء مصر وأملى رئتى من هوائها وأستعرض أغلى وأقدس وأحلى ذكرياتى عن الوطن الحبيب !

وفجأة ، رأيت السيارة التى تقلنا تقف أمام إحدى البوابات لتفتيشها ، ثم تجتاز بنا مدينة تضم مئات المبانى والمساكن الخالية الموحشة . . أنها مدينة « هاكستب » التى بناها الأمريكان فى بضع ساعات لتقيم بها قواتهم خلال الحرب

العالمية الأخيرة . . . لقد تحولت اليوم إلى معتقلات لأعداء الإستعمار الأمريكى !

وفجأة أيضاً وقفت السيارة أمام أحد هذه الأبنية ، وكان محاطاً بالأسلاك الشائكة وبالحراس المسلحين ، وأخرجت رأسى من نافذة السيارة فطالعتنى لافتة صغيرة كتب عليها « معتقل هاكستب » !

هل فى استطاعتى أن أصور حرارة اللقاء فى المعتقل ؟

لقد هبطنا من السيارة إلى مكتب الضابط النوبتجى حيث تم إجراءات تسليمى وكان المعتقلون يتطلعون فى لهفة يريدون معرفة شخصية الضيف الجديد ، ولكن الحراس يمنعونهم ، حتى استطاع أحدهم أن يلمحنى فبدأت أسمع همهمتهم . . « رملى . الرملى » . . وخيل إلى فى هذه اللحظة أننى أرى الثوانى تمر بطيئة متكاسلة فقد كنت بدورى فى شوق إلى معرفة زملائى المعتقلين .

ثم كان لقاء حاراً . . فهؤلاء المكافحين الأبطال أعرفهم . . أو أعرف أكثرهم ، وطالما التقيت بهم فى ميادين عمل أو فى زنازين سجون !

وطافوا بى أرجاء المعتقل . . هذه الدار التى دخلتها ولا أعرف على وجه التحديد متى أخرج منها ، اذا قدر لى الخروج !

هنا خمسة أجنحة ، يشغل الوطنيون الأحرار اثنين منها ، ويشغل اليهود المصريون الجناحين التاليين ، والجناح الخامس للأجانب !

ولو قدم سؤال — فى ذلك الحين — فى البرلمان عن أسلوب معاملتنا ، لاستطاع الحاكم العسكرى أن يرسم للمعتقل صورة زاهية جميلة ، ففى وسعه أن يقول أننا نعيش فى منطقة تتميز بهواء جاف بدليل اختيارها لتكون مقراً لأحدث مستشفيات الصدر ، وأننا ننام على أسرة ونتناول طعاماً يدفع فيه للمتعهد ٢٧ قرشاً لكل فرد ! .

ولكن لو أن لجنة تحقيق برلمانية شاءت أن تتحرى الحقيقة بنفسها فقدمت

لوزارة المعتقل، لما إليها الأمر.. فالمعسكر الذي نقيم فيه بني بنوع من الطوب الخفيف الذي لا يعزل الحرارة، والسقف مصنوع من الصاج الذي يعكس الشمس.. ونوافذ المعتقل وأبوابه مخلوع أكثرها، وأرضيته لا يغطيها سوى أكوام من الأتربة.. وأصناف العقارب الصحراوية الكبيرة!

هذا عن الجو اللطيف.. أما السراير فهي ألواح من الخشب تنصب فوق قضبان من الحديد.. وعلينا أن نفترش هذه الألواح التي لا يغطيها شيء.. وعلينا أن نتوسدها أيضاً فليست هناك وسائد.. فليست هناك سوى بطانية واحدة تترك لك إدارة المعتقل حرية إستخدمها بالطريقة التي تراها!

وربما كان المتعهد يتقاضى سبعة وثلاثين قرشا ونصف عن كل معتقل فهذه متعلقة بذمة المسئولين عن عمل هذه المناقصات هذا أن كانت قد عملت مناقصات على الاطلاق!

لكن الشيء المؤكد أن ما كان يقدم الينا هو أشياء لا يمكن أكلها.. ولا يمكن هضمها!

فالمتعهد مثلا يرى على سبيل التوفير — في الوقت والمـــال — أن يسلق لنا البيض في الوعاء الذي يغلي فيه الشاي.. وتتم العمليتان في وقت واحد.. فالشاي يغلي ومعه البيض.. وقد تتكسر خلال ذلك بيضة، ولا بأس في هذه الحالة أيضاً من تقديم الشاي إلينا فهو هنا أكثر دسامة، على كل حال!. وفي هذه الدسامة المغذية ما يعوضك عن عنصرين آخرين يفتقر إليهما شاي المتعهد وهما السكر والشاي.

ولا أريد أن أطيل، لحسبك — كي تأخذ فكرة عن طعام المتعهد — أن تعرف أن منافسا آخر تقدم بطلب تكليفه بتقديم نفس الأصناف بثلاثة عشرة قرشاً، أي بثلث القيمة، فلما قدم إلينا طعامه، وجدناه أجود وأحسن مما كان يقدمه إلينا المتعهد الأول.

أما عن القواعد الصحية فقد كانت مرسومة بطريقة حاسمة لقتلنا فالألواح

الخشبية أو السراير — مع التجاوز في التعبير — إذا نمت في الليل لم تترك لنا عمرا صغيراً وإلى جانب هذا الزحام البشري، زحام آخر في السقف، زحام الفيران الضخمة التي لا يحلو لها التهريج إلا عندما نفكر نحن في أن ننام!

وكان النمل ينتشر في المعتقل رويداً رويدا.. فإدارة المعتقل لا تصرف لنا زلطة صابون واحدة، ولا تسمح بزيارة أقاربنا حتى تأتينا معهم الملابس والصابون والحر شديد.. وفي المعسكر كله ثلاث دورات مياه صغيرة، يحتكر القومندان لنفسه إحداها، ويترك الدورتين لأكثر من ثلاثمائة وخمسين معتقلا.

وطبيب المعتقل يحضر مرة كل أسبوع، فيصطف المرضى أمامه في طابور طويل، ويسأل الأول عن مرضه، فيقول: دوسنتاريا.. فيرد ٥٠ ٪ من مصريين عندهم دوسنتاريا.

ويتقدم الثاني ليقول: عندي مغص.

فيقول له: ومن أين تعرف..؟.. هل أنت دكتور؟.

ويقول الثالث: ضرسي.. يؤلمني جداً يا دكتور..

فيجيب: أصبر.. بعد شهرين ثلاثة يمكن يعينوا دكتور أسنان!

ويشكو الرابع من ارتفاع درجة الحرارة.. وصداع شديد.. فيقول له دون أن يمسه.. أنه برد.. تغطى جيداً بالليل..

ويرد المريض: ولكنهم لا يصرفون لي سوى بطانية واحدة..

فيجيبه مازحا: «أكمش» في زملائك»

ويجيء دور الخامس فيشكو من رعشة شديدة وحرارة مرتفعة وأعراض تجعله يظن أنه مصاب بالملاريا.. فيبتسم الدكتور ويقول مازحا: إذن أبعد عني من فضلك لا تعديني.

ويظل الدكتور يؤدي واجبه، على هذا النحو حتى يفرغ من المرضى جميعاً دون أن يكشف على واحد أو يصرف علاجا لآخر.

ثم يخرج ونظل نتراهن ، بعضنا يؤكد أنه ضابط جـــديد فى البوليس السياسى . . مهمته أن يراقب حالتنا المعنوية . . وبعضنا يؤكد أنه طبيب أخصائى فى أمراض المعتقلات .

وكان مما سرنى أن أعرف أن المعتقلين قد اتجهوا إتجاها تنظيمياً من اللحظة الأولى فألفوا لجنة . لرعاية شئونهم تشكلت كما قيل لى من مجموعة المندوبين المنتخبين عن جميع العنابر ، وكان طبيعيا بين خليط من المعتقلين اتهم بعضهم بالصهيونية ، وبعضهم بالشيوعية . . وبعضهم بلا شىء على الإطلاق ! كان طبيعيا أن تضم أغلبية غير واعية واقلية لاينقصها الوعى وأن كانت تنقصها الخبرة .

صحيح أن اثنين أو ثلاثة من أعضاء هذه اللجنة كانوا من الشخصيات الممتازة فعلا ، غير أن وجودهم وحدهم لم يكن يكفى لأن تسير اللجنة دائماً فى طريق الكفاح الصحيح ، ومن هنا فقد اتسم نشاطها فى هـــذه الفترة بطابع اجتماعى بحت . . حفلات سمر . . أو مساعدات . . أو التماسات وعرائض ترفع إلى القومندان ولم أكن راضياً عن هذا الاتجاه ، فإن مواجهة الطغيان تحتاج إلى أسلوب أكثر شدة ، ولا شك أن الرجل الذى اعتقل ٣٥٠ مواطنا قبل أن تعلن الاحكام العرفية رسمياً ببضع ساعات ورغم كل العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه فى مجلس الشيوخ . . مثل هذا الرجل ، لا يمكن التفاهم معه أو مع معاونيه بالعرائض والإلتماسات .

أن مايحدث فى هاكستب لا يمكن أن نسميه اعتقالا ، بل هو جريمة تعذيب تتوفر لها جميع أركان هذه الجريمه . . بل يمكن تكييف التهمة أيضاً على أساس أنه شروع فى اغتيالنا .

والنيابة هنا هى جهة الإختصاص التى ينبغى علينا أن نرفع إليها بلاغاً عن هذه الجريمة ، فهى الأمينة على الدعوى العمومية . وسواء قامت إدارة المعتقل بتوصيل البلاغ أو أخفت معالمه . . وسواء أهملت النيابة فى تحقيقه أو قامت بواجبها . سواء هذا أو ذاك . . فواجبنا شخصيا إلا نقصر مطلقا فى تسجيل

هذه الحقائق الرهيبة فى بلاغ نلتمس فيه من النائب العام سرعة التحقيق .

ولم يسعنى إلا أن أقدم البلاغ التالى إلى النائب العام :

« أتشرف بإبلاغ سعادتكم أن دولة الحاكم العسكرى العام الذى اعتقلنى بعد التحقيق معى بشأن بيان لم تر فيه النيابة أية جريمة تقتضى القبض على ساعة واحدة أن دولة الحاكم العسكرى هذا قد تجاوز حدود سلطته مرة أخرى ، وتعداها إلى التنكيل بى داخل المعتقل تنكيلا يرفضه تحت طائلة القانون ، فقد منعت من إحضار غيار ملابس من البيت ، كما منعت عائلتى من الاتصال بى ، ووضعت فى معسكر قذر . . تقدم فيه وجبات من الطعام الردىء القذر ويهمل فيه علاجى عما أشكو من أمراض ، ولا يسمح لى فيه بالإطلاع على الصحف ولا بالتريض أكثر من خمسة دقائق ، ولا بالماء والصابون . . نعم ، حتى الماء كان يحبس عنا فى بعض الأوقات ولما كانت هذه المعاملة الوحشية التى يدبر فيها الجو المناسب لانتشار الأمراض والأوبئة . . فى المعسكر ، وهو ما يهددنى شخصيا بالموت ، هـــذه المعاملة ولا شك هى جناية تعذيب وشروع فى اغتيالى لذلك ألتمس من سعادتكم سرعة التحقيق ، وتفضلوا . . . . .

لم أكن — كما قلت — واثقا من وصول هـذا البلاغ إلى النيابة ، لكنى كنت واثقا من وصوله على الأقل إلى وزارة الداخلية ، وفى هذه الحالة سيدرك المسئولون أن هذا البلاغ أن لم يصل اليوم إلى النيابة بالطريق الرسمى فسيصلها — فيما بعد — عن غير الطريق الرسمى بطريقة أو بأخرى .

وفى هذه الحالة ، وتحت ضغط الخوف من إتجاهنا إلى النيابة ، ستضطر حتما إلى تحسين معاملتها لنا ، فهى فى حاجة إلى تجنب كل ما من شأنه أن يثير موضوع اعتقالنا ومعاملتنا للرأى العام ، بصرف النظر عما إذا كانت النيابة — حتى بعد إبلاغها — ستتحرك او لا .

وكان هذا هو ما حدث فعلا ، ففى الوقت الذى حرصت فيه إدارة المعتقل على أن تشعرنى بأن البلاغ قد أخذ طريقه فى الحال إلى سلة المهملات . . فى هذا الوقت كان أحد كبار المسئولين فى وزارة الصحة يزور المعتقل للتفتيش على

ما يجرى فيه ، وفى هذه الزيارة يحرص على أن يسألنى بالذات عما قد يكون لى من شكوى أو ملاحظات ، ولا يلبث أن يأمر لنا بحرية الإنتقال بين المنار والملعب طول اليوم ، كما يعد بوصول الصابون حالا إلى المعتقلين . . وشجعنى هذا النجاح الجزئى الذى وصلت إليه بمجهود فردى بسيط ، على أن أواصل الكفاح بأسلوب جماعى لا شك أنه سيكون أقوى وأجدى . . لكنى لا حظت أن بعض الأفراد — لسبب أو لآخر — يحاولون تحويل كفاح المعتقلين عن الطريق الذى يجب أن يتجه إليه ، طريق الدفاع عن مصالحهم وعن حريتهم إلى كفاح أنفسهم وحرب بعضهم ، وان جزأ من برنامج هذه الحروب الأهلية التى حرص بعضهم على إشعالها ، قد أخذ صورة محاكمات الخونة .

فيصطاد أصحابنا أحد المعتقلين الذين يعيشون فى المعتقل مستقلين ، بعيدين عن القلل والجماعات . حتى يكون وحده ، فيشككون فى أمره ويخلقون له بعض التهم التى يواجهونه بها ، ويطلبون إليه أن يقبل المحاكمة . . ويقع المسكين فى حرج ، فأن هو رفض المحاكمة ، أصبح فى نظر المعتقلين عاريا من وجه العدالة وهذا مريب . . وإن قبل مبدأ المحاكمة ، فأن الاتهام فى حد ذاته سيظل يلاحقه سواء أدين أو برىء !

ورأى له أن يبرأ ، ما دامت هناك جماعة من المعتقلين يهمهم أن تكون هناك محاكمات . . وأن يكونوا هم دائماً الخصم والحكم .

وقد أرادوا أن يبدأوا بثلاثة من الزملاء كانوا بـــلا عصبيات تسندهم فى المعتقل ، شكرى الشاروني ومحمد فهيم وخليل الآسى المحاميان .

حملوا للأول محاكمة بتهمة أنه « تروتسكى » منحرف .

وتصاعدوا فى المحاكمة الثانية بالتهمة التى صاغوها للزميل فهيم فقالوا أن له تصرفات مريبة ، ثم تصاعدوا مرة اخرى مع خليل الآسى فزعموا أنه جاسوس.

وكانت طريقتهم أن يعهدوا بالأدوار الهامة إلى الناس « الطيبين » .

فقد أوحوا إلى الزميل محمود العسكرى المناضل النقابى المعروف أن يقوم بدور

يشبه دور ميرابو فى الثورة الفرنسية ، فكان يصفق بيديه فى الصباح المبكر ويصيح . . محكمة . . كله يصحى .

ويستيقظ الزملاء ليجدوا منصة المحكمة قد أعدت والإستعداد لمحاكمة المتهم معدة مسبقا تماماً كمحاكمة دنشواى !

وقد حاولت شخصياً وقف هذا العمل الطائش دون جـــدوى ، فلما يئست أعلنت أننى سأقف إلى جانبهم شاهدا ومحامياً . . ولما جاء دورى أعلنت أن هناك قاعدة قانونية معروفة هى أنه لا « جريمة إلا بنص » ولما لم تكن هنـاك جريمة ، فأنه بالتالى لا عقوبة .

ومع ذلك إستمرت هذه المحاكمات الصبيانية . . إلى أن فكرت فى طريقة حاسمة لوقفها ، فأوعزت إلى بعض المعتقلين أن يتقدموا بطلب محاكمة عـــنترى كوربيل ذلك الخواجه الصهيونى المقنع بقناع الإشتراكية ، كما أثرت أنا نفسى موضوع محاكمة إثنين من المعتقلين كنت أعرف أنهما يتزعمان هذه الحركة الإرهابية ، وما أن سمعوا جميعاً بما قررنا إثارته ضدهم ، حتى راحوا يدعون بحرارة إلى وقف هذه المحاكمات .

وعند ذلك فقط أمكننا أن نبدأ فندعو إلى تنظيم سلسلة من المحاضرات لتثقيف المعتقلين . . وأمكننا أن نجد الوقت اللازم للتفكير فى مصالحنا . . ولا أريد أن أقول اننى فكرت وحدى فى موضوع المطالبة بتقرير إعانة شهرية لكفالة عائلاتنا أسوة بما كان متبعاً فى المعتقلات السابقة . . لا أقول أننى أول من فكر فى هذا فقد كان هناك زملاء من المعتقلين السابقين تنبهوا لهذا ربما قبل أن انتبه شخصياً له . . ولكن الذى أذكره تماما أننى ظللت أثير هذه المسألة وأذكر الزملاء بها ، حتى أمكنهم أن يضغطوا على لجنة المعتقل ، لتستصدر قراراً بالإضراب عن الطعام ، إذ لم يكن مثل هذا العمل مما يمكن أن يقوم به فرد .

وصدر قرار اللجنة بأضراب المعتقلين « الوطنيين » فقط عن الطعام احتجاجا على تشريد عائلاتهم بعد انقطاع مواردهم المالية باعتقال عائلهم .

وفى الموعد المحدد بدأ الإضراب عن الطعام وكان على وجـــه التقريب ٥٥ معتقلا من ٦١ مصريا هم الذين قرروا أن يصوموا عن الأكل حتى يجاب طلبهم الخاص بصرف إعانة لعائلاتهم التى فقدت باعتقالهم مورد رزقها الوحيد .

كنا فى الليلة السابقة قد أخذنا نستعد لإستقبال هذا اليوم ، كل على طريقته الخاصة . . فبينما آثر البعض أن يتنـــاول عشاء خفيفاً بل وأن يتناولوا أيضاً « مسهلات » للتخلص مما قد يكون فى معداتهم من فضلات .

آثر البعض الآخر أن يسهروا الليل كله وهم يلتهمون أكبر كمية من الطعام .

فلما جاء الصباح قدمت إلينا وجبة الإفطار كالعادة فرفضناها ، وأرسلنا إلى القومندان مذكرة لخصنا فيهـــا موقفنا فى كلمتين . . كمالة العائلات أو الإضراب حتى الموت .

ويبدو أن عبد الحفيظ أفندى خليل قومندان هاكستب لم يكن قد سبق له أن احتك بحكم عمله فى بوليس الأقاليم ، بغير المجرمين وأشباه المجرمين ، لأنه ذهل لهذا الأسلوب الغريب ، ولعله فرح بهذه الفرصة حتى يستفيد منها صديقه المتعهد إذ يرد إليه الطعام مع بقاء حقه فى الثمن محفوظاً . . ولعله أسف لأن هذه الفرصة لن تتاح طويلاً ، إذ إن المعتقلين لن يلبثوا — فى نظره — أن يحسوا بالجوع ويطلبوا الطعام .

وقد قالها بالفعـــل ، قالها لأحد الضباط على مسمع من بعض المعتقلين : والله والله والله . . دول مايجدهم لهم أكل تانى غير أما يبوسوا ع الجزمة !

وقد جاع المعتقلون المضربون طبعاً ، ولكنهم لم يقبلوا حذاء عبد الحفيظ أفندى . . ولم يطلبوا الطعام أصلاً .

ومر يوم ، وثان ، وثالث . . والمضربون يزدادون مع الجوع صلابة وعناداً ، وإدارة المعتقل تزداد بدورها دهشة لهذا الموقف . . وفى المقدمة بالطبع عبد الحفيظ أفندى المذكور أعلاه .

وكان لابد من الاستفزاز ، فهو سلاح الحنق المغيظ وإذاً ، ففى ضحى اليوم الرابع لإضرابنا دبرت المسرحية التالية . . أحتك الضابط التركى المعتقل إذ ذاك بأحد المعتقلين المضربين فلما قامت مشادة بينهما ، صرخ حضـــرة الضابط يستغيث من المعتقلين الذين يريدون قتله . . ثم هرع إلى الخارج يستنجد بجماعة من المتطوعين السعوديين الذين كانوا يقضون مدة تدريبهم للاشتراك فى معركة فلسطين ، فى أحد المعسكرات المجاورة . . ولم يلبث المتطوعون الذين قيل لهم على سبيل الإشارة أن « الصهيونيين يريدون قتل المسلمين فى حرس المعتقل » ، يلبث المتطوعون السعوديون أن جمعوا أحقادهم وتعصبهم وسخطهم ، وجاؤا يحملون قطع الأحجار والمواسير الحديد ، جاؤا يخوضون المعركة مع الصهيونيين المزعومين قبل الأوان !

وفتحت الأبواب الخارجية للقوات الزاحفة ، فأصبحت بينها وبين عنابرنا خطوة ، ثم انهالت أحجارهم فوق نوافذنا ، وأحسسنا — ونحن فى اليوم الرابع لإضرابنا — أن ثمة مؤامرة مدبرة لترويعنا ولإغتيال أكبر عـــدد منا بنفس الأسلوب الذى يلجأ إليه الفاشست فى مثل هذه الظروف .

وعلى رغم ما كان يبدو على بعضنا من الضعف والإعياء فقد قررنا أن نخوض هذه المعركة التى أرغمنا عليها دفاعاً عن أنفسنا ، قررنا أن نخوضها صائمين

إن صوتاً واحداً لم يرتفع مطالباً بوقف هذا الإضراب بالنسبة لهذه التطورات الجديدة . . لم يرتفع هذا الصوت ، وإن ارتفع صوت آخر يقترح وضع بضع قطرات من الليمون على الماء الذى نشربه ، فوافقنا على الاقتراح وبدأنا نستعد للمعركة . . و « الأعداء » يطرقون الإبواب بشدة ، وأحجارهم تتساقط فوق عنابرنا والإشاعات تنتشر عن استعداداتهم .

وكان أول ما فعلناه أن حطمنا السراير . . حطمنا تلك الألواح الخشبية التى تحدثت عنها فى سطور سابقة ، وحطمنا قضبانها الحديدة واتخذنا منها أسلحة . .

واستولينا على زجاجات الغازوزة الفارغة من بوفيـــه المتعهد فملأنا بعضها بالرمل وبعضها بالماء وحددنا بعض المخابئ التى يمكن أن يتحصن وراءها بعض المدافعين !

ومع خطورة الموقف الذى كنا نواجهه ، لم يخل الجو من فكاهات كانت تبعث التأمل على الضحك قطعاً ، فبعض الزملاء أعطوا الجانب السينمائى من الموضوع إهتمامهم الأكبر فارتدى بعضهم قبعات وراح يطلب لنفسه القاباً عسكرية فضفاضة ، ومن يدرى أيضاً فلعله — لو اتيح له — كان يضع على صدره النياشين !

وبعض الزملاء ظنوا أن قيادة المعركة يجب أن توضع فى يد فتوات المعسكر أو أقواهم جسماً ، وكأنها معركة بين فتوات الحسنية وفتوات الرايلية !

وكنت مع نفر من زملائى نتأمل هـذه النماذج فنضحك ونأسف فى نفس الوقت ، إذ لم يكن فى وسعنا — وسط هذا الصخب والهياج — أن نوقف هذا العبث وندعو للتوجيه السليم ، غير أن الأمر على كل حال لم يكن يدعو لأن نذهب فى تشاؤمنا بعيداً فالإتجاه العام — تلقائيا — كان يهدف إلى الوقوف صفا واحداً ضد هذه المحاولة التى دبرت للاعتداء علينا وهو الاتجاه الفطرى الذى تدفعنا إليه جميعا غريزة الدفاع عن النفس .

وكان القومندان قد ترك المعتقل قبل أن يرفع الستار عن هذه المهزلة، كان قد تركه صدفة طبعاً !!

قبل ذلك بدقائق معدودات ، وكان مساء القومندان ، بحكم أوقات عمله ، لم يأت بعد . .

ويظهر أن الوقت المناسب قد أفلت من المتآمرين إذ أن مساعد القومندان

حضر صدفة فى ذلك اليوم مبكراً قبل موعده ، وكان رجلا نبيلا حقاً . . إنه البكباشى سيد أبو زيد الذى بعثه إلينا الحظ فى الدقيقة الأخيرة ليسد البـــاب بجسمه الضخم ، ويقول للمعتدين فى كلمة حازمة حاسمة : ان يدخل أحد منكم إلا على جثتى .

ولا شك أن الذين فكروا فى هذا المؤامرة الخسيسة لم يقدروا لها أن تفشل بحضور مساعد القومندان مبكراً . . ولا شك أنهم لم يقدروا لها أن يفتضح أمرها أمام العالم الخارجى بهذه السرعة ، فلم تلبث المفرضيات الأجنبية أن سألت عن الحادث . . ولم تلبث النيابة للعمومية أن تلقت أكثر من بلاغ .

ودهشت السلطات كيف عرف هذا الخبر فى نفس اليوم ، بل فى نفس اللحظة . . وكيف كانت هيئات عديدة تعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث قبل أن ترفع هذه التفاصيل الدقيقة إلى الحاكم العسكرى نفسه !

* * *

المسألة بسيطة للغاية ، ففى وسط الهرج الذى خشى منه الضابط المتآمر على حياته فخرج ، هرع نفر من المعتقلين إلى التليفون فاتصلوا ببعض الأصدقاء فى الخارج . وتولى أولئك الاصدقاء تبليغ مختلف الجهات ، ولولا هذا لما عرف أحد أى شىء . . وكيف يمكن معرفة ما يدور فى معسكر قائم وسط صحراء لا يسمح لأحد بالاقتراب منها باعتبارها منطقه عسكرية محرمة .

وتأثرت الإشاعات عن تلك المحاولة لاغتيالنا جملة ، فأحست السلطات الغاشمة برعدة الخوف من ثورة الرأى العام عليها ، وكانت مواصلتنا الإضراب عن الطعام بعد ذلك أمراً مزعجا للسلطات فلم تلبث أن أوفدت إلينا إثنين من موظفى الداخلية لمحاولة اقناعنا بالافطار على أساس « وعد شريف » بتحقيق مطالبنا الخاص بصرف كفالة شهرية لعائلاتنا .

ولكننا لم نكن نثق — وبحق — فى « شرف » رجال ذلك العهد ، وكنا نتندر بالحديث عن هذا الشرف المزعوم . . فلم تفلح المحاولة ، وانتهى الموظفان المنتدبان لهذه المهمة بسؤالنا عن « المبلغ » الذى يرى كل منا أنه يكفى لكفالة عائلته . . ثم انصرفا بعد أن جمعا ما سمعاه من معلومات فى أوراقهما .

ومضى يومان وثلاثة . . بدأت خلالها بعض حالات الأعياء الشديد تظهر على ضعاف الأجسام من المضربين ، وبدأت السلطات البوليسية تستغل حوادث فردية لجأ فيها إثنان أو ثلاثة من المعتقلين إلى خيانة زملائهم بالأكل سراً . . بدأت السلطات تستغل هذه الحوادث الفردية فى نشر جو من الإشاعات يساعد على قيام « حرب أهلية » بين المضربين ، وبشيع جـــوا من سوء الظن يساعد البوليس على فصم عرى التضامن بينهم كوسيلة لتحطيم الاضراب !

ولكن الإضراب سار فى طريقه يتقدم بنجاح فلم يحدث ما توقعت الحكومة وإدارة المعتقل من انهياره شيئا فشيئا ، وكان طبيب المعتقل — فى اليوم السابع — قد أدرك أن حالة البعض قد أصبحت تنذر بالخطر فرفع إلى مكتب الحاكم العسكرى تقريراً عن نتيجة الاضراب فى نهاية الأسبوع الأول من بدايته وفى اليوم الثامن عرضت علينا الحكومة — بواسطة إدارة المعتقل إنهاء حالة الإضراب على أساس التسليم بمطـــالبنا ، فتصرف لكل منا خمسة جنيهات كأسعاف مؤقت لحين إعتماد المبلغ اللازم لهذه الكفالات ودراستها بشرط إلا يجىء أول الشهر التالى إلا وقـــد تقررت لنا الكفالة بصفة منتظمة !

وتداولنا فى الأمر قبلى أن نعلن موقفنا رسميا من هذا العرض ، وقد رأينا أن سلاح « الإضراب عن الطعام » فى متناول أيدينا فى كل وقت ، وأن فى استطاعتنا

إستئناف هذا الإضراب إذا إحسسنا أن السلطات تخدعنا . . وقنا فى طابور نستلم « الجنيهات الخمسة » . . الإسعاف المؤقت . . عربون الهدنة التى قبلناها فيما يتعلق بالكفاح من أجل هذا الهدف بالذات !

وعدنا لنجد زملاءنا الأجانب واليهود المعتقلين قد أعدوا لنا أباريق « الشاى والبسكويت » لتناول الإفطار ، وفى المساء ، أو لعله مساء اليوم التالى ، أقاموا لنا حفلة سمر كبرى ، تكريما لأول انتصار نحرزه .

برقية إلى النائب العام

مؤامرة لقتل المعتقلين السياسيين !

كان قد تحدد يوم ٦ يونية سنة ١٩٤٨ لعرض القضية على قاضى الاحالة ، وكان الاسم الذى اختارته الصحف الصفراء لهذه القضية هو « قضية الشيوعية الكبرى » !

ولم تكن قضية « الشيوعية الكبرى » ! هذه والتى تمخضت عنها حملة اسماعيل صدقى ، بل حملة الإستعمار الانجلو أمريكى بتعبير أصح ، سوى قضية تجميع لعشرين مناضلا ، كل جريمتهم أنهم كتبوا — منفردين — رسائل أو مقالات يهاجمون فيها الإستعمار ، أو النظام الإقطاعى الذى يسنده ويحميه !

ولما حل الموعد ، كان سبعة من المتهمين فى هذه القضية موجودين فى معتقل هاكستب ، حيث قذف بهم الزبانية المجرمون الذين كانوا يتولون السلطة إذ ذاك ، وكنت واحداً من هؤلاء السبعة ، فتشاورنا فى الأمر ، وكان من رأيى أن نحضر هذه المحاكمة فإن خروجنا من المعتقل ، وعودتنا إليه ، سوف يثير عواطف الناس ويلهب حماستهم ، ولا سيما إذا انتهزنا الفرصة ورددنا بعض الهتافات على طول الطريق !

وعلى هذا قدمنا إلى إدارة المعتقل طلبا لتوصيله إلى الحاكم العسكرى نعلن فيه استعدادنا لحضور هـــذه القضية ، واضطر النقراشى الذى كان قد خلف اسماعيل صدقى إلى الموافقة رغم أنفه ، فالمعارضة كانت تقف له بالمرصاد . . . وجىء بـ « اللورى » الذى سيحملنا إلى دار المحكمة ، وبالجنود الذين سيتولون حراستنا وما كدنا نصل إلى حدود « مصر الجديدة » حتى بدأنا هتافاتنا المدوية . « تسقط الاحكام العرفية » . . . « يسقط الطغيان » . . . « الإنجليز فى القنـــال أيها الخونة » . . . !

وكانت الجماهير تصفق لهتافاتنا ، وتفهمها ، على الرغم من حمـــلة التضليل الكبرى التى تولى الكتاب المأجورين تنظيمها لصرف الانظار عن العدو الحقيقى — الإستعمار — بفتح جبهات أخرى لاستنفاذ قوانا ، وطاقتنا الثورية والعسكرية .

وعندما بلغنا دار محكمة مصر بميدان باب الخلق ، وجدنا البوليس السياسى قد أبعد جميع أقاربنا وزملائنا وأصدقائنا . . أبعد جميع الناس عن دار المحكمة وبالذات عن قاعة الجلسة حتى لم يبق فيها سوى خمسة أو ستة من رجال البوليس السياسى نفسه !

وعقدت الجلسة برئاسة قاض يدعى الأستاذ مصطفى توفيق — إذا لم تخنى الذاكرة — فوقفت أعترض على عدم قانونيتها لعدم توفر ركن العلانية فيها ، دون أن يكون ثمة قرار من المحكمة بجعلها سرية مثلا !

وقال القاضى : لكن الجلسة يحضرها بعض الناس !

قلت : أنهم جميعاً من رجال البوليس السياسى !

وقبل أن يعلق القاضى ، قال الزميل صبحى زغلول : هذا ضابط من البوليس السياسى . . وهذا مخبر . . وهذا . .

واضطر بعض رجال البوليس السياسى الى الانسحاب ، وسمح لاثنين ، أثنين فقط من الاهالى بحضور الجلسة إستكمالا للشكليات حتى لاندفع فيما بعد ببطلان هذه المحاكمة !

ولم تمض سوى لحظات حتى وجدنا حضرة القاضى لا يريد تأجيل القضية ، حتى رغم انسحاب المحامين ، ولاحظنا بعـــد ذلك إن حضرته لا يريد أيضاً ان يسمح لنا بأكثر من جلسة واحدة للدفاع عن العشرين متهما وهنا وجدت إن الفرصة يجب ان تغتنم عـــلى الأقل لإثارة قضية المعتقلين السياسيين فطلبت

الـكلمة وقلت فى مرافعتى — كما لخصتها جريدة المصرى فى اليوم التالى — إننى انتهز فرصة وجودى أمام المحكمة لأبلغ النيابة الممثلة هنا عن جريمة تعذيب كبرى تجرى داخل هاكستب . . أننا لا نعامل كمعتقلين ، بل ولا كأسرى . . بل نعذب بأساليب جديدة مبتكرة ، فرفقاؤنا يتركون ليموتوا بدون علاج . . ونحن نحشر حشراً داخل عنابر ضيقة خلف جدران لا تحجز وهج الشمس التى تصلينا بنارها فى تلك الصحراء ، وقد حرضت علينــا إدارة المعتقل جماعة من المتطوعين السعوديين الذين يتدربون قريبا من معسكرنا ليقتلونا على اعتبار أننا من الصهيونيين . .

لذلك فإننى انتهز هذه الفرصة لأطلب الى النيــابة التحقيق فوراً واعتبارا الحكومة مسئولة عن كل مايحدث لنا وهى تتركنا نعيش هناك تحت التهديد والخوف والإرهاب !

وخرجنا من المحكمة وأعادونا الى اللورى فاستأنفنا مظاهرتنا ضد الطغيان والحكم العرفى والاستعمار ، واجتمع ألوف من الناس حول اللورى فى ميدان باب الخلق يصفقون لنا . . وتحركت السيارة وبدلا من ان تذهب بنا الى المعتقل ، ذهبت بنا الى قسم الخليفة ، وهناك . . طلبوا إلينا أن ننزل ، ثم وضعونا فى الحجز ، وجاء عسكرى يطلبنى شخصيا . . وذهبت ، حيث وجدت فى مكتب المأمور ثلاثة ضباط . . أثنان من البوليس السياسى ، هما الصاغ عبد العزيز حجازى واليوزباشى ناشد حنا . . وواحد من بوليس روض الفرج هو الملازم أحمد رشدى الذى كان يرأس قوة الحراسة التى ترافقنا

وقال لى عبد العزيز حجازى : كيف تهتف ضد الحكومة . . الا تريد أن تعرف إن الأحكام العرفية معلنة ؟

قلت: وماذا يستطيع الحاكم العسكرى أن يفعل بنا أكثر من أن يعتقلنا وأنت تعرف أننا معتقلون بالفعل .

قال : أننى أمنعك من الهتاف !

قلت : لانستطيع . . سوف نهتف ، ونهتف ، وعليك إن شئت أن تبلغ النيابة ضدنا !

قال : النيابة ؟ . . هه . . كانت زمان ! الآن هناك وسائل أخرى لأمثالكم . . إن فى استطاعتنا قتلكم جميعاً !

قلت فى تحد : وما الذى منعكم من قتلنا إلى الآن ؟

قال : لاتتعجل . . إن الفرصة ما زالت مواتية . . إن القاء قنبلة واحدة على المعتقل سوف تنسفه بمن فيه ، وستنشر الصحف فى اليوم التالى إن طائرات اسرائيل هى التى القتها عليكم !

وهنا تحمس الضابط أحمد رشدى فقال وهو يخرج مسدسه ويصوبه إلى بعد أن حشاه بالرصاص : أقسم بالله العظيم لو هتفتم بأى هتاف لأضربك بالرصاص وأقول أنك حاولت الهرب . . أضربك أنت أولا . . وكل من يهتف ثانيا . . أقسم بالله العظيم اننى أستطيع ضربك بالرصاص فى الطريق الصحراوى وسأنال ترقية على هذا العمل !

واستراح عبد العزيز حجازى لموقف الضابط فقال لى فى تحــد : أتفضل بقى أهتف واعمل زعيم .

وذهبت إلى زملائى فعرضت عليهم ما جرى بالحرف الواحد ، وتداولنا فقررنا ألا نستجيب للاستفزاز ، إذ كان البوليس السياسى فى ذلك الوقت يرتكب الجرائم ، جرائم القتل فعلا ، وينال عنها الترقيات .

وعندما ذهبنا نركب اللورى ليعود بنا إلى المعتقل سألنى الضابط فى تحد : هه . . هل تنوى الهتاف ؟

قلت وأنا احاول أن أوحى إليه بشىء ما . . إذا مررنا فى شوارع عامرة بالناس سنهتف بالطبع . .

ونجحت الخطة التى قصدتها ، إذ تعمد الضابط أن يمر بنا فى شوارع مهجورة تماما ، حتى إذا ما وصلت السيارة إلى قلب الصحراء . قال لنا الضابط ، وكان يرفع مسدسه فى وجوهنا طول الوقت : هه ما تهتفوا .. ساكتين ليه ياجواسيس يا طابور خامس .. يا أولاد ..

ووصل اللورى إلى المعتقل قبل أن يستجيب أحدنا لهذا الاستفزاز المقصود..

وفى المعتقل كتبت بلاغا إلى النيابة أطالب فيه بالتحقيق فى هذا التهديد من ضباط البوليس ، ووقع البلاغ معى عدد من الزملاء .

ولكن النيابة لم تتحرك بالطبع .

العمل بالصحافة من وراء الستار !!

منذ ذرعا بتسمية بياناتنا السياسية منشورات ، وتعقب موزعيها كما يتعقبون موزعى المخدرات ، ولقد أصبحت تلك البيانات مهما كانت موسومة بالطابع القانونى ، شيئا محرما ، بل ومجرما .. مقدما !

قلت لنفسى إنى صحفى ، وأعمل فى عشرات الصحف ، فأنا فى أوج شبابى ، موفور الإنتاج ، سريع الكتابة ، أحرر وحدى مجلات عديدة بعضها متناقض ، وبعضها متشابه ، لكنى كنت دائما أمينا مع أصحابها ومع نفسى ، وقد وضعت مبدأ لا أحيد عنه ، أكتب المستطاع .. وفى حدود القانون ، وأنا فوق ذلك لا أعطى محررها المسئول مقلبا ، ولا أكتب شيئا من وراء ظهره ، وقد استطعت — رغم ذلك — أن انشر الكثير مما كنت اتمناه ، وقد جلس الدكتور السيد أبو النجا يحاورنى فى نوع المادة التى سأكتبها لجريدة المصرى ، وكنت مرشحا للعمل بها ، بحيث لا أتعرض للسياسة ، إذ كان الملك فاروق يتهمهم بالشيوعية منذ توغلوا فى نشر فضائح الملكة نازلى وبناتها

واقترحت أنا أن أكتب لهم قصصا ! وظننت إنه سيفرح بهذا ، لكنه ابتسم ابتسامة مشفوعة بغمزة ، وقال : وهل هناك ماركسى لا يلتزم بالكتابة لغير المجتمع .. لاشك أنك ستحاول بإخلاص .. ولكن كيف تضمن حياد فكرك ؟ .. وهل تسيطر على مشاعرك ووجدانك ؟ .. أو لعله قال كلاما من هذا القبيل !

وتذكر الدكتور أبو النجا إنى من أحدث خريجى معتقل هاكستب ، فنظر إلى طويلا ، ثم قال : أسمع .. أنت لم تسترح بعد من المعتقل ، فاعتبرنى أخيك الأكبر ، وسأختار لك عملا مناسبا يحمينا نحن من الحرج .. وأنت من نفسك! ويعطيك الفرصة لأفكار جديدة ، وأظنك رجل يحب الابتكار .. ما رأيك

لو اشتغلت معنا فى إدارة التوزيع .. اننى أطمع فى قسم فنى كبير يتولى الاشراف والتوجيه فى هذه الإدارة ، ويمدنا بالبيانات ، والإحصاءات ، والتقارير الفنية .

والتقطت الفكرة فى الحال ، وفرحت إذ أنه بهذا يعهد إلى بعمل صحفى كنت تواقا إليه ، فأنا لا أنسى أنى عشت للنشر والصحافة وأعطيتهما كل وقتى وحبى ، بقدر ما فشلت فيهما الظروف السياسة وهى خارجة عن إرادتى . أو لعل هذا هو ما أتصوره على الأقل لكى يقدم لى شيئا من العزاء !

وأقبلت على عملى الجديد بحماسة منقطعة النظير رغم ضآلة المرتب الذى قال الدكتور أبو النجا بلباقته المعهودة فيه إنه لم يعط لشخصى ولكنه المبلغ المحدد لشغل هذه الوظيفة بالذات ، وإنه سيزداد طبعا بمجرد أن يرى عملى بعد ثلاثة أو أربعة شهور .

واظن اننى كبدت إدارة التوزيع شيئا كثيرا من النفقات التى ذهبت فى طبع عشرات الدفاتر والنماذج والخرائط والتقارير اليومية ، والاسبوعية ، والشهرية ، والسنوية .. ولعلى كبدت « المصرى » فى ذلك الحين الكثير من الجهود لنقل أو تعيين عشرات الموظفين الجدد الذين يتولون العمل فى ذلك المكتب الفنى .. وعزائى ان بعض هذا التنظيم لا يزال باقيا الى الآن ، تنتفع به حاليا شركة توزيع الأخبار .

ولقد ختمت جهودى هناك بتقرير طلبت رفعه إلى الدكتور أبو النجا ، كان يرمى إلى تنشيط العمل فى الشركة بصفة عامة . إذ لاحظت أن السبب الرئيسى فى قلة نشاط التوزيع بالنسبة للمجلات خصوصا ، هو اختفاء العامل البشرى .. إذ يكتفى حوالى ٩٠ ٪ من الباعة بتوزيع وجبة الصباح من الجرائد اليومية ، ثم يركنون إلى الراحة أو العمل فى أشياء أخرى بقية النهار ، إذ لا يكفيهم توزيع جريدة واحدة مسائية أو يربطهم بها طوال المساء ، وأن هذا هو سر عدم توزيع الجرائد المسائية بنفس القدر ، مع أننا بلد ترتفع درجة الحرارة فيه إلى أربعين درجة فى الصيف ، واقترحت فى ذلك التقرير أن نطبع ملحقا للمصرى أو غيره

يباع بنصف قرش ، ليقدم فى القاهرة فى الثانية عشرة ظهراً آخر الأنباء ، وذلك حتى تظهر جرائد المساء .

وعندى أن هذه المشاغل التوزيعية تغنى البائع عن الأعمال الأخرى ، وتجعله يجند نفسه طول اليوم متفرغاً لتوزيع الصحف .. وأننا بذلك نضرب عدة عصافير بحجر واحد .. فننشط توزيع المجلات الاسبوعية والكتب الشهرية . وتوزع الجريدة المسائية مع جريدة الظهر ، ونزيد الموزعين للصحف عموماً .

ومن الطريف أننى فى اللحظة التى فكرت فيها أن الدكتور أبو النجا سيفاجئنى بمكافأة ضخمة ، أو زيادة محسوسة فى مرتبى ، كما يفعل مديرو الأعمال الأمريكيين .. وبلغت أحلامى — وأنا رجل حالم ! — إلى حد التفكير فى رد المكافأة ، أو الإعتذار عن زيادة المرتب إذ يكفينى ويسعدنى أنى حققت شيئاً للصحافة .. فى نفس اللحظة ، سلمتنى الإدارة خطابا رقيقاً من الدكتور أبو النجا يفصلنى فيه من العمل بعبارات غاية فى الرقة ، واللباقة ، والأدب .. أظنه لا يزال محفوظاً فى ملف إحدى القضايا المتعلقة بى فى مجلس الدولة ، ولقد أعجبنى خطاب الفصل حقيقة حتى أنى اعتبرته حدثاً هاما ولطيفا فى حياتى .. ولا زالت تنطبع على صفحة نفسى بعض عباراته لفرط ما كان لها من تأثير وجدانى .. كانت العبارات الأولى منه عبارة المجاملة التقليدية ، عن شكره العميق بمناسبة إنتهاء خدمتى ، رغم ما أديته من خدمات جليلة وما قمت به من واجبات ، وما أظهرته من كفاءة وبراعة ، ومن شهادته بأنه لم يحدث شئ ولا من آرائى السياسية ما يؤثر على عملى ، غير أننى .. منذ إلتحقت بالشركة أحاطت بها ظنون وشبهات أنا حريص على أن أدفعها عنها ، قياما بواجبى كعضو مجلس الإدارة المنتدب .. !

ولإذا كان لا بد من تلخيص ظروف هذا الخطاب ، والمصادفات السيئة التى جعلته يصلنى فى وقت غير مناسب ، فذلك أن الحكومة التى كنت أعارضها فى

ذلك الحين نشرت جواً من الإرهاب الشديد بهدف الإساءة إلى سمعتي باعتباري خطراً على الأمن العام ! وقد أحاطتني باثنين من عملائها في نفس الشركة ، كان أولها يعطيها أخباري أولاً بأول ، وكانت « الصنعة » تغلب عليه فيبلغ البوليس السياسي عما فعلته مضروباً في عشرة ، وعما لم أفعله على الإطلاق . . من ذلك أنه زعم أنني اخترت لمجموعة « كتب للجميع » التي كانت تصدرها الشركة إذ ذاك مجموعة من الكتب الشيوعية مثل « المعذبون في الأرض » للدكتور طه حسين و « حب العظماء » لسلامة موسى ، فاستدعى المرحوم توفيق صليب الدكتور سيد أبو النجا وعاتبه على استخدام فتحي الرملي واختيار تلك الكتب ، وقال له أنني حولت الشركة كل الكتاب الشيوعيين ! .

وهذه كانت جريمتي الأولى ، وهي جريمة يعرف الكل أنني لم أرتكبها ، إذ اختيرت هذه الكتب قبل أن ألتحق بالشركة ، وجاء موعدها بعد أن استلمت عملي فعلا ، ولكنه جو الإرهاب الذي نسب إلى جريمة لم أرتكبها ، وشرفاً لا أدعيه ! .

والعميل الآخر موظف كبير السن ، توهم أنني جئت أقطع رزقه ، أو احتل المكانة التي كان يستحقها بحكم أقدميته ، وله الحق طبعاً أن يثور ، ولكنه أفرغ ثورته على بطريقة خبيثة جداً ، فقد رتب مقلباً حقيقياً ، إذ استكتب موظفي المكتب جميعاً مذكرة للشركة بإعطائهم بدل عمل إضافي عن مجيئهم بعد الظهر ، وبعد أن وقع عليها الجميع عرضوها على فوقعتها من باب المجاملة لمرءوسي ، وواضح أن هذه العملية كانت السبب المباشر لرفتي ! .

وطبعاً لم أفتح فمي بكلمة . فلم يكن العمل يغريني بمرتبه . وإذا كنت سعيداً به فذلك يرجع لحبي للصحافة أولاً وأخيراً ، ولو في عمل غير مباشر ! .

° ° °

وحاولت أن أعود إلى الصحافة ، فوجدت الطاغية الذي كان يحكم آنذاك ،

قد أعطى — بواسطة رجاله — جميع الصحف المؤيدة والمعارضة ، أوامر مشددة بألا أعمل . . وكان العمل في دار الهلال مفتوحاً بصفة دائمة أمام جميع الصحفيين ، إذ أن العمل هناك بالقطعة ، الخبر بعشرين قرشاً ، والعمود بجنيه ، والمقال بثلاثة جنيهات . . وقد يرتفع أجر المقالة إلى خمسة أو عشرة أو عشرين جنيهاً حسب « شطارة » الكاتب في المساومة على أجره ! .

وقد ذهبت إلى أميل « بك » زيدان وعرضت عليه أن « أكاتب » دار الهلال — وكان يعرفني — فرحب بي ، وبدأت أمده ببعض مقالات نشرت جميعاً بلا استثناء ، وحصلت على أجرها ، وكان أجراً وفيراً بالنسبة للإنتاج ، ولكن بعد شهر واحد ، تنبه من يحاربونني عن طريق الأمن العام إلى عملي الجديد بدار الهلال ، ولم يلبث أميل « بك » أن استدعاني وقال لي . . إحنا متأسفين ولكن لن يكون بيننا تعامل بعد الآن ! .

قلت للرجل مندهشاً : خير . . ؟ . . ما الذي حدث ؟ . .

وأجاب أميل بك وهو يصر على أسنانه يحاول أن يكتم شيئاً : مفيش . انت عملت إيه ؟ . .

قلت : أنا الذي أسأل . .

وتدارك أميل « بك » فوقف يمد يده متعجلا إنهاء المقابلة : أبداً . . والله مفيش . . حنكون أصدقاء . . إنشاء الله . .

وحدجني بنظرة إنسانية وهو يسألني : هل لك عمل آخر تعيش منه ؟

وأدرت له ظهري حتى أخفي دمعة حاولت أن تتمرد كبريائي ، ولم أرد على سؤاله ، ولا سألته مزيداً من المعلومات عن سبب طردي ، وأنا الأثير اليوم المحبوب عندهم ، الذي أحظى بتقدير كبير لإنتاجي ، ويكفي أن أقول أنني كنت

الوحيد الذى لا أدفع رشوة لبعض الرؤساء . ومع ذلك تنشر مقالاتى . حتى يعرف الزملاء الصحفيين مدى ما كنت أحقق به من تقدير .

وحاولت أن أستعرض فى ذاكرتى كل من يمكن أن يكون له دخلا أو علاقة بموضوع أبعادى عن دار الهلال ، ومن المصرى من قبل ، ولم يستقر رأيي إلا على إسمين لا أعرف كيف خطرا لى . .

موريس أشكنازى . . وكان هو أول من قابلنى فى المصرى !

وجوزيف أنكونا . . وكان هو آخر من رأيت فى دار الهلال !

وكان الأول سكرتيراً خاصاً للمرحوم السيد (محمود أبو الفتح)

وكان الثانى مديراً لدار الهلال ، وشريكا فعليا للسيد / أميل زيدان .

وكان كلاهما يهودى ، بل وصهيونى ، وقد حاولت بينى وبين نفسى أن ألصق بهما تهمة أبعادى من العمل ، ولكنى خشيت أن يضحك الناس على ، وقد يحاول بعضهم أن يتهمنى بالجنون .

كان كل ما فعلته أننى قبلت التحدى . . ورحت أفكر بسرعة كيف أرتب حياتى فى حالة محاربتى فى الرزق من من أية قوى واضحة أو مجهولة . . لقد اخترت حياتى ، ورسمت خريطتها ، وأنا أعلم أن طريق صعب وملىء بالصخر ، ومع ذلك قررت إلا أعدل عنه ولا احيد ، وأقسى ما قد اتعرض له سيكون بالطبع من صنع إنسان قد يكون اسبق عنى فى وضع الصخر الذى تتعثر فيه قدماى ، ولكن طالما انتبه ، سأزيح الصخر من طريق لأواصل السير . . وقد يكون ذلك الإنسان اقدر منى فى لحظة من اللحظات على فرملتى . بأى اسلوب لكنى على ثقة من ان إيمانى بفكرة اعتنقها ، سيجعلنى انتصر على كل حيلة او نفوذ او إمكانية . وعندى ان الحاجة تفتق الحيلة ، وان الحيلة تشحذ الذكاء . . وان الإرادة الصلبة لا تعرف المستحيل .

وقد قلت لنفسى . . إننى كنت أتحايل على النشر فى الصحف وأنا بعد غلام صغير ترفض الصحف نشر مقالاتى كلما وضعت عليها صفتى ، طالب بالمدارس الثانوية ، فاستبدلتها بصفات أخرى مثل ، محام بالاستئناف العالى ، ، أو مستشار . . أو مهندس . . بل لقد هيأ لى شيطانى يوما أن اضع بنفسى رسما لأحد مؤلماتى – آراء مضطربة – وأكتب أنه للرسام العالمى ، سال ، ! وبالفعل صدرت بعض الصحف التى أطنبت فى الحديث عن الاستاذ العالمى مصمم الغلاف دون أن تذكر شيئا عنى !

وأصدرت يوما بحثا قانونيا عن الشيوعية والقانون المصرى . . أثنى عليه كبار المحامين لأنه بقلم ، مستشار سابق بالنقض ، .

وكنت أفعل هذا لا للدعاية مثلا ، فأننى لم أضع اسمى عليه ، وأن كنت – وليسامحنى الله – كنت أجد بعض اللذة فى استعراض شخصيتى أمام نفسى . . وأراها من خلال نظرات الناس لذلك الجهد . . وفكرت . . لماذا لا أفعل فى الصحافة شيئاً كهذا . . لقد ثبت لى شخصيا أننى صحفى موهوب .

فلماذا لا أشتغل بالصحافة بلا ضجة ولا إعلان . . بل من خلال شخصيات أخرى تكتفى بما تحصل عليه من شهرة ، وتدفع لى مقابلا تتقاضاه من مال وكانت المسألة تحتاج إلى الشىء من التكتم ، فأخفيت هذا عن أقرب المقربين لى ، واستفدت من هذا كثيراً ، إذ تضاعف عملى وبالتالى تضاعف دخلى ، ولم أعد أتعرض لمثل ما كنت أتعرض له قبلا . . وكانت المفاجآت التى تمت من وراء هذا العمل لطيفة ، منها أن بعض ما كنت أكتبه بجنيهين ، بدأت أتقاضى عنه خمسة ، وظهر إننى لا أجيد المساومة ، أو إننى لا اعرف قدر نفسى .

وبما أن الله حليم ستار ، فلن اسمح لنفسى بكشف عشرات من عملائى سواء من كانوا لايزالون أحياء ، أو من توفاهم الله ، فقد اشتركنا فى جريمة التزوير معا ، وكنت مضطراً إليها لأعيش ، وربما كانوا هم – وبعضهم من اولاد

الذوات — مضطرون إلى هذا ليظهروا للناس ، أو لعشيقاتهم أنهم كتابا وأدباء . . ولقد أصبحوا كذلك بالفعل . . ان من مات مات وهو مرموق الشهرة . محسوب من كبار الكتاب . ومن عاش إلى اليوم فإنه يتمتع بمكانة أو منصب يحسده عليه كبار الكتاب بالفعل !

لكنى لم ألبث إن بدأت أضيق ذرعا بهذا العمل ، فبين الكاتب المزيف ومن يكتب له ، عدواة تظل تستحكم ، ويدعمها الزمن ، وبقدر مايحس الكاتب المزيف أن الناس والمجتمع ينظرون إليه باحترام وتقدير ، يظل متشككا فى نظرة الكاتب الحقيقى له ، بل ويحس أمامه بالمهانة والإزدراء .

هذه واحدة ، والثانية أن بعض أولئك الكتاب المزيفين بدأوا يصدقون القراء . فيحتالون حقرق على أنها ثمن مقالاتهم ، ولذ لبعضهم أن أجرى وراءه وأن أظل أطارده ليدفع ، وهو يدعى مرة أنه لم يقبض بعد ، ويدعى مرة أخرى أنه رد ما أعطوه له لأنه قليل ، ومرة ثالثة يظـــل يراوغ حتى أعلم أنه سافر إلى باريس .

المهم فى كل هذا تلك الصحف التى كانت تصدق . وكانت تنطلى عليها دعاوى المزيفين إلى حد أنها — تلك الصحف — رفضت الحقيقة عندما قيلت — بعد ذلك — لها . .

بين الجمهور المصرى وأخبار اليوم!

فى سنة ١٩٥٠ إلتحقت بجريدة « الجمهور المصرى » . من ناحية لأنى كنت أعجب بصديقى « أبو الخير نجيب » رئيس تحريرها ومديرها ، كنت ولا أزال أعجب بشخصية أبو الخير ، بساطة وشجاعة معا . . ورغم أنى كنت أعرفه من بعيد ، فلم أكن أومن به كصحفى . . فكان عندى مجرد « ريبورتر » أو مخبر صحفى ، وهو نوع من الصحافة أو هو فرع منها وليست الفن الصحفى بمعناه الكامل ، بمعنى أنه لم يكن كاتباً بالذات ، وعنـــدما ذهبت لاستلام عملى ، اكتشفت أنه أيضاً لا يعرف عنى شيئا كصحفى اشتغلت فى جميع الصحف تقريبا ، غير أنى أكتب بعض المقالات . . أحيانا !

ولم أفهمه ويفهمنى تماما من هذه الناحية إلا بعد إن انقضت فترة من الوقت ، كان العمل الصحفى كله فى جريدته قد انتقل إلى يدى ، فالمراجعة كلها أصبحت من اختصاصى ، ورسائل القراء ، واختيار العناوين ، وإعادة صياغة الأساليب . وإعادة تركيب الموضوع بالعبارات المثيرة : وإنهاءه بالجملة المثيرة أيضا . . كل ذلك أصبح هو بعض عمـــلى ! بل وأصبحت التوجيهات العامة — حتى فى الإدارة والإعلان من الموضوعات التى أسأل عنها ولو على سبيل الإستئناس بخبرتى ، فقد أصبح أبو الخير يظن أن آرائى دائما جديدة !

ومن ناحيتى فإن خبرتى كانت تزداد يوما بعد يوم . وتنمو بسرعة . وأصبحت أجمع كثيراً من الإختصاصات وأولها « الميزانباج » أو فن إخراج الجريدة . . بل وقد ظن أبو الخير أنى أصبحت أنافس مخبرى الصحف والمجلات أيضا . . فأنا أقابل أعدادا كبيرة من الناس ، ولا شك أنى أستعيد بصداقاتى الذهبية العريضة هذه !

وكنت أنا أعرف عن نفسى القدرة على صياغة السطور ، والتفنن فى طريقة عرضها مع الإثارة المطلوبة ، وكنت أتمثل فى كتابة أخبارى بقول السيد المسيح : كن حارا . . أو كن باردا . . ولكن لا تكن فاترا فإننى أوشك ان أتقيأك .

ولم أكن إذ ذاك أهتم إلا بعملى . إذ كنت لا أزال فى طور البداية ،

وفوجى أبو الخير — بعد المحررين الذين كانوا يعملون معنا — حين وجدونى اكتب بسبعة أرواح . . أكتب واقلد عشرات الأقلام . . اكتب والسياسة ، وفى الفكاهة ، والقصة . . الكتابة الهازلة والجادة . . الساخرة والثائرة . . الاسلوب القديم ، اسلوب التراث . . والأسلوب المصرى الجديد المبتكر ، كما كنت اعيد صياغة المقالات ، وتركيبها من جديد . . واختار لها المقدمات التى تحتوى على براعة الإستهلال والخواتيم التى يحكم القارىء لأول وهلة بأن فيها مسك الختام . . كنت اكتب رسائل مفتوحة إلى فلان وعلان بأسلوب . . واكتب ركن الصيف بأسلوب ثان . . واكتب التيارات السياسية بأسلوب ثالث . . واكتب التعليقات الإجتماعية بأسلوب رابع . . واختم هذا كله بالرد على رسائل القراء بأسلوب خامس او سادس .

وفوق ذلك كله فقد اصبحت ، اطبخ ، الموضوعات والريبورتاجات المختلفة فينبض فيها الروح والإحساس . . واستطعت فعلا ان انشىء مدرسة صحفية جديدة تشيع البهجة فى قلوب القراء وتعتمد على الجديد . والمثير . . وكانت مقالاتى الإفتتاحيـــة تنقل إلى جميع الصحف الاجنبية . . المحلية والخارجية . .

ومن المقالات التى ترجمت فور صدورها . . جميع افتتاحيات جريدتى ، البشير والمعارضة ، اللتين كنت اوالى إصدارهما بين اعوام ١٩٤٩و١٩٥٢ . . وقد ذكر لى المرحوم الأستاذ عبد اللطيف حمزه مرة وهو يجلس عندنا فى دار نقابة الصحفيين ، انه يريد ان يستفيد طلاب الصحافة بهذه المقالات وقال انه يجمعها . وطلب منى ان اساعده على جمعها

هل تظن — عزيزى القارىء — اننى مغرور ؟ . . نعم اننى مغرور تماما فى نفسى . . واعتقد إن الذين ظنوا اننى من اكفأ الصحفيين الذين ظهروا فى نفس الفترة ! لم يجاملونى ، ولم يقولوا إلا صدقا ! ولاشك ان الك — عزيزى القارىء — فى كاتب هـــذه السطور راى آخر . . فأنت بالتأكيد لاتعرفنى . . فقد ضرب حولى نطاق الصمت منذ اكثر كثيراً من عشرين عاما . . ولا شك ان القارىء يتفهم كيف احاول هنا ان انفس — ولو قليلا — عن إيمانى بنفسى ، بعد صمت امتد طويلا !

ونعود إلى حديثنا . . لقد قررت ان اتفانى فى عملى واعتبرته نوعا من العبادة . . وأنا ازاول الصحافة كمهنة ورسالة فى وقت معا . وقررت ان اعيد دراستها وان اعمل فى كل ناحية وان لا اتأخر ايضا عن اى عمل . ولذلك لم يكن غريباً أن أصعد السلم القصة التى كان يتحدث عنها عادة الزميل على أمين للمرة الثانية ، بل أن جعلت من حكاية السلم والتى كا نتحدث عنها ساخرين او ضاحكين . . جعلتها تتمثل لنا حقيقة لا خرافة .

وكان كل الذين يعملون معى يعرفون هذه المسألة ولكن واحداً هو زميلنا الراحل احمد عصفور انتهز الفرصة لاستغلالها ، وكانت بينه وبين الأستاذ ابو الخير بعض ضغائن فأراد أن يدق اسفينا فى علاقتى بالجريدة وليخبر صاحبى بأبى الخير نجيب ، فلم يكتشف إلا ما هاله . إذ رآنى وصاحب الجريدة ، شخصاً واحداً . فلم ينفع الدس . . ولم تنفع الوقيعة .

ولم تنفع أيضاً فى نفس الوقت المحاولات التى بذلتها أخبار اليوم لاستمالتى للعمل بها . ولهذا قصة ارى أن أشير اليها بمجرد إشارة عابرة فقد أقتضتنى ظروفى فيما بعد أن ارضخ واقبل الإغراء المعروض على للعمل بجريدة أخبار اليوم . فقد حدث ما أخرجنى عن طوقى . إذ اعتقلت فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ . فقطعت الجمهور المصرى . راتبى . . وكتبت لصديقى . . الأستاذ أبو الخير نجيب اذكره أننا كنا نعمل من أجل قضية عامة ولا يجب أن ينقطع مرتبى لمجرد اعتقالى ، فإن هذا بين المجاهدين عيبا . . . بل هو فضيحة . . وضاعت محاولاتى عبثاً . . فقد أصر الصديق على أن يناقشنى بأسلوب صاحب العمـــل ، وقلت وأنا أحاول إقناعه . هل ترضى الإحتكام إلى أحد . . ؟ فرحب بهذا كما بدا لى واختار صديقه الأستاذ حسين أبو الفتح فقبلت ذلك عن طيب خاطر ، ولكن انقضى الموعد ولم يحضر الأستاذ أبو الخير . . وكان طبيعيا أن ينتقل الاحتكام إلى قاضى المحكمة العمالية المختصة ، فحكمت والقضية لصالحى ، وصالح الزميل الآخر الأستاذ إبراهيم البعثى مدير تحرير المصور الآن .

وبعد خروجى من الاعتقال ، أقبلت على العمل واستئناف نشاطى بجريدة الجمهور المصرى . . حتى قبل أن يصدر الحكم الذى كنت واثقا منه ، وإحساسى بضرورة العمل فى الجريدة التى اعتبرتها جريدتى بالفعل رغم الأسلوب الذى

اتخذه الأستاذ أبو الخير فترة اعتقالى ، إذ كان الإحساس العام عند المواطنين بضرورة تصحيح مسار الثورة قبل أن تتورط أكثر فيما لا يجوز أن تتورط فيه . ولكن — وهذه إرادة التاريخ — لم تسمح الظروف بالعمل العظيم الجاد الذى نفذه أنور السادات فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ . . وفى خلال هذه الفترة تغيرت معاملتى فى الجريدة ، وفى نفس الوقت كثرت محاولات أخبار اليوم لاصطيادى من الجمهور المصرى وجرى للعمل بأخبار اليوم ، وذات يوم ذهبت إلى دار الأخبار وقابلت مصطفى أمين الذى رحب بى ، وكان مهذبا معى ، ولمست شيئا من معاملاته مع موظفيه فى الدقائق التى مكثتها عنه ، وقد عرض على فى ذلك اليوم أن استعد للإشراف على « أخبار اليوم » إذ أنه ، وعلى أمين ، سيتفرغان لـ « الأخبار الجديدة » التى كانا يزمعان إصدارها من الشهر التالى وطلب منى أن انفرد بإصدارها وقال لى مصطفى أمين فى لهجة رقيقة : أرجوك .. لا تجعلها وفدية .. ولا تجعلها شيوعية .. وا كتب بعد ذلك ما شئت

قلت له : أنا رجل واقعى . وسأظل أشعر بالحقيقة التى لا تغيب عنى لحظة .. فأنا « عامل » ، وألقت بى الظروف فى بورصة العمل ، وأعمل عندك . فضحك وقال مندهشا : يعنى عند رأسمالى ؟ وضحكت بدورى وقلت : وأنا أحترم جميع الأوضاع الطبيعية ، ولا أحاول أن أثور أو أتمرد عليها فستجدنى دائما شريفا فى كل معاملاتى معك وإلتزاماتى قبلك ؟

لكننى سرعان ما اعتقلت مرة أخرى بعد سبعة شهور . . وأخرجت من العمل بأمر صلاح نصر .. معروف طبعا ! وأرسل مصطفى أمين إلى زوجتى ينذرها بأن تكتب تعهداً بعدم العودة إلى صراف « أخبار اليوم » مرة اخرى .. لقد طرد فتحى الرملى . . . من يدرى لو ان الأستاذ مصطفى امين عرف ما كان مقدراً له فى الغيب . ولو تأمل كل ما كان يخبئه له القدر . . ولو عرف من اين كانت ستصيبه الضربة ، لو ان ذلك كان قد حدث فهل كانت تتغير خريطة حياتى أنا ؟..

واعود إلى جريدة الجمهور المصرى ، لقد استطعت مع اسرة الجريدة متعاونين أن نقفز بالجريدة حتى تبلغ من الإنتشار والرواج ما لم تبلغه أية جريدة مصرية ، وكان العدد فى بعض المناسبات يباع بستين ضعف ثمنه . بجنيه كامل ! وليس هذا خـــرافة ولا مبالغة . . لولا أن بعض خصومها من كبار

الجواسيس راحوا - مع الإنجليز - يشنون عليها حملة محمومة ومجرمة ، واستطاعوا أن يعملوا بطريقة المخابرات الإنجليزية والأمريكية على تخريبها من الداخل ، فاشتروا بعض « الحثالة » والمرتزقة الذين تسللوا إليها من خلال حسن نية صاحبها وعطفه على أولئك المرتزقة فتآمروا عليه وراحوا يكيلون له التهم بالجملة وهى عملية « الاسقاط » المعروفة عند علماء النفس !

لقد جاءوا بكل القذر والاوساخ التى كانوا غارقين فيها ، وحاولوا أن يهيلوها عليه ، وقد انتقم الله منهم ، إذا قضى على أولهم بستة شهور فى قضية نصب وتبديد ، و « قابل » الحكم بكل صمت !

إذ لم يستطيع أحد من سادته أن ينقذه منه !

وبعد أسابيع كان الكبير فيهم قد ضبط فى وضع غير محمود !

وإن كان الضابط الذى رآه متلبسا بجرمه لم يشأ أن يذله ، ولو من باب « الآداب » !

وشاء أن يبتلى أكذبهم بتهمة سرقة اعترف بها بلا إكراه . . وإن الله « غفار » رحيم !

والرابع والخامس أصيبا بأسوأ ما يصيب الإنسان . . فحرما من الموت وحرما من الحياة !

وكأنما كان الزميل وليا من أوليـــاء الله . إذ سرعان ما انقلب الشر الذى قصد به أبو الخير سيئـــا فى صونه بقية عمره من ان يتردى فى الوحل ويلطخ اسمه أو تمس سمعته ، وحتى ولو كانت حياته داخل أسوار السجون !

وكان الزميل فى فترة إصدار الجريدة سىء الادارة يظن أن الاقتصاد هو « القربطة » أو « التدقيق » وأن « التوفير من حسن التدبير » . . كما يقول العامة ومن إليهم ، وكان ذلك من ابرز عيوبه ، وا كبر ذنوبه !

وواتتنى الفرصة فى هذه الجريدة لأترجم الأسلوب الوطنى الشريف الحر إلى أسلوب الصحافة الأمريكية فى الإثارة والتشويق ، والأسلوب الساخر الرشيق وبالطبع لم تكن الصحف الاخرى تستطيع أن تجـــارينا فى طريقتنا المبتكرة ، فقد كانت طريقتنا فى التجديد والإبتكار تعتمد على تحويل الإثارة عن طريق الجنس والتهريج الاخبارى إلى إثارة سياسية تستهدف توعية القراء ، وتحمل

على تركيز اهتمامهم وشده إلى الموضوعات الوطنية ، والمسائل الاجتماعية والإنسانية وإذا كان هدف الدراما عند أرسطو وسقراط من قبل هو « تطهير النفس » فقد كانت الصحافة عندى هى تركيز الذهن على الحقائق وليس زغللتها بالأكاذيب كما تفعل الصحف الامريكية ومن يلف لفها !

العسكرى الأسود !

كان هناك موضع الإرهاب فى العهد البائد البغيض ، وكان الواجب يقضى بإثارته وتشديد التنكير عليه حتى لا يعود أكثر وحشية ، وأفتراسا . وكان ثمة موضع خطير لا ينبغى السكوت عليه كما كان موقف الجرائد الرجعية — وكانت كلها تقريباً رجعية فى ذلك العهد — فقتحنا نحن الموضوع من أوسع أبوابه ، ولم تقتصر جريدتنا على معالجة المسألة بمقال لرئيس التحرير مثلا . . كلا . . ولا بالمذكرات يكتبها فلان أو علان من الشبان الذين لم يفتح البوليس أفواههم إلا باستخدام القوة . . كلا أيضاً . . إنما بحثنا عن آلة التعذيب الجهنمية التى كان الطغاة يستخدمونها لارتكاب أكبر الجرائم إذ كان المتهمون فى أكثر القضايا يؤكدون أن ثمة « عسكرى أسود » يقتدب لتعذيبهم بألوان من الاكراه البشع لعلهم يخضعون . وأمسكت سماعة التليفون وسألت اولئك المتهمين . إلا تعرفون إسمه . . قالوا جميعاً . . لا . . وعدت أسألهم . . إلا تعرفون أوصافه؟ . .

فقالوا أيضاً ليس على وجه التحديد !

وسألتهم اخيراً . . الا تعرفون بلده ؟ . وكانت أجاباتهم أيضاً . . لا ؟

ونشرت هذه المعلومات ورصدت خمسين جنيها مكافأة لمن يدلى بمعلومات تمكنى الارشاد عنه . . وتحملت المسئولية فى تلك الغرامة ، فقبلت أن تقطع من مرتبى . . وراهنت على ذلك صديق رئيس التحرير الذى قال أن « الفربطة والتدقيق » كانتا من أبرز عيوبه ، وأكبر ذنوبه !

ولما صدر العدد ، ومرت الأيام دون أن تجد لندائنا صدى ، عقدت إجتماعا بمكتبى من بعض المحررين ، وقلت لهم أن البوليس السياسى يسخر — ولاشك — منا الآن إذ كيف نزعم إننا وطنيون ، وفى نفس الوقت لا نستطيع أن نكشف سرا بسيطاً كهذا . . فى حين إنهم يفخرون بأنهم يقدمون كل

يوم للمحاكمات عشرات من الشباب الوطنى . . وختمت كلامى بقولى :

فلنسكن عن البوليس الوطنى . ولنكرس أنفسنا للبحث عن ذلك العسكرى الأسود ، ونعلن اسمه ، ونقدمه لمحكمة الجنايات التى ستعقد فى اليوم العلانى بدار القضاء فى محكمة الإستئناف .

وأدليت لهم ببعض استنتاجاتى ، فقلت لهم ان العسكرى الأسود غالبا من « الرديف » الذى امعل فى بلوكات النظام ، وعلينا ان نبحث عنه فى الدفاتر المخصصة لذلك الرديف وهم من جنود الاقاليم طبعا ، وبالنسبة على الأقل إلى لونه وشكله ، فهو لابد من اهل الصعيد ، ولكن فقط لا يجب علينا ان نسأل بطريقة رسمية علنية ، فالبوليس لن يسمح بكشفه بهذه السهولة ، وما دمنا نتعامل مع ثعالب وذئاب فلنرتدى جلودهم ، ولنكن مثلهم .

وعلى ذلك اخترت اثنين من الزملاء المحررين هما الأستاذ يوسف فكرى — من أبرز محررى دار الهلال حالياً — والأستاذ سعد زغلول فؤاد . . وكلفتهما بأن يذهبا سرأ إلى إدارة البوليس على أنهما من كتبة المحامين ويريدان الاستدلال على شخصية عسكرى كان منتدباً للعمل فى المحافظة وارتكب أيامها حادث اعتداء على أحد الموظفين . ثم يستفسرا عنه من دفاتر بلوكات الأقاليم .

وصح ما توقعته ، إذ حاول الموظفون تضليلهم فى أول يوم ، وفى اليوم الثانى أعطوهما الدفتر المطلوب ، ولما بحثا فيه وجدا صفحة منزوعة منه ، وكلفتهما فى اليوم الثالث بإعادة البحث فى الدفتر نفسه ، فوجدا بقية المعلومات وفيها الإسم « أمين . . » وبلدة نجع حمادى . وأنه رحل إلى بلده باستمارة رقم كذا . . بتاريخ كذا . . وهو نفس التاريخ المصاحب لتلك القضايا ، وكان بعضها قضايا « الإخوان المسلمين » ! ونزع أحد الزميلين الصورة ، وأخذ منها نسخة وأعادها إلى الدفتر ، وما أن عرضت على المتهمين حتى صاحوا جميعاً . . نعم . . هذا هو العسكرى الأسود !

وقام خلاف بينى وبين رئيس التحرير حول ضرورة سفرهما ، لاستدراجه إلى القاهرة ، بعد تصويره طبعاً . . لتقدمه للمحكمة بعد أيام قلائل . . فهذا فى رأيى هو النصر الأكبر . . وسلم رئيس التحرير بوجهة نظرى ، وأمر لأحد الزميلين بالسفر إلى نجع حمادى ومعه سكرتير التحرير إذ ذاك الأخ والزميل الفاضل إبراهيم

البحث . وكان لا بد من أكذوبة بيضاء ، ومداعبة آمال الرجل « الكرباج » ! إذا ما كادا يرحان له أن الباشا الحكمدار ، فلان ، لا يزال يذكره بالحمد ولا ينسى له خدماته للبوليس السياسي وإجباره المتهمين السياسيين على الإعتراف ! حتى وقع أمين العسكري الأسود — في الفخ ، وأخذ يسرد الوقائع الخطيرة التي كان يرتكبها في ذلك الوقت ، ثم أخذ يستعد الحضور إلى القاهرة إذا ما كان مطلوبا بالفعل . . فقال له الزميلان . . بالطبع . . ونحن مسئولون عن تكاليف انتقالاتك ، بل وإقامتك في اللوكاندة . . وجاء العسكري الأسود . . أداة التعذيب الجهنمية — كما كانت تسمية وكالة اليونايتد برس — وكذلك أكبر المجلات الإميريكية . . وسلطت عليه الإضواء من صحافة العالم أجمع . . وتكلفت هذه الخبطة الوطنية وهذه الدعاية الضخمة لجريدتنا حوالي ستين أو سبعين جنيهاً على الأكثر . . ألم أقل ان التدبير ليس هو الاقتصاد . . إنما هو الفقر الوفير ؟

الأقطاب الثلاثة

ومن الخبطات الصحفية العظيمة أيضاً ذلك الفخ الذي استدرجنا إليه ثلاثة من كبار أقطاب الأقلية ، وهم الأساتذة المرحومين علي أيوب وإبراهيم دسوقي أباظة ، وعباس محمود العقاد . . وكان الأول سعديا ، والثاني دستورياً والثالث مستقلا لكنهم كانوا يشتركون في مناصبة الشعب العداء ، مع ميل إلى الإنجليز يكاد يكون واضحاً . ولكنه في حاجة أيضاً إلى إيضاح من حين لآخر حتى لا ينسى الشعب . . وقد أوفدت لهم اثنين من أكبر رجال الصحافة لنوريطهم ، أحدهما زعم أنه صحفي إنجليزي ، والثاني تظاهر بأنه صحفي فرنسي ، واردت بهما أن يكونا شاهدين على عدائهم للشعب فلا يستطيعون تكذيبهما جملة أو تفصيلا . . وإلا فشاهداك قاتلاك كما يقول المثل .

أضربنا عن الطعام !

كانت الحكومة قد بدأت تمنع الإجتماعات ، والمظاهرات ، . . والرقابة تشتد وتتعسف على الصحف . . وفي يوم الأحد ٢٦ أغسطس ١٩٥١ . اجتمعنا في نادي الكتلة الوفدية ، محمد درويش بشركة بيع المصنوعات فرع مصر الجديدة (عن العمال) وسعد زغلول فؤاد . . صحفي عن الشباب . . وسعاد مفتي صحفية الآن بجريدة الجمهورية عن المرأة . ومحمد كامل عمر عن الفلاحين . . وفؤاد القصاص صحفي ومحمود وصفي عن الموظفين .

وقررنا أن نعتصم بنادي الكتلة وأن نبدأ إضراباً عن الطعام حتى نكتل الشعب ضد معاهدة ١٩٣٦ .

وقامت قيامة الحكومة ، لقد أصبح الناس ولا حديث لهم إلا المضربين عن الطعام . الصحف اليومية تذيع نشرة يوميــــة عن صحتهم . . والمجلات الأسبوعية تتنافس في عمل الريبورتاجات مع المضربين . . والزوار لا ينقطعون عن نادي الكتلة حيث اعتصمنا . . عزيز باشا المصري . . فتحي رضوان . . ابراهيم شكري . . السيد المهدي التعايشي على رأس وفد من السودانيين . .

عشرات وعشرات من الزوار . . والنادي لا ينفض إلا ليمتلىء . . ومظاهرات الشباب لا تنقطع عن الإلتفاف حول النادي لتحيينا . . وبرقيات التأييد تنهال علينا ، أذكر منها على سبيل المثال برقية البنداري باشا كان نصها . . أقبلكم واحدا واحدا . . وثقوا أن الشعب لن ينساكم يا طليعة الأحرار !

ويبدو أن الباشا في حماسه نسي شيئاً هاما ، هو ضعف ذاكرة الشعوب !

كانت مصر قد تحولت من أقصاها إلى أقصاها إلى أتون يغلي خوفا على صحة المضربين وتشنجا وكراهية للحكومة التي تتباطأ في إعلان إلغاء المعاهدة التي لعنها كل مصري ، وتعرض بهذا التباطؤ صحة المضربين للخطر !

وتحولت حركة الإضراب عن الطعام إلى حركة مقاومة شعبية ضد المستعمر الإنجليزى ، وضد الحكومة التى تتراخى معه !

ووزير الخارجية إذ ذاك ، محمد صلاح الدين باشا قد وقع فى حيرة . فهو لا يستطيع أن يتخذ قراراً ، خطيراً ، كهذا تحت الضغط الشعبى ، وإلا أحس الشعب بقوته ، وأصبحت هذه ، سابقة ، يلجأ إليها الشعب كلما أراد أملاء إرادته .

وفى نفس الوقت هو لا يستطيع أن يتجاهل هـذا الغليان الشعبى الذى قد يتحول الى إنفجار . خصوصاً وقد تحولت الحركة الشعبية واتجهت إتجاها عالميا ، فقد لجأت لجنة تأييد المضربين إلى السكرتير العام للامم المتحدة فأبرقت إليه مستنجدة لإنقاذ حياة المضربين .

وكان لابد من عمل سريع من الحكومة . .

وعندما انضم إلى المضربين المرحوم أحمد الوزان من تجار القاهرة ، وسيد عبد العظيم من عمال الخليفة ، وحلمى رجب المصرى من عمال وموظفى شركة قناة السويس . . لم يساور واحد منا شك ، فقد بدأنا الإضراب ونحن سبعة وبعد يومين إنضم إلينا ثلاثة فصرنا عشرة ، وفى كل يوم كان يتردد علينا شبانا ، ورجالا ، ونساءاً يعرضون الإنضمام إلى حركتنا .

ولكن الحكومة ، فى اليوم الثانى عشر لبدء الإضراب ، كانت قد قررت ، تخريب ، الحركة من الداخل ، خصوصاً وقد ساءت صحة بعض المضربين ورغم ذلك أصروا على عدم الإفطار !

وكانت تتردد على النادى — ضمن مئات المترددين — فتاة صغيرة من الاسكندرية ، كانت تدرس الصحافة معى بالمراسلة ، ولم أكن اعرفها — فى ذلك الوقت — أكثر من غيرها . . ولكن يبدو أن حالة البطولة التى أحاطت بالمضربين سحرتها ، فقد أكثرت من التردد على النادى للاطمئنان علينا . .

وانتهزها عملاء الحكومة الذين اندسوا وسط الحركة فرصة ، وبدأوا فى اشعال الموقف بحجة أن فتحى الرملى تتردد عليه فتاة يحبها ، وأنه لا يعطى الحركة جديتها الواجبة !

وبدأ الموقف يشتعل ، ووصلتنى الإشاعة ، فاتخذت موقفاً حازما من الفتاة ، ورجوتها أن تكف عن زيارتنا ، وأن تطمئن علينا — إذا شاءت من الصحف !

ولكن امتناع الفتاة عن الزيارة لم يكن يكفى فقد كان لدى ، العملاء ! عشرات غيرها من القصص والإشاعات ، وعندما توسط لدينا الأستاذ فكرى أباظة — نقيب الصحفيين وقتها — فى اليوم الرابع عشر لبدء الإضراب لوقفه ، بعد أن اخذ وعداً من وزير الخارجية بألغاء المعاهدة ، شريطة أن نفطر أولا . . رأيت إنه من الافق — فى مثل الظروف التى شرحتها — أن نوافق !

وافطرنا فعلا فى ٩ سبتمبر ١٩٥١ ، وأعلنت الحكومة الغاء المعاهدة فى ١٦ أكتوبر من نفس العام ، أى بعد مالا يزيد عن شهر !

وهناك إضافة صغيرة يهمنى أن اسجلها . . ألم أعد القارىء بكل الصدق إلا أخفى شيئا ؟ . . لقد أصبحت الفتاة الصغيرة التى كانت تتردد علينا فى نادى الكتلة ، هى زوجتى الثانية فيما بعد !

والان وأنا أسجل ذكرياتى ، فإننى أسائل نفسى فى حيرة . . هل هى طبيعتى العنيدة التى جعلتنى أتعلق بتلك الفتاة ، وأتحدى الشائعات التى ترددت عنى وعنها ، وأتزوجها . .

ام أننى وجدت فيها — فعلا — عذوبة أسرتنى ، وجعلتنى — أنا الذى اقدس الواجب — انسى واجبى ، وزوجتى التى ظلت — حتى بعد إنفصالنا أعظم سيدة وأوفى صديقة ؟

وتعود إلى إلغاء المعاهدة . .

كان — بعد إعلان الغائها — لابد لنا أن نبدأ عملا جديا . .

وبدأت « حركة المقاومة الوطنية » — التى كنا ألفناها منذ عام ١٩٤٥ مع حركة الجبهة الاشتراكية — ترسل متطوعيها إلى القتـــال لحرب العصابات ضد الانجليز !

وطبعت منشوراً باسمى بالإنجليزية كان فدائيـو الحركة يتسولون توزيعه بين جنود الإحتلال وكان نص المنشور . . من حركة المقاومة الوطنية . . إلى جنود الاحتلال بالقنال . . إنكم ضحايا . . تماماً مثلنا . . لقد ساقتكم حفنة من الإستعماريين والإمبرياليين إلى بلادنا وانتم أولاد الطبقة العاملة الشريفة وانتم لاتريدون اراقة دمائنا ولا تيتيم اطفالنا .

إننا نأسف لأننا مضطرون لقتالكم من أجل الحرية والسلام . . وسوف نظل نهاجمكم حتى تحقق أهدافنا . . وكل مانريده ان تسألوا انفسكم . . من اجل من تخسرون حياتكم . . . . أن الأموال التى تنفقهـــا حكومتكم من اجل ان تظلوا تحت السلاح ، لتكفى لحايتكم إلى حد كبير من البطالة والتعطل .

لاتسيروا وراء تشرشل وعصابته مغمضى الأعـــين ، طالبوهم بأن يعيدوكم إلى امهاتكم . . وزوجاتكم ، وأطفالكم . . إلى احبائكم واصدقائكم . .

لهذا نرجوكم أن تذهبوا . .

وإلا فسنضطركم إلى ان تفعلوا . . واعلموا إننا نعرف جيداً كيف نجبركم على الرحيل !

وكان اول شهداء حركتنا ، الطفل نبيل منصور . . غلام لم يتجاوز الثانية

ATTENTION THEREFORE

Dont follow Churchill and his gang blindly to your own peril and ruin . ask them to send you back to your mothers, wives and chilbren, sweet hearts and friends ..

SO PLEASE GO AWAY...

OR you oblige us to take drastic measures to get our beloved country freed from you . .

Bear it in mind, WE KNOW HOW TO DO IT !!

Fathi AL-Ramly

عشرة من عمره ، تسلل إلى محطه سكة حديد بورسعيد وخرج بعد دقائق وفى يده قطعة كبيرة من القماش للغموس فى الشحم والقاز . . وذهب الفتى إلى خيام الأعداء وزحف بجسده على الأرض واخترق الأسلاك الشائكة ، ثم نشر القماش المبلل بالقاز — بعد أن أشعله بالنار — على خيام الأعداء !

ثم خلع قميصه وألقاه مشتعلا بدوره على الخيـــام التى لم تكن النار قد وصلت إليها بعد وحاول بعد ذلك الفرار . . لكن رصاص الإنجليز منعه من العبور إلا جثة هامدة !

وكان استشهاد نبيل منصور أول ضحايا حركة المقاومة الوطنية فى معركة القنال ضد الإنجليز فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ !

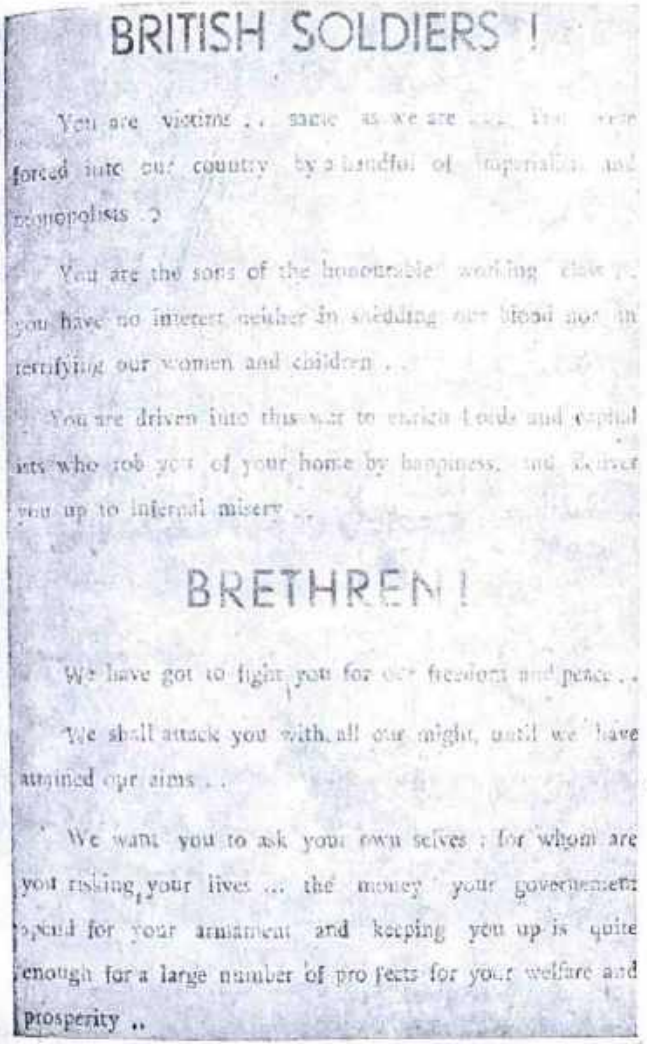

BRITISH SOLDIERS !

You are victims ... same as we are ... You were forced into our country by a handful of imperialists and monopolists ?

You are the sons of the honourable working class ... you have no interest neither in shedding our blood nor in terrifying our women and children ..

You are driven into this war to enrich Lords and capitalists who rob you of your home by happiness, and deliver you up to infernal misery ..

BRETHREN !

We have got to fight you for our freedom and peace ..

We shall attack you with all our might, until we have attained our aims ..

We want you to ask your own selves : for whom are you risking your lives ... the money your governements spend for your armament and keeping you up is quite enough for a large number of projects for your welfare and prosperity ..

صورة المنشور الذى كتبه المؤلف باللغة الانجليزية ليوزعه الفدائيون بين جنود الاحتلال .

حرق القاهرة !

وكانت لنا طريقتنا فى استقصاء الأخبار ورغما عن ضآلة مواردنا المالية ، فقد كنت أعرف كيف أضع يدى على منابع الأخبار ، وأستكشف مصادرها ، عرفت ذات يوم أن اللواء فؤاد باشا صادق يتحفز للوثوب إلى الحكم فى حركة كالتى أطاح بها الجنرال زاهدى فى إيران بالزعيم الوطنى دكتور مصدق بعد أن تمكن عملاء أمريكا من تقطيع مساعده الدكتور حسين فاطمى ، بطل التأميم لبترول إيران ، إذ استطاعوا تمزيق جثة حسين فاطمى أربا أربا . . بحسب ماجاء فى البرقيات !

وكان غرض الإستعمار البريطانى فى مصر فرض الدفاع المشترك علينـــا ولم أكتف يومها بكتابة الخبر الخطير بجميع خلفياته ، بل عملت على توضيـــح الموقف كله فى مقال افتتاحى لجريدة « البشير » التى كنت أصدرها وأرأس تحريرها وقتذاك . . وصودرت المقال ، وعجب الناس من المعلومات التى تضمنها ، والحقائق التى بنى عليها ، ولاحظوا أننى أوردت تصريحات خطيرة للوزير حامد زكى ، وعلى ماهر باشا ، وآخرين من « أبطال » الدفاع المشترك !

وكانت تصريحاتهم لأسباب « عليا » !

فقد تبنت أمريكا فكرة تفجير الثورة المكبوتة حتى ذلك الوقت فى احداث أخطر وأكمل ، وانفردت بالفعل بالعمل . . ولكن كيف ؟

بعد امتداد حركة المقاومة الوطنية فى الداخل وفى القنال ، أصبح طرد المستعمر هو مهمة الوطنيين ، والمظاهرات الوطنية باتت تعم البلاد والسخط يتجمع حول الملك ، وعشيقاته ، وعائلته وشقيقاته ، وأمه ، وعشاقهن .

أما الأمير محمد على والأمير يوسف كمال ، فيتجسد فيها السخط على الاقطاع وتعذيب الفلاحين كما يتجسد فى الأمير عمر طوسون ، ومحمد طاهر باشا والبرنس عباس حليم كل معانى الإرتياب والشك ، فهم فى نظر الجماهير أركان حرب الملك وحماة حمى الملكية !

وبصرف النظر عن حقيقة هذا من عدمه فإن طاهر باشا كان يؤسس ماسماه « البوليس الخاص » من أبناء البيوتات الكبيرة ـ والأمير عمر طوسون كان يجمع فى سهراته بعض كبار الأدباء المشهورين !

كما كان عباس حليم يزمع تأليف حزب عمال يعتمد على العمال ذوى اللون الأصفر!

مما يجعل النظر إليهم يزداد حذرا وريبة، وقد نشرت إحدى الصحف الأمريكية ذات يوم — ونقلت عنها إحدى المجلات اللبنانية — مقالا أخباريا يؤكد أن الملك فاروق يفكر جديا فى ترك الحكم أو الملك، ليتفرغ لحياة اللهو واللعب وإن مجلس البلاط الاعلى ويضم كبار عائلته كولى العهد وغيره، قد قاوموا هذه الرغبة، ومنعوه من التنفيذ إلا إذا عين خليفته . . وحددوا له الامير محمد على، وإن الملك رفضه، وقيل يومها أن الملك ترك هذه الفكرة أو أنه تظاهر بذلك وسكت الجميع عن الكلام فى هذا الموضوع!

وكانت البلاد تلهث وهى تستمع إلى الإشاعات المتتالية عن إسم المرشح للحكم بعد الوفد! . فقيل أنه الاستاذ أحمد حسين المحامى . . وقيل لا . . بل أحمد حسين رئيس جمعية الفلاح مع خليط من معارفه امثال عباس عمار وغيره من الاصدقاء المعروفين لامريكا . . مجرد اصدقاء!

وكثرت الإشاعات، واصبح الناس يبيتون على إشاعات، ويصبحون على إشاعات غيرها . . وفى كل ركن أو صالون او مقهى . . يتهامسون عن إشاعة، وفى ركن من حروبى «سليمان باشا» شوهد أحد الصحفيين الامريكان وهو يسر بحديث إلى الاستاذ فريد شحاته سكرتير الدكتور حامد حسين، لعله ينقله إليه، رحمه الله، ويقول له باختصار. إن الأيام القليلة القادمة ستفاجىء الناس بأحداث ضخمة، ربما تتغير بها الخريطة السياسية للشرق الأوسط، وسيظهر لاعبون جدد على المسرح السياسى، ويختفى اللاعبون الحاليون!

وكنت أسمع كثيراً من هذه المبالغات فى ذلك الوقت، ولذلك فلم أهتم كثيراً . . ولكن، فى مساء اليوم نفسه، دخل على فى مكتبى شاب من شباب مصر الفتاة هو الاستاذ أنور عامر ومعذرة إذا فوجئ بهذه الاسرار أبوح بها الآن — وبادرنى بقوله . . إن مصر الفتاة سوف تسقط وزارة النحاس باشا!

قلت وأنا لا أخفى تعاطفى إذا ذاك مع الوفد: وكيف تستطيعون اسقاط وزارة تحوز على ثقة الجماهير على هذا النحو . . أن الرأى العام الإنجليزى يسيطر عليه حزبان . . العمال والمحافظين!

والرأى العام الأمريكى يسيطر عليه حزبان أيضاً هما الديموقراطى والجمهورى!

والرأى العام الفرنسى يتقاسمه حزبان أو ثلاثة . . أما الرأى العام المصرى فلا يسيطر عليه إلا حزب واحد هو الوفد . . فكيف يمكن الاطاحة بحزب هذا شأنه . . يحوز على أغلبية . . وأية أغلبية؟!

وأجاب الإستاذ أنور عامر بإيمانه العميق ضد الوفد وحماسته المتدفقة: بالعمل بالإيمان . . سنثبت بالأعمال التى سنفاجىء بها النحاس باشا أنه غير قادر على حكم البلاد . . وعندها سوف تسقط حكومته الضعيفة التى لاتحارب مع الشعب، ولا تعرف كيف تتقدمه!

وتذكرت أن بعض شباب «مصر الفتاة» قد هاجموا كازينو كوبانا بشارع عماد الدين وحطموا بعض الثريات الكهربائية وأن هذا الذى حدث قد لايكون أكثر من «بروفة» للعمل الذى يخطط له الأستاذ أحمد حسين وجماعته النشطة، والذى وعد به فى مجلس جماعته المسمى مجلس «الجهاد»!

لكنى لم ألبث أن ابتسمت فى هدوء . . فقد خطر لى أنه لن يفعل أكثر . . وأن هذا هو مدى ما يستطيع!

ولكن فى اليوم التالى — يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ — استيقظت الجماهير على أمر خطير . . فقد كانت القاهرة تحترق!

وهرع بعض الناس يشهدون الحرائق، بينما حبس الكثيرون أنفسهم داخل البيوت . . وكنت أحد الذين آثروا الحبس الاختيارى فى ذلك اليوم الذى كنت أراه مقدمة لاعتقال أكبر عدد من الوطنيين البريئين عن مظنة الإتهام . . ولكن صديقى المهندس حلمى لبيب ما لبث أن زارنى وألح على فى مصاحبته فى عربته لمشاهدة آثار الدمار . . وكان أول ما شهدناه . . منظر الحاج على الغندور وهو يشرف على ما أصاب محلات «بوندى» تاجر السلاح بشارع رشدى، وكان أقرب المحلات إلينا . . وقد أصبح طعاما للنيران!

ثم ذهبنا إلى كازينو أوبرا . . وكانوا قد أشعلوا فيه النيران . . ولما جاءت المطافىء بعد نصف ساعة كاملة!

قطعوا خراطيمها بالمدى! ثم أحرق فندق الكونتنتال . . وشيرد . . ورأينا أحد الضحايا يهبط على ماسورة المياه لاستحالة خروجه وسط النيران . . ويستطيع — من يريد حكما سريعاً — أن يتهم مصر الفتاة من أول لحظة،

فأغلب الذين كانوا يروحون ويغدون فى الشوارع من شباب مصر الفتاة ، بل وكان بعضهم يحمل صورة الملك فاروق !

وتستطيع أن تفهم المقصود من هذا الجو على سبيل التهويش ، أو التعمية !

ولكن لا إعتقال أحمد حسين وشباب مصر الفتاة وايداعهم المعتقلات والسجون ، ولا تجمعات المحمومين منهم فى بعض الشوارع الجانبية يحرضون على تغذية الشعب بكلمات لها رنين الطبل الأجوف . . لاشىء من هذا كان يمكن أن يخدع العين السليمة . . وربما اشترك بعض إخوان الحرية بقيادة الشيخ الزواوى فى حرق القاهرة ، وربما وضع أعضاء مصر الفتاة فى مكان الصدارة ، بل وربما اشترك بعض الضباط ، ضباط البوليس وجنود الجيش (كالمظاهرة التى قام بها بعض الجنود الذين حلوا الصاغ عبد الخالق ، وهى تساهم فى المتنة على غير وعى منها) وربما كان بعض المأجورين أو غيرهم من شركة الصناعات الكيماوية الأمبراطورية ، وشركة شل وغيرهما قد نفذت ما عليها !

ولكن بقيت الأصابع الأكبر التى دبرت الجريمة ، وكانت على رأسها . . وذلك شأنها باستمرار ، وفى كل مكان . . إنه اسلوب « المافيا » (١) . . أسلوب العصابات الأمريكية ، والتى لانستبعد أن تكون قد استأجرتها المخابرات المركزية بنفسها !

لقد حاولت — وحاول غيرى قطعا — أن نكشف . . من الذى حرق القاهرة ولكن الذين كانوا يخشون إثارة هذا الموضوع ، كتفوا تماماً أقلام الرقباء . بل وقطعوا ألسنتهم بحيث لاينطقون ولا يتكلمون !

المهم ان كل من اتهموا . . كأحمد حسين ومصر الفتاة ، والاخوان المسلمين واخوان الحرية ، حتى ولا المخابرات البريطانية ، والسفير البولندى ! !

كل هؤلاء أريد باتهامهم التعمية عن الفعلة الحقيقيين أعضاء « المافيا » سواء كانوا بملابسهم الحقيقية . . أو بالأقنعة والأزياء التنكرية باعتبارهم ، ومن السهل أن تعرف بعد ذلك عملائهم من الصهيونيين . . ومن إليهم !

(١) أعتى العصابات الامريكية المنظمة فى عالم الاجرام الامريكى .

وبات الوطنيون فى تلك الليلة وهم يتوقعون القبض عليهم وترحيلهم إلى السجون قبل صباح اليوم التالى ، كما جرت العادة عند كل حادث يمكن أن يلقى ظلا من الشك على الذين دبروا حادث الأمس !

وبدأ المجرمون يعملون على أشاعة الإتهام ، فالاخوان يتهمون مصر الفتاة ومصر الفتاة تتهم الاخوان المسلمين ، وفؤاد سراج الدين يتهم السراى باستخدام بعض الضباط ، أو الإتفاق معهم على التواطؤ ، والضباط يؤكدون أن بعض اذناب الملك مثل حسين سرى عامر وغيره قد فعلوا ما فعلوا لتعمية الناس عن حقيقة تآمرهم على البلاد ، والوطنيون يتهمون الجواسيس الإنجليز والجواسيس الإنجليز يتهمون الشيوعيين !

وكانت براعة التكتيك الإجرامى تحرص على أن يصبح المصريون وهم متهمون جميعاً بحرق مدينتهم ، ماعدا فئة واحدة لا تشير إليها أصابع الإتهام !

كلا ، وحتى بعد أن هدأت موجة الإتهامات ضد المجرمين ، ظل الإتهام مركزاً حول بعض الجهات ، أذكر منها على التخصيص . . السفارة الإنجليزية والمفوضية البولندية فالوزير المفوض لبولندا — كما خرجت الإشاعة تقول — حرق وارسو ، ومن المحترقين فى اشعار النيران ، والسفير الإنجليزى صاحب مصلحة ، لأن الإنجليز كانوا مغيظين من الفدائيين ونشاطهم فى القنال ، وكانت هاتين الإشاعتين هما فى الحقيقة أقوى ماتردد فى ذلك الحين ، رغم علم الناس سر إنتشار الاشاعة ، وبالتالى مصدرها ، وكان هو بالتحديد . . الإستعمار الجديد !

وبالتحدى .. أصدرت المعارضة .

كان المرحوم أحمد عصفور شخصية عجيبة حقا .. تزوج أكثر من عشرين مرة، وخاض أكثر من أربعين مغامرة ! واشتغل مع مئات الشخصيات من مختلف الألوان والجنسيات .. عربية وإنجليزية وفرنسية وألمانية .. ملوكا وأمراء ! .. خدم وصعاليك ! إعترف لى ذات مرة أنه كان ضحية مردة وشياطين من زبانية البوليس السياسى .. وما أدرك ! ولكنى لم أكن أصدقه فى هذه الإعترافات الغريبة التى وصلت إلى حد أن آخر مارواه لى قبل أن يلفظ أنفاسه .. أن بعض أفراد البوليس المصرى قد ضربوه بالرصاص ! ثم عاد وزعم أنه كاد يذهب ضحية « المافيا » الذين اصطادوه قبل ركوبه الطائرة وطعنوه عدة طعنات فى جنبه ثم عاد يدوخنى بكلمات محمومة فزعم أن الخنجر الذى ضرب به كان مسموما !

.. رحم الله المغامر التعس .

وكان « عصفور » هذا قد عمل معى فى جريدة الجمهور المصرى مندوبا لموافاتنا بقضية الأسلحة الفاسدة، ولم يلبث أن وطد صلته بالنبيل السابق المرحوم عباس حليم الذى كان واحدا من الذين جاء ذكرهم فى تلك القضية ، وحاول « عصفور » والنبيل السابق .. حاولا أن يجعلانى أقبل منهما هدايا .. أو رشوة نقدية ، مقابل أن أنشر لهما ما يكتبانه دفاعا عن عباس حليم ، ولكنى اعتذرت لهما بأنى شخصيا لا أقبل على نفسى مثل هذه الأمور ولما أعيت « عصفور » الحيلة معى ، اراد أن يفعل شيئا يصطاد به « عصفورين » بنفس الحجر . فقد جاءنى يوما يسألنى ، وبلهجة من يرثى لحالى : (كنت فى ذلك الوقت سنة ١٩٤٩ اتقاضى خمسين جنيها و ١٠ جنيهات بدلات ، كما جاء على لسان صاحب الجريدة نفسه فى القضية العمالية) :

— لماذا لا تصدر جريدة خاصة ؟

قلت له : ومن اين لى بالمال .. اننى لا املك قيمة التأمين اللازم لإصدار

هذه الجريدة . وكعادة « عصفور » فى تهوين الأمور .. اخرج من جيبه قلما وهو يسألنى عن الإسم الذى اريده لجريدتى . فقلت دون ان افكر طويلا .. الإسم .. ؟ الإسم .. ؟ سمها الشرارة .. ثم عدت لقول .. ما رايك فى المعارضة ؟ .. قال وهو ينصحنى ضمنا .. فلتكن الشرارة .. لان الحكومة .. حكومة السعديين وقتها على ما اذكر .. لن تعطيك ترخيصا بهذا الإسم .. اسم المعارضة .

وفكرت بسرعة ثم قلت له .. بل نسميها المعارضة .. فما دامت الحكومة ستعترض فسيكون اعتراضها على الجريدة .. ايا كان الإسم .

وفى اليوم التالى كنت عائداً إلى بيتى فوجدت البواب ينتظرنى وفى يده خطاب مغلق سلمه لى وهو يقول : رسالة من صديقك الذى كان عندك بالأمس .. ،

ورفعت حاجبى دهشا متعجبا .. فقال موضحا : صديقك الذى يعرج قليلا .

وفهمت فى الحال انه يقصد عصفور .

ورحت اقرأ الخطاب متعجلا .. ثم اعيد قراءته مرات ومرات .. لم اجدك بالأمس فى مسكنك وقد انهيت لك كل شىء بخصوص موضوع الجريدة .. ستجد فى البنك البلجيكى باسمك ضمان بمبلغ ١٥٠ جنيها باسم جريدة المعارضة اصاحبها فتحى الرملى . اذهب غدا إلى البنك البلجيكى بشارع قصر النيل واسأل عن المدير ، وسيعطيك خطاب الضمان فى الحال .. ولم يقل عصفور فى خطابه .. خصما من اى حساب ؟ .. وتركت الخطاب فى جيبى وانا متردد فى الذهاب .. مؤمنا ان القصة كلها ليست إلا كذبة خيالية من تدبير احلام عصفور . وفى اليوم الرابع او الخامس .. وجدت نفسى صدفة امام البنك ، فدخلت ، وسألت عن المدير .. وبعد اقل من دقيقة كان الرجل يستقبلنى وهو يعاتبنى لأنى تأخرت . ثم قال .. تفضل انتظر حتى تكتب لك المدموازيل خطاب الضمان على الماكينة . ولكنى فضلت ان اجلس مع المدموازيل لسبب لا يعنى المدير .. فقد خجلت ان اسأله شخصيا .. هذا الخطاب .. خصما من اى حساب ؟

وقالت لى الآنسة وهى تسلمنى الخطاب .. ألا تعرف الضامن ؟ .. أنه البرنس عباس حليم ! وكانت الخبر مفاجأة غير متوقعة بالنسبة لى .. أنا الذى طالما هاجمت عباس حليم .. وبعنا فى جميع الصحف التى كنت أصدرها .. والذى طالما سخرت من زعامته للعمال .. كيف استطاع أحمد عصفور أن يقنعه بأن يؤدى لى هذه الخدمة الجليلة ؟ ! .. وخشيت أن يكون الأستاذ عصفور قد وصل إلى هـــذا عن طريق إيهامه بأننى سأقدم له ثمناً من أى نوع وتحت أى وعد .. وفكرت فى الرجوع إلى عباس حليم قبل أن أقبل هذه الضمانة ، وسألت عنه فى نادى السيارات ، فلم أجده .. وقيل لى أنه فى أوروبا ، وأن يعود قبل الأسبوع الأول من يناير ١٩٥١ .

على أى حال كان « البرنس » قد أسرنى بلطفه ، واستطاع بسنارة وده ، أن « يضعنى » فى شبكته ، حتى لو كان شريراً .. فما بالك إذا كان قد فعل ما فعل بحسن نية ، وبلا غرض على الإطلاق ؟ ! وبدأت أحلم بالجريدة التى ستنافس أكبر الجرائد الأسبوعية فى ذلك الوقت ! ولم يكن معى أكثر من ثلاثمئة وخمسين جنيهاً بادىء الأمر .. فاشتريت بعض الأثاث البسيط لمكتبى ومكاتب المحررين ، وقررت إلا أنفق إلا بقدر .. حتى الإعلانات عن الجريدة ، قررت إلا أسرف فيها من الناحية المادية ، فطبعت بطاقة وعليها إستفتاء عن المصير الذى يفضله القارىء لقناة السويس .. هل هو تأميمها أم تمصيرها أم ردمها .. ؟ وفى نفس الوقت قامت حملة من صغار أصدقاء الجريدة تملأ الجدران والحوائط باسم « المعارضة » .. أسفرت فى اليوم التالى عن غرامات بمائتى جنيه حررها لنا البوليس ، وثلاثة خطابات مسجلة بعلم الوصول من ثلاثة تجار أنذرونا بالتقاضى مقابل قضايا نفتتـــح بها نشاط الجريدة فى ساحات المحاكم !

وإلى جانب هذا كانت هناك أمجاد أخرى .. مثلا .. بدأت مصلحة البريد توافينى بأجولة كاملة من بطاقات الإستفتاء كنا نعرضها عند أبواب الجريدة «

فيثير منظرها الرهيب أفكار الناس ، وجاءنى خطاب من عصفور يقول فيه .. (خلاص .. سأحضر لك مبلغاً كبيراً من المال .. هل تكفيك عشرة آلاف جنيه .. دفعة أولى ؟ ! ..)

وقال بعد أن أشبعنى نصائح .. لا تتردد كما فعلت أول مرة .. أذهب هذه المرة حالا تجد عشرة آلاف جنيه رأسمالا للجريدة ، فهل تريد استلامها .. اذهب إلى شركة القنال بقصر الدوبارة واستلم المبلغ حالا ، وأعطنى علما بما تم ، لأفرح لك .. مجرد فرح ، فأنا لا أطمع فى أى مبلغ منك .. تكفينى فعلا هذه الأمجاد التى تحققها !!

قلت لنفسى وأنا أمط شفتى .. وآسف لهذه العقلية أى أمجاد يريدنى هذا المأفون أن أفرح بها ؟ .. وأى عار يلحق بنا إذا خطر لنا أن نفرح بهذا الإنتصار المخزى .. الحقير ؟ !

ذلك أننى لم تغب عنى بقية القصة التى أخفاها هذا الأفاق عنى ، فقد كان بريد اليوم نفسه يتضمن بعض الكتب الأنيقة ، فى طباعـــة فاخرة ودعوة لزيارة الأستاذ يوسف نحاس بمقر شركة القنال للتفاهم على النشر ، وموافقة مبدئية من المركز الرئيسى فى باريس على نشر ميزانيتهم السنوية فى « المعارضة » نظير عشرة آلاف جنيه ! !

وظللت مشحوناً بالغضب فى ذلك اليوم ، وفيما بعد ، حدث أننى قابلت النبيل عباس حليم بعد عودته من أوروبا فى نادى السيارات لأشكوله « عصفور » وأقول له أننى سأنفض يدى منه لما يجلبه علينا من المتاعب ، وما كدت أذكر اسم عصفور حتى وجدت النبيل عباس حليم ينتفض من الغضب وهو يلق بنار حممه على عصفور .. وضقت ذرعاً بهذا الكلام .. فقلت له بالنص .. يا أفندينا .. أفهم من كلامك أنك ساخط على هذا الشخص وأنك لا تطمئن إليه ، فلماذا إذن أراك تثق به وتعطيه كل أسرارك ! وقال عباس حليم بلكنته الغريبة : شوف يا أخى .. إذا أردت أن تصيد فأراً .. فلوح له

بفتفوته ، الجبن ! ، ونطق البرنس كلمة « فتفوته » بلكنته الغريبة مما جعلنى أغرق فى الضحك ، فقد فهمت ما يعنيه النبيل .

وتحضرنى بهذه المناسبة واقعة طريفة حدثت لى مع عباس حليم بعد قيام الثورة ، فقد ذهبت ازوره وجلسنا نتحدث فى الشئون الجارية ، وكان مطلوبا للمثول امام محكمة الثورة ، وسألنى « البرنس » عما يفعل ، فقلت له : رأيى ان تصدر الليلة بيانا تتنازل فيه من اللقب فإن ألقابك الشعبية تكفى . اما تلك التى نلتها ايام الوفد وفى عهد صدقى البغيض فهذه تتنازل عنها ، وترد إليهم اوسمة النبالة والامارة ، وتعلن تنازلك من املاكك . . وضحك وهو يقول : ليس عندى ما امتلكه سوى مسجد صغير ، فهل اعطيهم المسجد ؟

ثم إلتفت يسألنى ، من هم الذين طلبوا محاكمتى . . ان بعض اعضاء مجلس القيادة . . وذكر اسماء منها اسم وجيه اباظة وعبد اللطيف البغدادى ، من الذين يعرفون انى تبرعت بأموال كثيرة لحركة الفدائيين فى القنال ، ويعرفون انى شخصيا ، بل وبناتى . . الفية ونيفين ، كنا نسرع دائما إلى تلبية اى نداء وطنى . . ثم رأيته يمسح دمعة كادت تخونه ، وتنزل من عينيه !

وقد اوصلنى يومها إلى الباب وهو يطلب إلى ان ازوره غدا وبعد غد ، ثم يطلب إلى أن ابلغ سلامه وتحياته إلى « زملائى » اعضاء مجلس الثورة !

إذن فقد كان « البرنس » يظننى منهم . !

وكان كل ما فعلته إذ ذلك . انى قدمت إليه آخر نسخة من جريدة « المعارضة » حيث كان اول ما لفت نظره فيها خبراً من املائى وكتابة زميلى فى ذلك الحين جلال كشك ، وكانت عناوين ذلك المقال — كما اذكر — هو « ستؤيد هذه الوزارة دون ان نشترك فيها » . . والغرض منه المعارضة اليسارية بالذات ، إذ كان يحمل لواء الهجوم على قانون الاحزاب وغيره من القوانين التى صدرت لتصفى الديموقراطية لمدة ثلاث سنوات ليس إلا ثم طالت حتى اصبحت عشرين عاما او تزيد ! .

وكنت اعتصم بنادى الكتلة مضربا عن الطعام حتى الغى معاهدة ١٩٣٦ ، حين جاءنى ضابط بوليس يخطرنى أن الوزارة تعترض على إصدار جريدة « المعارضة » مؤقتاً حتى تستكمل تحرياتها كما يقول نص التبليغ ! ولم أوقع هذا الإخطار إلا بعد إن كتبت بخط يدى اننى لا أعترف بهذا الإخطار لأن الوقت فيه تحايل لإطالة المدة القانونية ، وأنى سأصدر الجريدة بعد انتهاء الثلاثين يوماً التى حددها قانون المطبوعات ، ما لم يصلنى إخطار نهائى قبل هذا التاريخ !

ولما انتهى الإضراب نقلت إلى مستشفى الخازندارة لأعالج من بعض إثارة . . وهناك لاحقنى ضابط البوليس مرة أخرى بالإخطار النهائى برفض التصريح لى بإصدار « المعارضة » ووقعت — بعد إن سجلت أيضاً — أن هذا الإخطار قد وصلنى متأخراً . . بعد الموعد القانونى !

واشتد بى المرض وطال . . وخرجت لأجد أن بينى وبين الفرصة الأخيرة لرفع قضية خاصة بالمعارضة أيام . . ووضعت يدى فى جيبى أبحث عن رسوم القضية . فلم أجدها . . وفى هذه المرة أيضاً وجدت صديقاً يدفعها عنى هو الزميل المهندس حلمى لبيب .

وعندما صدر الحكم لصالحى فى ٢١ نوفمبر ١٩٥١ كان بينى وبين موعد النطق بالحكم فى القضية التى رفعتها بطالب تعويض من حكومة الوفد التى كانت قد عطلت لى جريدة « البشير » ، ثم عندما أردت أن أصدر بدلا منها جريدة « المستقبل » وقف فؤاد سراج الدين يتهمنى بسوء السمعة والجنون !

وهرع سيىء السمعة المجنون — الذى هو أنا ! — إلى مجلس الدولة يحتكم إليه فى أمر الوزير الظريف العاقل! واستعرض حملة الاضطهاد التى كنت هدفا لها ، وكيف منعت من السفر ، وكيف حاربنى البوليس السياسى فى رزق ، وحرمنى من كل حق حتى أصبحت أزاول الكتابة خفية كما لو أنها نوعا من المهربات !

وكانت قضية التعويض موعدها يوم ١٨ ديسمبر ١٩٥١ ، ولم أشأ أن أضيع الوقت ، فأعلنت أن المعارضة ستصدر فى ٩ يناير ١٩٥٢ ، ولم لا أحدد الموعد وأنا اومن أن مجلس الدولة سيحكم لى بتعويض كبير يوم ١٨ ديسمبر حقاً لحقى ؟

ولكن يوم ١٨ ديسمبر جاء وجاء معه رفض مجلس الدولة للتعويض ، والحكم بخط السنهورى باشا نفسه . وأحسست أنى كنت خياليا عندما رتبت الأمور على أساس واه من الأمل .. ولكن ما العمل وقد قررت أن أعود إلى قرائى .. هل احتملت كل هذا الصراع الطويل .. ورفعت كل هذه القضايا .. وانتظرت كل هذا الوقت .. لأجد نفسى فى نهاية الأمر عاجزاً عن إصدار الجريدة التى انتزعتها انتزاعا من بين أنياب الطغيان الوفدى ؟ .

وانطلق أصدقائى يبحثون عن تمول ، ولكن ، أين هو هذا الشجاع الذى يعرض بضعة ألوف للضياع فى مشروع يعرف أن صاحبه عاش هذه الحقبة الأخيرة من حياته أشبه بالمبهوذ تحل اللعنة على كل من مقترب منه ؟

ولم أجد هذا الممول ، وبدأت اقترض ، وأقول لكل من يقرضنى بكل وضوح وصراحة أننى لا أدرى متى أستطيع أن أسدد هذا الدين بالضبط . فصحافة الرأى تتهددها أخطار شتى ، أقلها المصادرة ، وإضراب الشركات عن الإعلان فيها

وجمعت الزملاء الذين تحمسوا للعمل معى بدون أجر بلا أى مقابل .. جمعتهم لأزف إليهم البشرى .. فقد وجدنا تكاليف العدد الأول ، وجزءاً بسيطاً من تكاليف العدد الثانى .

وسهرنا .. عباس الأسوانى ، ومحمد جلال ، وجمال الحسينى ، وأنور عامر ، واحمد أمين يونس ، ومصطفى محرم ، والرسام عبد العظيم . وأنا .. سهرنا جميعا نعد الأصول . ونبحث عن صور ونفكر فى رسوم .. وعندما دارت ماكينة الطباعة وقدم لى الأسطى عفيفى أول نسخة .. انقبضت وفكرت أن أوقف الطبع وأن أؤجل موعد صدور العدد الأول أسبوعا أو أسبوعين .. فقد خيل إلى أن السرعة ، والخرف الذى سيطر علينا من احتمال مصادرة العدد الأول وضياع المبلغ الذى اقترضناه . خيل إلى أن هذه العوامل المختلفة لم تساعدنا على إخراجه على النحو الذى نرجوه ، والذى ينتظره منا ملايين القراء ، لكن وملأنى اقتناع أن العدد عظيم .. وقد تلقيت بعد ذلك آلاف الرسائل التى تؤكد أصحابها هـذا المعنى نفسه ، ومع ذلك فأنا مازلت مصراً .. على أن العدد الأول كان ضعيفا !

الحزب الديموقراطى

فى يوم الخميس ٢١ اغسطس ١٩٥٢ ، صدرت جريدة « المعارضة » وهى تعلن تأليف الحزب الديموقراطى !

وكانت اللائحة الأساسية للحزب تتضمن بنوداً كثيرة ، لا أستطيع بالطبع نشرها كلها ، ولكنى اذكر أنه جاء فى المادة ١٢ من برنامج الحـــزب بأنه من الضرورى أن تأخـــذ مصر .. جانب معسكر الشعوب التى تقاوم الإستعمار والفاشية والحرب .

ثم أرادت الجريدة ان تعطى تفسيراً لهذا البند ، فاستغلت فرصة إصدار عدد خاص عن مشروعى حروب كوريا ، وفلسطين ، والقنال .. وكتبت فى عددى ٢٣ و ٣٠ اكتوبر ١٩٥٢ بأن الحرب فى مصر لها وجهين .. حرب تشنها مصر ضد الإستعمار والرجعية وهذه حرب عادلة يعد فيها القتل إستشهادا ، .. وحرب عدوانية تشن لصالح أعداء الشعب من الإستعماريين والرجعيين حيث تساق الشعوب للذبح !

واضافت الجريدة .. وعندما كان كتاب الرجعية يجهدون أنفسهم فى تجميع وعود ، بريطانيا بالجلاء ولومها على عدم الوفاء ! كانت تأتينا أنباء المعارك الحقيقية فى الملايو وبورما وفيتنام ، والتى كانت جميع الصحف الإستعمارية فى مصر تصف الوطنيين فيها بالإرهابيين » !

ثم ، فى المادة رقم ١٣ جاء فى تعريف كلمة « الدولة » :

« إن الدولة ليست إلا من إختراع الجنس البشرى ، وقد وضعها لتحقيق سعادته على النحو الذى يراه ، فهى إذن وسيلة لتحقيق صالح المجموع فلاقدسية لها ومادامت الدولة هى وسيلة المجموع ، فيجب ان تسيطر عليها فئة المجموع .. والطريق إلى ذلك هو سيطرة فلاسفة المجموع على الدولة وإدارتهم لشئونها بما يتفق ورغبة الشعب ، ولكن تبـــدأ هنا مشكلة التنفيذ ، فكيف تعرف رأى الشعب ؟ .. وكيف يسيطر هذا الرأى ؟ .. وكيف يعرف ان رأى الشعب قد تحول ، إذا ما تحول .. وما هى وسيلة التغيير عند حدوث التحول وهنا قدمت البشرية الجواب .. إنه حرية الرأى .. الحرية السياسية !

وفى عدد ٣٠ اكتوبر نشرت الجريدة صورة بلاغ تقدمت به إلى السيد / حافظ سابق النائب العام ضد « . . الصحف الرجعية التى دأبت على التشكيك فى صلاحية الشعب لحكم نفسه ، وتؤكدة ان الإصلاح لن يتم والاستعمار لن يخرج إلا على يد حاكم مستبد . . وعادل !

ثم أردفت « وحيث ان هذه الدعوة تقع تحت طائلة المادة ١٧٤ والتى تنص على معاقبة كل من يروج علنا لمبادىء من شأنها تغيير مبادىء الدستور الأساسية وحيث ان جيش الشعب قد اعلن من اللحظة الأولى ان اول اهداف الحركة هو حماية الدستور ورفع لوائه ، وان فترة الإنتقـــال لن تتجاوز سنة شهور تستأنف بعدها البلاد حياتها الدستورية . .

لذلك فأنى اتقدم بهذا البلاغ راجياً سماع اقوالى بشأن الصحف والكتاب الذين يرددون دعوة الحزب الواحد علنا . . وفى جرأة متناهية » !

ولم يسمعنى النائب العام بالطبع لانى يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٢، ولا فى اى يوم بعده فقد انتصرت الرجعية ، وإنتصرت دعوة الحاكم المستبد ، والعادل فى نفس الوقت !

وفى سبتمبر من نفس العام ، بدأت « المعارضة » حملة للدعوة لإعلان الجمهورية وإنهاء النظام الملكى ، وكان على ماهر « باشا » رئيس الوزراء فى ذلك الحين ، يدعو إلى بقائه عشرين عاما ، على ان ينص فى الدستور الجـــديد على تعديلات « تقصقص » من سلطان الملك الطفل الذى كان ماوال امامه كل ذلك الوقت حتى يصبح ملكا !

وحدث أن بدأ « فاروق » — بعد خلعه — ينشر مذكراته فى أوروبا ، فترك جرائد « المصرى » و « الأخبار » و « الأهـــرام » ، وعشرات الصحف الضخمة ، وذكر جريدة « المعارضة » وقال أنه لو كان فى مصر لما سمح بقيامها !

لماذا ؟ . . كانت « المعارضة » قد هاجمته يوم كان فى قبضته السجون ، والمشانق ! والمعتقلات ، والحرس الحـــديدى ، أما بعد أن طرد . فلم يستحق من « المعارضة » كلمة واحـــدة ! كانت « المعارضة » عنده جريدة غير عادية ، فـ« المعارضة » التى صدرت يوم ٩ يناير ١٩٥٢، ولدت قبل هذا التاريخ بسنوات !

ولنعد بالذات إلى عام ١٩٤٢ . . وكنت أشرف على تحرير إحدى المجلات الأسبوعية ، وحدث أن دق جرس التليفون ، وسأل المتكلم عن رئيس التحرير فقلت انه غائب وأنا هنا أنوب عنه !

قال المتكلم : كانت عندى فكرة لافتتاحية العدد القادم أردت أن اقترحها على الاستاذ .

قلت : ماهى ؟

قال : إذا كنت أنت الذى سيكتب الإفتتاحية فاسمع الفكرة ، . اننا الآن فى عصر لا مكان فيه للشعوب الصغيرة ويجب تجميع العرب تحت راية واحدة . . لماذا لا يكون لمصر وسوريا وفلسطين عرشا واحداً ؟ . . هذه هى فكرة المقال !

قلت ساخراً : أهذا هو مشروع مصر الكبرى ؟ . . إن المشكلة ليست مشكلة تجميع العرب تحت عرش واحد ، بل هى مشكلة تجميع العرب لمحاربة عدو واحد . . لتحطيم إستعمار واحد !

قال المتكلم : هه . . وحضرتك . . لم نتشرف باسم حضرتك !

قلت : أنا فلان !

وخرجت من المتكلم المجهول شهقة عبرت عن دهشته من المفاجأة ، وقال : فتحى الرملى . . هه . . فهمت !

قلت : وحضرتك . . إسم حضرتك . .

أجاب وهو يضع السماعة : أحمد حسنين !

ومضت أيام عاد بعدها صاحب المجلة رئيس تحريرها من بلدته ورويت له القصة ، فتجهم وجهه وقال : واقعتنا سودة . . وكيف تحدثت معه بهذه اللهجة ؟ !

ثم إرتدى طربوشه وخرج مهرولا إلى قصر عابدين وعاد بعد ساعتين ، عاد وهو يتصبب عرقا وقال : كنت أظنه سيطلب فصلك ، لكنه على العكس ، كان يضحك وهو يسألنى عن حالتك المالية ، ثم طلب أن يراك دون أن تعرف إنه هو الذى يريد مقابلتك !

قلت : وماذا يريد منى ؟

قال : يريد أن « يتفرج » عليك . . أنه — كما فهمت — يريد مناقشتك

ليعرف من أنت . . ويمكنك أن تذهب إليه غداً بحجة عمل حديث معه !

قلت بعد تفكير : كلا . . لن أذهب ، ولا أريد أن أراه !

وضرب صاحب الجريدة كفا على كف وقال متعجبا : كيف ترفض مقابلة أحمد حسنين ؟ . إن كبار الصحفيين يتقاتلون على الوصول إليه !

ومضت أيام فوجئت بعدها بأول رد على موقفي ، إذ جاء الرقيب المختص بمراجعة بروفات المجلة قبل طبعها ، جاء يقول لي مندهشا : تصور . . من بين التعليمات الجديدة اليوم عدم نشر أي شيء لك ، ولو كان مديحا في الملك ، ومن الآن سوف أشطب توقيعك مضطراً على أي مقال تكتبه !

وهززت كتفي ، ورضيت أن ازاول الصحافة كما لو كانت نوعاً من المخدرات وبقيت أزاولها في السر أكثر من عام !

ولذ لي يوما أن افاجيء الجميع بأصدار كتاب يحمل إسمي رغم وجود الرقابة ، فسافرت إلى المنيا سراً وتوجهت إلى « المطبعة الخيرية » هناك ، وكنت أعرف صاحبها لكني خشيت أن أقول له أنني هارب من رقابة فاروق التي حرمت ظهور إسمي على أي مقال أو كتاب . . فيرفض طبع كتابي ، وفي نفس الوقت لم أدر كيف ابرر له إختيار مطبعة في المنيا اطبع كتاب رجل يعيش في القاهرة؟

لكن مهمتي لم تكن مستحيلة على كل حال ، فقد اقنعته بأنني في أجازة ، وأنني أريد إستغلال فراغي في إخراج هذا الكتاب !

وجمعت المطبعة حروف الملزمة الأولى . . والثانية . . والثالثة . . وشرعت في الرابعة . . عندما تلقيت فجأة رسالة مستعجلة من القاهرة يقول فيها صديقي الوحيد الذي كان يعرف مكاني . . أن البوليس السياسي فتش منزلي بالقاهرة وإنه يبحث عني في كل مكان ، وإنه قد يبرق إلى مديرية المنيا بالقبض علي ، إذ أن البوليس يعرف أنها مسقط رأسي وأن من المحتمل أن اختفي فيها ! !

ولم يكن الوقت يسمح بالتفكير فتركت بقية الأصول بالمطبعة بعد أن طلبت أن يذكر على الغلاف أنها « الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨ » ، وذلك حتى أستطيع ايهام السلطات — فيما بعد — بأن الكتاب طبع قبل إعلان الرقابة على الصحف!

ولم أقل لصاحب المطبعة أن البوليس يبحث عني ، بل تركته في هدوء وعدت إلى القاهرة حيث الاختفاء عن عيون البوليس السياسي أسهل وأضمن ، عدت

من المنيا في نفس اليوم وأطلقت شاربي وارتديت « جلبابا » من الصوف على طريقة أعيان الصعيد ، ووضعت على عيني نظارة طبية ، وأخفيت ذقني بكوفية من الصوف أيضا كنت ألفها حول عنقي إذ كان الوقت شتاء ! واستأجرت شقة صغيرة في منزل قديم بشارع نمرة حيث حررت عقد الإيجار باسم : محمود المنياوي تاجر غلال !

واستطاع « محمود المنياوي » ! إن يقضي شهرين ونصف متنقلا بكامل حريته في كل أنحاء القاهرة ، حتى ظن أنه في مأمن من عيون البوليس السياسي ، فخلع الجلباب البلدي وإرتدى بذلة عاديه ، وفي هذا اليوم بالذات ألقي القبض عليه بالقرب من ميدان عابدين ، وكانت في جيوبه بروفات الكتاب وخطاب إلى المطبعة يوصيه فيه بأن يطبعه بأقصى سرعة !

وفي قسم عابدين ، تركني كونستابل البوليس السياسي في حراسة أحد العساكر ريثما يتحدث إلى الى رئيسه تليفونياً ويخبره بأن الصيد قد وقع في الشباك!

وما كاد الكونستابل يتجه إلى التليفون حتى تظاهرت بأنني في حاجة ماسة إلى دخول دورة المياه ، فسمح لي العسكري بدخولها تحت حراسته ، وهناك . . مزقت الخطاب وألقيته في البالوعة ، وما كدت أشرع في تمزيق بروفات الكتاب حتى وجدت الكونستابل يفتح الباب في حركة عنيفة وهو يلعن العسكري ، ويصف « غباوته » بألفاظ تعبر عن هياجه وثورته !

واقتادني الكونستابل إلى دار المحافظة ، وكان وكيل البوليس السياسي قد حضر من منزله على أثر الاتصال به ، حضر للتحقيق مع المتهم الهارب !

وسألني : اين كنت ؟

قلت : في منزل أحد أصدقائي .

ولاحظ عنادي في اجوبتي ، فلم يبذل محاولة جديدة لمعرفة المكان الذي كنت اختفي فيه ، ولكنه سألني وهو يقلب بروفات الكتاب : في أي مطبعة تطبع هذا الكتاب ؟

أجبت : لا أعرفها . . إن صديقي الذي كنت اختفي عنده هو الذي كان يتولى عني هذه المهمة ! ونظر إلى وكيل البوليس السياسي في غيظ وحنق وقال هه . . وهل تعرف لماذا قبض عليك ؟

قلت : بالطبع لا . .

قال : إذن لماذا هربت ؟ . . ومن الذى أخبرك بأنه مطلوب القبض عليك ؟

قلت فى نحد : هذا ما سوف أجيب عليه عند التحقيق معى فى النيابة !

قال والشرر يتطاير من عينيه : آه . . النيابة العسكرية !

وصدر الأمر باعتقالى ، وكانت التهمة هى الاشتراك فى تدبير مؤامرة لإغتيال رئيس الحكومة ، النحاس باشا وقتذاك !

وساقونا إلى سجن التخشيبة ، وخيل إلى كل من دخل هذا السجن لم يتس أن يودع جدرانه ولو كلمة مختصرة يسجل بها تاريخ حبسه ، إما الكتاب والشعراء الذين اتيح لهم أن ينزلوا ضيوفا عليه فقد أبوا إلا أن يخصوه ببعض إنتاجهم !

وكانت هذه الكتابات هى أول ما شغلنا به فى محبسنا ، فقـــد إنفرد كل منا بجانب حائط من حوائط السجن وأخذ يقرأ ما سجل عليها !

وكان طريفا أن أقرأ قصيد طريفة بتوقيع « الندليب » ! جاء فى مطلعها . .

لا السجن يرهبنا ولا السجان أبداً ولا يعصف بنا الحرمان

والحق أن الغيرة دبت إلى نفسى فرأيت بدورى أن اقتنص هذه الفرصة قبل افلاتها ! وهكذا سجلت على حائط السجن زجلا طويلا بدأته هكذا . .

السجن للأحرار تكريم وفخر مش محتاج برهان
يعرف كدا حتى المأمور حتى الى سموه السجان !

وقلت فى ختامه :

آدى احنـــا بنجاهد ونذوه والجهد ظاهر مش خافى
ومهما حطوا حديد وقيود يامصر برضه أوعى تخافى !

وترامت إلينا الأنباء أن كاتبا عملاقا يدعى عباس العقاد قد ألقى القبض عليه وأنه فى طريقه إلى السجن معنا !

والحق أنى فرحت كثيرا لهذا النبأ ، لا لأننى أكره الرجل ، بالعكس ؛ فقد كنت لا أزال إحترامه وقتذاك وكثيرا ما سمعت أنه شديد البأس ، جبار !

ورأيت هذه المناسبة فرصة لأعرفه عن قريب فلعلى أقتبس منه بعض جبره وشدة بأسه !

وجاء الكاتب العملاق ! من بعيد أصفر اللون ، مقوس الظهر ، مكتئبا ، مغموما . . يرتدى فوق سترته معطفا رغـــم أن الوقت كان صيفاً ! وبادرونا فصافحناه ، واجتمعنا حوله نحاول التخفيف عنه دون جدوى !

أجل .. ظل ذلك « الجبار » حزينا ، متألما لسجنه ، ولما مضى عليه سوى دقائق ! وأنصافا للحقيقة ، وليس رغبة فى التشهير . . أقول أن ارتعاد العقاد وأسفه الذى لم يملك القدرة على إخفائه ، كان أول ما صدم آرائى فى العقاد كرجل ، فضلا عنه كاتبا جباراً !

وأعود إلى « المعارضة » . . لقد بذلت وأصدقائى جهوداً جبارة لاستمرار صدورها ، رغم المصادرات المستمرة ، والاضطهادات والتحقيقات المتلاحقة . ولكن للقدرة البشرية بالطبع حدوداً . .

وهكذا ، فقد صدر العدد الأخير من « المعارضة » فى ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ ، واحتجبت بعدها !

الخاتمة

وقد توقفت حبيبي فى كتابك عند يوم ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ ، عندما صدر آخر عدد من أعداد جريدتك « المعارضة » !

ولم تجعلك الظروف السياسية — التى كانت سائدة — تستطيع أن تكمل ، ثم لم يمهلك المرض ، والقدر ، حتى تكمل !

فهل أكمل أنا كتابك ؟ .. هل أسرد باقى ما أصابك ؟

لقد قامت ثورة يوليو ، ومنذ البداية تولى أمرها أناس قرروا أن يمسحوا تاريخ ما قبل الثورة ، وكل من ساهم فى صنع تاريخ ما قبل الثورة .

فى ٥ أبريل ١٩٥٤ ، أصـــدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحل مجلس نقابة الصحفيين ، وتعيين لجنة مؤقتة لإدارة شئون النقابة ريثما يصدر قانون جديد ينظمها على أساس استبعاد أصحاب الصحف من عضويتها ..

وصدر فعلا هذا القانون الجديد فى ٣١ مارس ١٩٥٥ (قانون رقم ١٨٥ لسنة ١٩٥٥) ، وبناءاً على هذا القانون الجديد ، أصدر وزير الإرشاد القومى — إذ ذاك — قراراً بتأليف لجنة مؤقتة تراجع جدول النقابة لتستبعد منه الذين لا تتوفر فيهم شروط العضوية .

وفى ٢٢ يونيو من نفس العام شطبت هذه اللجنة إسمك يا حبيبى من عضوية النقابة أنت الذى كنت عضواً بها منذ ١٦ مارس ١٩٤٣ .

وانتهزت « دار الهلال » — وكنت تعمل بها حينذاك — الفرصة ، وأبانتك بالإستغناء من خدماتك من أول أغسطس ١٩٥٥ ، بحجة أن مجلس النقابة الجديدة الذى انتخب فى أول يوليو ١٩٥٥ ، قد حذرها فى كتاب رسمى من التعاون مع غير أعضاء النقابة ؟ .

وعبثاً حاولت يا حبيبى إقناع المسئولين فى الدار المذكورة بأن من حقك الاستمرار فى عملك لحين الفصل نهائياً فى التظلم الذى تقدمت به — وكان نفس القانون قد أعطى لمن يشطب اسمه حق التظلم أمام رئيس محكمة استئناف القاهرة — وأخيراً .. اشترطت الدار عليك ان تقدم لها خطابا من مجلس النقابة

التفسير حتى لا يعود هـذا المجلس نفسه إلى إلغاء النيابة ضدها بتهمة مخالفة القانون ، وهكذا تقدمت يا حبيبي إلى مجلس النقابة في ٢٤/٧/٥٥ بخطاب مسجل برقم (٧٠) بالتماس إعطائك هذا الترخيص لتتمكن من الإستمرار في عملك الصحفي لحين البت في تظلمك . . ولكن المجلس « الموقر » . وكان المجلس الأول بعد صدور القانون المذكور برئاسة الأستاذ حسين فهمي — نقيباً — وأحمد قاسم جوده — وكيلا — وصبري أبو المجد — سكرتيراً عاماً ، والبير عمون — أمينا للصندوق ، والأساتذة والسيدات : أمينة السعيد وحافظ محمود ، وجلال الحمامصي ومحمد نجيب وعلي حمدي الجمال وعبد الوهاب علي ومحمد وجدي والأمير المليجي أعضاء ، رفض مجرد الرد على إخطابك . وهكذا بدأت رحلة تعطلك يا حبيبي . والتي استمرت حتى آخر العمر . .

فعندما قبلت اللجنة الإستئنافية تظلمك في جلسة ١٩ نوفمبر ١٩٥٥ ، وقررت إعادة قيدك في جدول النقابة ، لم تستطع العودة إلى عملك في دار الهلال ، فقد ابلغتك الدار ان مكانك قد شغل وتقدمت إلى مجلس النقابة تطلب توسطه — وهو السبب في هذا البلاء — لإعادتك إلى عملك ، او لأي عمل آخر ، وبالطبع ، كانت النية قد اتجهت إلى سياسة واضحة بالنسبة لك ، وهي ألا تعمل ! ففي عام ١٩٥٨ ، تمكنت من العمل بجريدة الجمهورية ، وبعد أسبوعين بالضبط ، استدعاك المرحوم صلاح سالم ، وأبلغك وعيناه تدمعان ، انه مضطر إلى فصلك بناء على تدخل من صلاح نصر ، ولجأت إلى تدريس الصحافة بالمراسلة لمن يرغب ، وهو العمل الذي كنت تلجأ إليه كلما سدوا امامك ابواب الرزق ، وتنبهت الحكومة في اول ابريل من عام ١٩٦٣ إلى انك مازلت تعيش ، فقامت بتفتيش منزلك بواسطة ضابط يدعى السيد / محمود سويلم ، كان يعمل وقتها رئيسا لقسم مكافحة النشل بمحافظة القاهرة ! !

واخذوك يا حبيبي إلى قسم السيدة زينب ، حيث حجزت مع اللصوص والنشالين في القسم .

ورجوتني ان الجأ للصديق الأستاذ إبراهيم البعثي — شفاه الله وعرضه بقدر ما نحن مدينين له — وهكذا استنجدت به ، واستطاع الصديق ان يعمل على الإفراج عنك في نفس الليلة .. ولكن هذا الحادث احزنك الى حد جعلك تنزف

وما . . وعندما سألنى الدكتور امين الصيرفى — عندما لجأنا إليه لإسعافك — هل حدث ما احزنه ؟

لم نقل شيئا ، لا انا ، ولا انت ، وماذا كنا نستطيع ان نقول ، بل وما فائدة اى شىء يقال ؟ ! ثم اصبت بجلطة فى المخ ، تكررت مرة بعد مرة فقد حظر علينا العمل الذى نعيش منه — دراسة الصحافة بالمراسلة — وبعنا « فيلا » كانت تحت التشطيب بمدينة الصحفيين ، ايضا بمساعدة الأخ الأستاذ إبراهيم البعثى ، فلم يكن قد انتهى بناءها بعد ، وكان من الممكن ان تبخس تماما على اعتبار ان من يبيع على هذه الصورة هو إنسان لا يملك طعام يومه وحقا كنا — بالمعنى الحقيقى للكلمة — انت وأنا وثلاثة اطفال، لا نجد طعام يومنا.

ولجأت يا حبيبى للأستاذ محمد صبيح ، وكان يتولى تحرير صحف « دار التعاون » فأصبح ينشر لك مقالا كل اسبوع ، تحدد الدار موضوعه ، وعدد سطوره ، مقابل خمسة جنيهات . اى عشرون جنيهاً شهرياً .

ومن عام ١٩٦٣ حتى ديسمبر ١٩٦٧ ، كانت ايامنا صعبة للغاية . وكان حزنك يا حبيبى عظيما . . فقد اصبحت بدون قلم تجد نفسك فيه . . وبدون مال تهرب من نفسك إليه .

وفى عام ١٩٦٧ . وبعد الهزيمة . اصدر الرئيس عبد الناصر امرا بـ « تعيين » . جميع الصحفيين الذين لا يعملون، ضمن محاولة لترميم هيكل الدولة المتداعى والذى ادى إلى الكارثة ، وعينت فعلا مع غيرك بنفس دار التعاون التى كنت تنشر بها مقالتك الأسبوعية ، وبنفس المرتب الموحد الذى تقرر للجميع ، أربعون جنيها شهرياً ، وأنت الذى عندما التحقت بالعمل عام ١٩٥٨ بجريدة الجمهورية ، قرروا لك — مبدئياً — مرتباً ثمانون جنيهاً ، أى نصف مرتب ، مع التجاوز عن فرق زمنى مدته عشرة أعوام ؟ !

وأردت أنت أن ترفض فقد كان تعطلك أكرم — عندك — من هذا الوضع المهين ، ولكنى أنا توسلت إليك أن تقبل ، فقد كانت حياتنا صعبة للغاية ، وكان الأطفال بحاجة إلى مال ، وفى طفولتهم قد لا يفهمون ، أو قد يعدون كل تقصير من ناحيتنا هو نوع من ضراوة « زوجة الأب » !

وقبلت يا حبيبى من أجلى ، ومن أجل الأطفال ، ولكن ذلك كله كان على

حساب صحتك ، وصار المرض يفاوضك ، خصوصاً بعد أن تولى الرئيس أنور السادات السلطة ، فقد كان يعرفك كمكافح صلب ، وكان اعتقادك وفرحتك الكبيرة أن يوم تحرر الوطن قد حل ، ودور الصحفيين الوطنيين قد جاء . .

ولكن ياحبيبى طال أيضاً إنتظارنا . . وعندما صدر القرار الجمهورى ٣٨٠لعام ١٩٧٣ بإعادة كل صحفى إلى الدار التى كان يعمل بها عندما جاء اسمك بالجريدة الرسمية باعادتك إلى جريدة الجمهورية .

وعندما رفض السيد / مصطفى بهجت بدوى ، رئيس مجلس ادارة دار التحرير للطبع والنشر — وقتذاك — أعادتك ، واصر على الرفض رغم القرار الجمهورى الواضح ، وبدون سبب مفهوم . .

وعندما جاءك خطاب فصل من « دار التعاون » بامضاء الأستاذ محمد صبيح على اعتبار إنك عينت بجريدة الجمهورية وإنه من غير المعقول أن تعمل فى دارى نشر فى وقت واحد ، هذا رغم أن الاستاذ صبيح كان يعلم تماماً أن جريدة الجمهوريه كانت — بالفعل — مازالت ترفض عودتك للعمل بها . .

وعندما ثقل لسانك وأنت بنقابة الصحفيين تتحدث مع الأستاذ مصطفى نبيل وكنت معك — وتشكو له موقف الاستاذين مصطفى بهجت بدوى ومحمد صبيح منك . .

عندها . . كانت النهاية قد حانت ياحبيبى . .

لكنك رفضت أن تستسلم ، وكأنك وجدت فى المرض خصما تتحداه ، فاستيقظت فيك « الروح » التى حاولوا طويلا طمسها دون جدوى . .

وصرت تتعامل مع المرض ، وتتحداه ، بنفس الروح التى عجز « القهر » عن التغلب عليها . وكنت فى عذابى من أجلك ، لا أملك إلا ان احنى رأسى اجلالا لقوتك ، كنت تصر على أن أصحبك إلى محاميك لتتابع قضاياك . وتصر على أن آخذك إلى النقابة لتعطى صوتك للدكتور يوسف ادريس نقيباً . . كنت تزاول — رغم مرضك — حياتك وتتابع شئون وطنك وأوطان الآخرين . .

ومنحتنى قوتك قوة ! وتفاؤلا . . وصرت أتعجل اليوم الذى ينسحب فيه المرض مقهوراً معترفا بهزيمته ، لكنك ياحبيبى لم تكن فى النهاية سوى بشر . وهكذا لم يلبث ان غلبك المرض ، و « القهر » ، فلزمت المنزل لاتخرج إلا للضرورة ؛

وكففت عن الاهتمام بكل شيء . . كنت ياحبيبي قد تعبت . .

وعندما صدرت لائحة أجور الصحفيين، وتضاعف مرتبك إلى أربعة أو خمسة أضعاف، ومن قبل لائحة الأجور وعندما تدخل — جازاه الله كل خير الدكتور حافظ غانم وكان مسئولا على ما اذكر — عن الصحف المملوكة للاتحاد الاشتراكي عند الأستاذ صبيح، وطلب منه تليفونيا — أمامك — رفع مرتبك، وهو يسأله مندهشا : فتحي الرملي يقبض أربعين جنيها ؟

وفعلا، لم يحن الشهر التالي إلى وقد تضاعف مرتبك ولكن بشرط واحد، هو أن تقبض ولكن لاتكتب إلا في ما يقرره لك رئيس التحرير، ويكون من الأفضل لك، وللجريدة، إلا تكتب على الإطلاق !

لم تعد إذن تشكو الحاجة إلى المال، لكنك كنت ياحبيبي قد أصبحت في غير حاجة إليه . فقد صرت تمشي وتتكلم بصعوبة، ولا تخرج إلا بمساعدتي . . وإذا أردت شيئاً ، ترجمت ، أنا ما تريد قوله إلى الناس حتى يفهموك !

لم تعد إذن ياحبيبي بحاجة إلى المال . . ولم أعد أنا أيضاً في حاجة إليه بعد أن صارت حياتي عـــذابا متصلا من أجلك ياحبيبي . . أنت الذي كنت لي، ولعمري كله منه بدء شبابي، الأب والصديق، والأخ، والزوج والحبيب . . والحياة كلها . . ولم يعد أولادك يدورهم في حاجة إلى المال، فقد كبروا واستقل كل منهم بحياته . .

وبعد يا حبيبي . .

فمسئولية من هي، أو جريمة من هي هذا الذي أصابك ؟ أنني أترك هذا السؤال معلقاً — الآن على الأقل — وأكتفي بأن اقدم هـــذا الكتاب وثيقة إدانة ضد ظالميك، وهم كثيرون، قام كل منهم بدوره، حتى وصلوا بك في ٢ يونيو ١٩٧٧ إلى حفرة في جوف الأرض . . وقد كانت بداية تعذيبك عندما أشعلتها ثورة فكرية بكلمة « الإشتراكية » التي أدخلتها إلى قاموس هذا الشعب عام ١٩٤٥ ولم يكن أحد، لا حكومة ولاشعبا، يعرف بعد ما هي الإشتراكية فلما بدأت الحكومات الرأسمالية تتنبه إلى معنى الكلمة، أعلنوها حربا عليك وكانت حربا غير متكافئة، فقـــد كانوا يملكون السجون، والمعتقلات، والتشريد

والتجويع .. نعم ياحبيبى .. التجويع بالمعنى الحقيقى المؤلم لكلمة . تجويع .
ولم تكن تملك أزاء كل ذلك الا صلابتك وقلمك ، وقد أخذوه منك ،
وفرضوا عليك الصمت قبل أن يفرضه على لسانك المرض ، وكانت هذه هى
عدد النجوم !

وبعد ياحبيبى فماذا أقول ؟ .. لم يعد لدى ما يقال ، أو لعل الذى لدى كثير
جدا بحيث يزاحم بعضه بعضا .. ولذلك ، فأننى اختم كتابك بصورة لخطابين،
احداهما للسيد اللواء / محمود السباعى مدير الأمن العام ، فى عام ١٩٦٦ .
وفيه تقول بعد أن تشكر على انهائه مهزلة حجزك بقسم السيده زينب :

أما العناصر التى تتجاهل تاريخ الرواد الأول للإشتراكية فى بلادنا ،
وما قدموه فى هذا السبيل ، وهو ما يساوى العمر كله .. فإننى على ثقة أنها لن
تكف عن مطاردتى .. ثم تستطرد : وأرجو أن تتكرموا بحفظ هذا الخطاب
فى اى ملف لإدارة الأمن العام ، لكى يكون شاهداً إذا مت أو دفعت للموت
كمداً ، أو جنوناً ، أو انتحاراً ..

والثانى مسوده خطاب كتبته بخطك ـ فى مرضك الأخير ـ للسيد خالد محيى
الدين ، تشكو فيه من المرض الذى هو داثر من آثار الإعتداء على .. ثم تستدرك
فتضيف .. فى العهود السابقة !

* * *

وبعـــد ..

فنم ياحبيبى فى سلام ..

فلم يعد فى مقدور بشر أن يؤذيك !

٢ / ٦ / ١٩٧٩ عبلة فهمى

أما الفكاهة التي تتخللها تسابيح الشيوخ الأول للاشتراكية في شبابك [illegible]
وهيا تدعوه في هذا المجهول، وهو ما يعلو في العصر كله . ولهذا ما ستكون لـ[illegible]
فرصة أشرق . وإذا حدث وكان من حظي التي لم أستشهد كما استشهد المرحوم
صلاح حسين، فأنا على ثقة أن هؤلاء العشاق لن تتخلى عن مطاردتي، والذي أرجوه
فقط أن يكونوا بحفظ هذا الخطاب في أي ملف لإدارة الأمن العام، فأنا واثق من أنكم
ستفتحونه يوما كقضية رئيسية .. إذا مت أو دفعت للموت كمدا، أو مسموما، أو انتحارا
على الأقل لمطاردتي في رزقي .

فهذه الفكاهة التي حرمتني من هذا العمل، هي نفسها التي حرمتني من
العمل في أخبار اليوم، والجمهورية، والمساء، ودار الهلال، الخ ....

واشكرك إذ أمرت بوقف [illegible] في جريدة المصور والشغالين .
وأشير بتقصير في حسابك .

والسلام عليكم ورحمة الله ...

١٩٦٦/٥/٢٦

[illegible] السرطي
١٨ شارع صفية زغلول
القاهرة

عزيزي الأستاذ الكبير خالد محيي الدين
رئيس التجمع الوطني (مجلس السلام)

أرجو قبول عضويتي [illegible] في هذا التجمع اليساري حتى أستطيع
أساهم برأيكم في العمل الحقيقي لتغطية سياستنا الشرعية
الوحدوية، شاكرا لكم [illegible]
ترشدنا الله وإياكم السداد والتوجيه لكل ما فيه مصلحة البلاد
[illegible]

وقد حدث مثل هذا [illegible] طريق المراسلة [illegible] إذا أحسنت
[illegible] السنة [illegible] [illegible] السابقة
علاوة لذلك لم أستطع [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] عن [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] لما فيه خير البلاد والعباد [illegible]

٢/٤/٩٧٧

[illegible]
١٨ شارع صفية زغلول
بالقاهرة

مؤلف الكتاب

- كان شعار جريدته البشير « . . الإنسان أعظم رأس مال فى الوجود » .
- فى ٢٩/٨/١٩٥٠ نظم حملة لدفع الحكومة المصرية إلى الاعتراف بالصين الشعبية!
- كانت دعوته المخلصة « الشعوب لا تريد الحرب » مبينا الفرق بين الحرب العدوانية، والحرب التى يقوم بها الشعب لتحرير نفسه مؤكدا أن هذه الأخيرة حرب مقدسة !
- اضرب عن الطعام مرتين من أجل وطنه: الأولى احتجاجاً على قانون الاشتباه السياسى الذى كان يضيف إلى المتشردين ، المحكوم عليهم فى جرائم الرأى والثانية لتجنيد الشعب ضد معاهدة ١٩٣٦ ، وقد انتهى الإضراب فى ٩ سبتمبر ١٩٥١ وألغت حكومة الوفد المعاهدة فى ٦ أكتوبر من نفس العام !
- ألف عام ١٩٥٠ ، جماعة الدعوة لتأميم القنال ولكن الحكومة القائمة إذ ذاك حاربتها وحلتها .
- دعا إلى تأليف لجان وطنية فى كل حى وقرية لتنظيم حركة وطنية تقف فى وجه المحاولات التى كانت تريد ربط مصر بالمعسكر الاستعمارى .
- الصوت الوحيد الذى ارتفع يدعو إلى التحقيق فى كارثة فلسطين كلها ـ وليس الأسلحة الفاسدة فقط ـ مناديا بأن الحرب المفاجئة العربية التى دفعت اليها مصر تكشف بأن الحدود بين الصهيونية ، والاحتلال ، والخيانة ، معدومة!
- عاش مغضوبا عليه من جميع العهود، مطاردا فى رزقه وحريته ، منذ ألف عام ١٩٥٦ كتابه الخطير ، الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار .
- لم يضعف كل هذا القهر من صلابته ، أو إيمانه العظيم برسالته ، وبالشعب ، وإن كان أثره قد ظهر واضحا على صحته فأصيب بالجلطة ، المرة تلو المرة ، حتى استشهد فجر ٢ يونيو ١٩٧٧ ولم يكمل ٥٨ عام !

مطابع الناشر العربي
شارع الصحافة - القاهرة